ماتياس إينار



شارع اللصوص

ترجمة: ماري طوق

منشورات الجمل

رواية

ماتياس إينار

شارع اللصوص



ترجمة: ماري طوق

منشورات الجمل

ماتياس إينار: **شارع اللصوص**، رواية

وُلد **ماتياس إينار** في مدينة نيور الفرنسيّة عام ١٩٧٢. يعدّ من أبرز روائيّي فرنسا المعاصرين. درس اللغتين العربيّة والفارسيّة، وترجم كبار الشعراء العرب والفرس. عاش ردحاً من الزمن في الشرق والعالم العربي بين بيروت ودمشق وتونس وطهران، وهو مقيم حالياً في برشلونة حيث يقوم بتدريس اللغة العربية في الجامعة. له عدّة روايات صادرة عن دار «أكت سود»: **دقّة الطلقة** (٢٠٠٣، جائزة القارّات الخمس للفرنكوفونيّة)؛ **صعود نهر الأورينوك** (٢٠٠٥، اقتبسته للسينما عام ٢٠١٢ ماريون لين تحت عنوان «بقلب مفتوح» مع جولييت بينوش وإدغار راميريز)؛ **زون** (٢٠٠٨، جائزة ديسمبر ٢٠٠٨؛ وجائزة أنتر للكتاب ٢٠٠٩، وجائزة قدموس الفرنكوفونيّة ٢٠٠٨)؛ **حدّثهم عن المعارك والملوك والفيلة** (٢٠١٠، جائزة غونكور الطلاب ٢٠١٠)؛ **شارع اللصوص** التي فازت بجائزة غونكور، خيار الشرق ٢٠١٢.

ماتياس إينار: **شارع اللصوص**، رواية، ترجمة: ماري طوق، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'aide à la publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

- على المرء أن يرى في شبابه أشياء ويجمع خبراتٍ وأفكاراً ويشرع آفاق ذهنه. «هنا!»، قاطعْتُه قائلاً، «من يدري! هنا بالذات التقيت كورتز».

جوزف كونراد، **في قلب الظلام**.

القسم الأول

مضائق

الرجال كلاب، يتمسّحون في البؤس، ويتمرّغون في القذارة دون سبيل للتخلّص منها. يلعقون وبرهم وعضوهم طيلة النهار، متمدّدون في العفر، متأهّبون للقيام بأيّ شيءٍ للحصول على ما يُرمى لهم، سواء قطعة لحم رديء أم عظمة متعفّنة. وأنا مثلهم، كائن بشري، حطامٌ فاسدٌ إذاً، عبدُ غرائزي. كلبٌ أنا، كلبٌ يعضّ عند الخوف ويستجدي المداعبات. أرى بوضوح طفولتي، حياةَ الجرو الذي كنْتُه في طنجة، وتسكّعاتي كلباً شاباً، وأسمع نحيبي كلباً مضروباً. أدرك لهثي للإناث، ذاك اللهث الذي ظننتُه الحبَّ، وأدرك حقيقة معنى غياب السيّد، ذاك الغياب الذي يجعلنا نتسكّع جميعاً باحثين عنه في الظلام ونحن نشمّ واحدنا الآخر، هائمين على وجوهنا دون هدف. في طنجة كنت أمشي خمسة كيلومترات مرّتين في اليوم لأرى البحر، والمرفأ، والمضيق[1]. والآن لا أزال أمشي كثيراً، وأقرأ أيضاً وبوتيرة متزايدة؛ تلك طريقة ممتعة في التحايل على الضجر والموت، والتحايل على الفكر نفسه بإلهائه وإبعاده عن الحقيقة، الحقيقة الوحيدة وهي هذه بالذات: نحن

---

(١) مضيق جبل طارق.

حيوانات وُضعت في أقفاص تعيش لأجل المتعة في الظلام. لم أعد ثانيةً إلى طنجة، ومع ذلك صادفت أشخاصاً كانوا يحلمون بالذهاب إليها للسياحة، واستئجار دارة جميلة مطلّة على البحر، واحتساء الشاي في مقهى الحافة، وتدخين سجائر الكَيْف، ومضاجعة أهل البلد، الذكور منهم في أغلب الأحيان لكن ليس حصراً؛ فمنهم من يأملون مضاجعة أميرات ألف ليلةٍ وليلة. صدّقوني ما أكثر هؤلاء الذين طلبوا مني تأمين إقامة وجيزة مريحة في طنجة مرفقة بحشيشة الكيف وبعض البلديّين. ولو عرفوا أنّ العورة الوحيدة التي تفرّست فيها قبل بلوغي الثامنة عشرة كانت فرج قريبتي مريم لأُغمي عليهم من شدّة الذّهول أو لما صدّقوني، لأنّ طنجة مرتبطة لديهم بالشهوة والرغبة، بإباحةٍ لم تكن في متناولنا قطّ لكنّها تُقدَّم للسائح لقاء نقودٍ توضع في صرّة البؤس. أمّا حيُّنا فلم يكن يأتي إليه أيّ سائح. لم يكن المبنى الذي ترعرعت فيه غنيّاً ولا فقيراً على غرار عائلتي. كان والدي رجلاً تقيّاً، صالحاً حسبما يُقال، رجلاً شريفاً لا يسيء معاملة زوجته ولا أولاده. ما خلا بعض ركلات على المؤخّرة من وقتٍ لآخر، لكنّها غير مؤلمة فعلاً. كان رجل كتاب واحد، الكتاب الكريم، القرآن، هذا كلّ ما كان يحتاج إليه ليعرف ماذا ينبغي له أن يفعل في هذه الحياة وما ينتظره في الآخرة: تأدية الصلاة خمس مرّات في اليوم، والصوم، وإيتاء الزّكاة. كان حلمه الوحيد الحجّ إلى مكّة، وأن يُدعى الحاج، الحاج محسن. كان هذا طموحه الوحيد. كان سيّاناً عنده أن يتحوّل دكّان السمانة الذي يملكه إلى متجرٍ كبيرٍ بفضل العمل. وسيّان عنده أن يكسب ملايين الدراهم. كان يحبّ القرآن والحجّ، وهذا كلّ شيء. كانت أمي تُجلّه وتنصاع له بطاعة شبه بنويّة مصحوبة بتبعيّة خاضعة. وكبرْتُ

هكذا في كنف سور القرآن والأخلاق ومغازي النبي محمّد وأزمنة العرب المجيدة. تردّدت إلى مدرسة متوسّطة المستوى وتعلّمت فيها القليل من الفرنسيّة والإسبانيّة. كلّ يومٍ كنت أنزل بِمَعيّة بسّام صاحبي إلى المرفأ، في القسم السفليّ من المدينة، وإلى السوق الكبير نسترق النظر إلى الفتيات. وأصبح هذا النشاط، أي ملاحقة الأجنبيّات، وخصوصاً في الصيف حين يرتَدين السراويل والتنانير القصيرة نشاطاً رئيساً لدينا أنا وبسّام ما إن أزغبت عانتنا، لم يكن لدينا الشيء الكثير لنفعله في الصيف ما خلا مطاردة الفتيات، والذهاب إلى الشاطئ وتدخين لفائف الكيف عندما يُمرّر لنا أحدهم بعضاً منها. كنت أقرأ عشرات من الروايات البوليسيّة الفرنسيّة القديمة. أشتريها مستعملة بمبلغٍ زهيدٍ من تاجرِ كتبٍ قديمة. تستهويني هذه الروايات لما فيها من جنسٍ، وفتيات شقراوات في الغالب، وسيّارات، وويسكي، وأموال، أي كلّ الأشياء التي تنقصنا ونحلم بها، منحصرين كما كنّا بين الصلوات، والقرآن، والله، الذي كان بمثابة أبٍ ثانٍ لنا، دون الركلات على المؤخّرة. كنّا نجلس في أعلى الجرف قبالة المضيق ومن حولنا المدافن الفينيقيّة التي كانت مجرّد فجواتٍ في الصخر، ممتلئة بأكياس رقائق البطاطا وعلب الكوكاكولا بدلاً من الجثث القديمة، وكان كلانا يضع «ووكمان» على أذنيه، ونروح نراقب رواح العبّارات ومجيئها بين طنجة وطريفا[٢] لساعاتٍ طوال ويتملّكنا سأم لا يوصف. كان بسّام يحلم بالسفر وتجربة حظّه في «الجهة الأخرى» على حدّ قوله. كان

---

(٢) طريفا: جزيرة سمّيت على اسم الفاتح طريف بن مالك، تقع في منطقة الأندلس جنوبي أسبانيا.

والده خادماً في أحد المطاعم للأثرياء على واجهة البحر. لم أكن، فيما يخصّني، أفكّر كثيراً بالجهة الأخرى من المضيق، لا بإسبانيا ولا بأوروبا. كنت أهوى كلّ ما أقرأه في الروايات البوليسيّة، هذا كلّ شيء. بمعيّة رواياتي، أتعلّم لغة وبلداناً، مزدهياً بالتعرّف إليها وامتلاكها لي وحدي. لا أرغب في أن يدنّسها لي ذاك البليد بسّام بطموحاته. آنذاك، كان الأمر الوحيد الذي يستهويني هو قريبتي مريم، ابنة عمي أحمد التي تعيش بمفردها مع والدتها في الطابق نفسه الموازي لشقّتنا. كان والدها وإخوتها يعملون في الزراعة في ألميريا[٣]. لم تكن تتمتّع بجمالٍ أخّاذ ولكنّ نهديها كانا عارمين وردفاها نافرين. كانت ترتدي غالباً داخل المنزل سروالاً من الجينز ملاصقاً للجسم أو أثواباً شفّافة بعض الشيء، يا إلهي، يا إلهي، كانت تثيرني حتى الجنون. أتساءل مراراً هل تتقصّد ذلك، وأراها في أحلامي الشبقة قبل النوم، أعرّيها من ملابسها، أداعبها، أضع وجهي بين نهدَيها الطافحين، غير أنّني كنت عاجزاً عن القيام بالخطوة الأولى. فهي قريبتي، بوسعي الاقتران بها ولكن ليس العبث معها. هذا ممّا لا تُحمَد عقباه. فأكتفي بالحلم وبالتحدّث عنها مع بسّام خلال فترات بعد الظهر التي نمضيها متأمّلين مخور المراكب. اليوم ابتسمت لي، اليوم كانت ترتدي هذا الثوب أو ذاك، اليوم تراءت لي حمّالة نهديها حمراء، إلخ... كان بسّام يهزّ رأسه قائلاً إنّها تريدك، هذا أكيد، تهتمّ بأمرك وإلا لما كانت تقدّم لك هذا العرض، عن أيّ عرضٍ تتحدّث، أجبْتُه، أمر طبيعي أن

---

(٣) ألميريا أو المرية مدينة إسبانيّة أندلسيّة تقع في جنوب شرق إسبانيا على المتوسّط.

ترتدي حمّالة نهدين، أليس كذلك؟ نعم، ولكنّها حمراء يا صديقي، ألا تتنبّه للأمر؟ ترتدي الأحمر لإثارتك. . . وهكذا دواليك لساعات طويلة. كان لبسّام وجهُ فقيرٍ مستديرٌ بعينين صغيرتين. يرتاد المسجد كلّ يوم برفقة والده، ويمضي الوقت راسماً خططاً عجيبة تمكّنه من عبور المضيق سرّاً، متنكّراً بزيّ موظّف جمارك أو بزيّ شرطيّ. كان يحلم بسرقة الأوراق الثبوتيّة لأحد السيّاح، وارتداء ثياب أنيقة وحمل حقيبة جميلة، ثم ركوب المركب خليّ البال كأنّ شيئاً لم يكن. رحت أسأله: ولكن ما الذي ستفعله في إسبانيا وأنت من دون فلس؟ فيجيبني سأعمل قليلاً وأقتصد المال، ومن ثمّ أذهب إلى فرنسا، ومن فرنسا إلى ألمانيا ومن هناك إلى أميركا. لا أعرف لماذا كان بسّام يتصوّر أن السّفر إلى الولايات المتّحدة أسهل من ألمانيا. أقول له: الطقس شديد البرودة في ألمانيا، ثم إنّهم لا يحبّون العرب. فيقول لي: غير صحيح، ثم لعلمك هم يحبّون المغاربة؛ قريبي يعمل ميكانيكيّاً في دوسلدورف وهو سعيد جدّاً هناك، يكفي أن تتعلم الألمانيّة لِيحترموك ويوقّروك. أضفْ إلى أنّهم أكثر تساهلاً من الفرنسيّين في إعطاء الأوراق الثبوتيّة.

كنا نتبادل أضغاث أحلامنا: نهدا مريم مقابل الهجرة. ونستغرق في تأمّلاتنا قبالة المضيق ومن ثمّ نقفل عائدين، سيراً على الأقدام، فيذهب بسّام إلى صلاة المغرب وأسعى أنا لرؤية قريبتي مرّة أخرى. كنّا في السابعة عشرة على المستوى الزمني وفي الثانية عشرة على المستوى العقلي. لم نكن ماكرين كثيراً.

بعد عدّة أشهر نلتُ فلقي الأوّل وابلاً من الضربات واللكمات لم أشهد له مثيلاً. وانتهى بي الأمر شبه صريع أبكي ذلاً وألماً،

ويبكي والدي خجلاً وهو يتلو المعوذات: قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق ومن شرّ غاسق إذا وقب ومن شرّ النفّاثات في العقد... قل أعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس... وكل ما تبقّى، وهو يوسعني صفعاً وينهال عليّ بضرباتٍ من حزامه، فيما راحت والدتي تنتحب في إحدى الزوايا، وتبكي هي أيضاً ناظرة إليّ وكأنّني الشيطان عينه. وعندما خار أبي ولم تعد لديه القدرة على ضربي، ساد صمت مطبق، صمت عظيم. أخذ كلاهما يحدّقان فيّ، صرت كالغريب، مهاناً ومرتعباً. وشعرت أنّ هذه النظرات تقذفني خارجاً. امتلأت عينا والدي حقداً فانطلقت مهرولاً، صافقاً الباب خلفي. على سفرة الدرج سمعت بكاء مريم وصراخها خلف الباب وقرقعة الضربات المنهالة عليها، وتناهى إلى سمعي شتائم: «يا كلبة، يا عاهرة»، ونزلتُ الأدراج مهرولاً. عندما صرت في الشارع، لاحظت أنّ الدم ينزف من أنفي، وأنّني لا أملك إلا قميصي فقط وعشرة دراهم بالضبط في جيبي. لا مكان أذهب إليه. كان الصيف في بدايته، وكان المساء، لحسن الحظّ، دافئاً والهواء مالحاً. جلست أرضاً مستنداً إلى جذع شجرة أوكاليبتوس. أطرقت أبكي مثل صبيّ صغير، حتّى هبوط الليل، والأذان للصلاة. نهضت وبي خوف. كنت أعرف أنّني لن أعود إلى منزلي، لن أعود، هذا مستحيل.. وما العمل؟ ذهبت إلى مسجد الحيّ لأرى ما إذا كان بإمكاني التقاط بسّام لدى خروجه. رآني فنظر إليّ مندهشاً. أشرت إليه بأن يترك والده ويتبعني. ويحك؟ هل رأيت وجهك؟ ماذا جرى لك؟ قلت له، باغتني والدي عارياً مع مريم. ولا لشيءٍ إلاّ لذكرى هذه اللحظة، أخذت أصرّ على أسناني، واغرورقت عيناي بدموع

الغضب. لا يزال الشعور بالعار، العار المشين لدى مباغتتنا عاريَيْن نهب نظرات الآخرين، هذا الشعور الحارق بالعار يقهرني حتّى اليوم. صفّر بسّام مستهجناً، ما كان يجدر بك أن تفعل ذلك. قلت دون الدخول في التفاصيل ولكنّ ما حصل قد حصل. وماذا ستفعل الآن؟ لا أعرف. إلا أنه لا يمكنني العودة إلى منزلي. وستنام أين، سألني بسّام. ليست لديّ أدنى فكرة. هل لديك مال؟ قال لي معي عشرون درهماً وليرة واحدة، فقط لا غيرُ. أعطاني بعض القطع النقديّة الموجودة في حوزته. عليّ الذّهاب. هل نتلاقى غداً؟ كالعادة؟ قلْت موافق، وانصرفَ... قمت بجولةٍ في المدينة وبي شيء من الضياع. صعدت جادة باستور ثم انحدرت إلى ضفاف البحر عبر الشوارع الصغيرة. كانت الأضواء الحمراء تلوح في حانات الساقيات، وقد جلس خلف الواجهات أشخاص مريبون. على الكورنيش، رجال ونساء يتنزّهون باطمئنان متعانقين، ما جعلني أفكّر في مريم. عدت إلى المرفأ ثم صعدت حتّى المدافن الفينيقيّة وجلست قبالة المضيق. تلألأت الأنوار جميلة في إسبانيا. تخيّلت الناس يرقصون على الشطآن، والحريّة، والنساء، والسيّارات. ماذا سيصير بحالي وأنا دون سقف يؤويني ولا مال...؟ هل سأستعطي؟ هل سأعمل؟ حريّ بي العودة إلى المنزل. لكنّ هذا الخيار يدمّرني مسبقاً. مستحيل. تمدّدت ناظراً طويلاً إلى النجوم. وغفوت حتى أرغمني برد الفجر على النهوض والسير لكي أشعر بالدفء. شعرتُ بالألم في كلّ أنحاء جسدي جرّاء الضربات وأيضاً الالتواءات التي أحدثها النوم ليلاً على الصخر. ليتني عرفت، ليتني كنت متعقّلاً وعدت إلى المنزل، ثمّ تضرّعت إلى والدي مستغفراً. لو لم أكن متكبّراً لفعلت ذلك

وتجنّبت مهاناتٍ كثيرة وجراحاً أليمة. ربّما صرت أنا نفسي سمّاناً وتزوّجت بمريم، أو لعلّني كنت الآن في طنجة أتناول العشاء في مطعم جميل على الواجهة البحريّة أو أنهال ضرباً على أولادي، بطن جراءٍ صغيرة تنبح ألماً وجوعاً.

جعتُ فالتهمت فواكه مهترئة تركها السبّاخون للمتسوّلين.
وتعيَّن عليّ العراكُ لأجل الحصول على تفاحات ممضوغة، وبعض حبّات البرتقال الفاسدة. واضطرّني الأمر للاصطدام بعصابة المعدمين التي كانت تحوم مثلي حول السوق والعراك مع المعاقين من كل نوع، وحيدي ساق أو منغوليين. في الخريف واجهت البرد وأمضيت ليالي بأكملها مبلولاً، فيما كانت العواصف تنهال على المدينة. طردتُ المتسوّلين من تحت القناطر، ولجأت إلى المدينة العتيقة، والمباني قيد الإنشاء حيث يتعيَّن عليك رشوة الحارس لكي تنأى عن الرطوبة. في الشتاء رحلت نحو الجنوب ولم أجد شيئاً آخر إلا رجال الشرطة الذين انتهى بهم الأمر إلى إبراحي ضرباً في مخفرٍ متعفّنٍ في الدار البيضاء لحثّي على العودة إلى أهلي. صادفْتُ شاحنة ذاهبة إلى طنجة. شاركني السائق الطيّب نصف طعامه ثم صفعني لأنّي رفضْتُ أن أمارس معه اللواط. وعندما مررت لرؤية بسّام، عندما تجرّأت على وطء الحيّ ثانيةً كنت أصبحت في الثامنة عشرة من عمري؛ الله أعلم كم فقدت من الكيلوغرامات من وزني، أضحت ملابسي أسمالاً، وأشهرٌ عدّة مرّت دون قراءتي كتاباً. باتت حظوظي قليلة في أن يتعرّف أحد إليّ. كنت منهكاً،

وجسدي يرتعش. لم أكن تامّ النظافة، أغتسل في باحات المساجد، تحت النظرات المستهجنة للحجّاب والأئمّة. وجدتني مرغماً على الذهاب إلى المسجد والتظاهر بالصلاة لأحظى بدفءٍ قليلٍ على السجاجيد المريحة. آخذ قرآناً ثم أنتحي زاوية أنام فيها جالساً والكتاب على ركبتيّ متّخذاً هيئة خاشعة حتّى يستاء أحد المؤمنين الحقيقيّين من رؤيتي مشخّراً على الكتاب المقدّس ويطردني خارجاً مع رفسة في مؤخّرتي وأحياناً عشرة دراهم لكي أنقلع وأنصرف بعيداً. كنت أرغب في رؤية بسّام لأسأله الذهاب لزيارة أهلي، وإعلامهم بأنّي آسف وأنّي تعذّبت كثيراً وأريد العودة إلى البيت. أذكر، كنت أفكّر غالباً في أمي. وفي مريم أيضاً. وفي اللحظات الأكثر قسوة، اللحظات الراعبة حين أُرغم على التذلّل لحارس موقف أو شرطيّ، والرائحة الفظيعة لعاري تنبعث من ثنيات ملابسهم، أغمض عينيّ وأفكّر في رائحة جلد مريم، والساعات القليلة تلك التي أمضيتها معها. صدمتني السرعة التي يتغيّر فيها عالم بأكمله.

نغدو المعادل البشريّ للحمام أو النورس. يرانا الناس دون أن يلحظونا، وأحياناً يوجّهون لنا رفساتٍ لكي نختفيَ عن أنظارهم، وقلّة منهم يتخيّلون على أيّ دربزين سفينة أو أيّ شرفة ننام ليلاً. أتساءل فيمَ كنت أفكّر آنذاك. وكيف صمدت. ولماذا وبكلّ بساطة لم أعد بعد يومين إلى أبي وأتهاوَى على الكنبة في الصالون. لماذا لم أذهب إلى دار البلديّة أو أيّ مكانٍ آخر طلباً للعون. ربّما كنت أستمدّ العون من قوّة الشباب اللامتناهية، أو لعلّ جبروته هو الذي يجعل كلّ شيءٍ ينزلق عنّا فلا يصيبنا شيءٌ حقاً في الصميم. في الفترات الأولى على الأقلّ. ولكنّي بعد عشرة أشهر من الهروب،

وثلاثمئة يوم من العار لم يعد بإمكاني الاستمرار، ربّما دفعت ثمن غلطتي. لم يخطر ببالي أيّ شِعر ولا وردت في خاطري أيّة اعتبارات فلسفيّة عن الوجود، ولا داهمني ندم صادق، فقط حقد أصمّ ونفور متزايد حيال كلّ ما هو بشري.

قبل الذهاب لرؤية بسّام، أذكر أنّني استحممت. كانت صبيحة ربيعيّة رائعة. أمضيت الليل في تجويفة في الصخر أسفل الجرف، قبالة رأس سبارتل، على مسافة بضعة كيلومترات من وسط طنجة، بعد أن التهمت علبة من التونا وقطعة خبز، ملفوحاً بدخان نارٍ أشعلتها من بقايا صناديق وجرائد، متدثّراً بمعطف صوفيّ طويل نهبته من أحد الأسواق ولازمني طيلة الشتاء. ثم غفوت يهدهدني ارتداد الأمواج. حين أفقت في الصباح، كان البحر المتوسّط هادئاً، عميق الهدوء والزرقة. أشرقت الشمس مداعبة بعذوبة بقع الرمل بين الصخور. بئس الأمر، سأتجلّد لكنّي كنت راغباً بقوّة في معانقة هذا الجمال وهذه الراحة التي يمنحها البحر. كانت المياه باردة بشكلٍ يقطع الأنفاس. سبحت سريعاً صوب الشمال لأدفئ أوصالي قليلاً، على مسافة مئة متر تقريباً، كان التيار قوياً وتعيَّن عليّ الصمود لموافاة الشاطئ من جديد. تهاويت على الرمل قبالة الشمس. ما من هبّة ريح، فقط اللمسة الدافئة لرمل الصوّان. غفوت من جديد منهكاً وشبه سعيد. استيقظت بعد ساعتين أو ثلاث على شمس نيسان الحارقة، وشعرت بالجوع فأكلت الخبز الذي بقي من العشيّة، وشربت ماءً كثيراً. طوَيت المعطف من جديد في حقيبتي وسوّيت ملابسي قليلاً. تمزّق قميصي عند الإبط ولطّخته بقع شحمٍ في الظهر، وحتّ بنطالي عند الحاشية، كما اختفت أزياح سترتي الرماديّة التي حصلت عليها من مركز إسلامي لإغاثة المحرومين.

وبرغم كلّ شيء، شعرت أنّني في حالٍ جيّدة. لا بأس، سيعيرني بسّام قميصاً نظيفاً وبنطالاً. لم أر له وجهاً منذ نهاية ديسمبر، منذ رحيلي إلى الدار البيضاء. ساعدني قدر استطاعته، أعطاني القليل من المال والطعام، حتّى أنّه زوّدني مرّة بأخبارٍ عن مريم: أرسلتها والدتها لتعيش عند شقيقتها في آخر أصقاع جبال الريف، في أشبه ما يكون بسجن. في المرّة الأخيرة التي تقابلنا فيها، في المكان نفسه دوماً قبالة المضيق، قبالة طريفا المنيعة، كان بسّام لا يزال يخطّط لمشاريعه الوهميّة في الذهاب إلى إسبانيا، وقال لي بألاّ أقلق. اذهبْ إلى الدار البيضاء، ولدى عودتك أكون قد تدبّرت وسيلة تسمح لنا بالعبور إلى الضفّة الأخرى. لم أكن أفهم حتّى تلك اللحظة ماذا بإمكاننا أن نفعل في إسبانيا دون أوراق ثبوتيّة ولا مال، اللهم إلاّ التسكّع وانتهاء الأمر بنا إلى الاعتقال والطرد خارج البلاد، لكنّه حلم جميل على أيّ حال.

مررت بمنزله نحو الظهيرة لعلمي أنّ والده سيكون في العمل. عودتي إلى شوارع الحيّ حرقت قلبي. مشيت بسرعةٍ فائقةٍ وتجنّبت بإصرارٍ حثيثٍ المرور أمام دكّان السمانة العائلي. وصلت إلى مبنى بسّام وصعدت مهرولاً وقرعت بابه وكأنّني مجنون، أو كأنّني ملاحق. كان هنا، عرفني في الحال ما جعلني أطمئنّ لجهة مظهري. أدخلني ثم أجال عليّ أنفه قائلاً لي إنّ رائحتي ليست بالنتانة التي تصوّرها بالنسبة لمتسكّع. أضحكني كلامه. قلت هذا جائز لكن بودّي فعلاً أن أستحمّ وأسكت جوعي. كنت أشعر أنّني وصلت أخيراً إلى مكانٍ ما. أعطاني ثياباً نظيفة ومكثت ربّما ساعة في الحمّام. لم أكن أعرف أنّ استعمال الماء بحريّة منّة إلهيّة. في هذه الأثناء، أعدَّ لي إفطاراً من بيضٍ وخبز وجبنة. راح يبتسم طيلة

الوقت ابتسامة ماكرة وكأنّه يخفي أمراً ما. بالكاد سألني ماذا فعلت خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، فقط هذا السؤال بغير إلحاح: ماذا، هل كانت إقامتك في الدار البيضاء جيّدة؟ بدا مضطرباً، لا يتوقّف عن النهوض والجلوس من جديد، وعلى شفتيه الابتسامة ذاتها. قلت له أخيراً: هيّا قل ما عندك. فاتّخذ وجهه سيماء من سرق بيضة. ماذا عليّ أن أقول؟ لماذا تكلّمني هكذا؟ حسناً، «أوكي»، ما أريد قوله هو أنني وجدت شيئاً ما لأجلك، مكاناً يمكنك البقاء فيه مطمئناً، حيث سيجري الاهتمام بك. ثم اتّخذ من جديد هيئة المتآمر المبتسم. وما هو هذا المكان، أهوَ مصحّ؟ تصوّرت أن خلف هذا كلّه مشروع سفرٍ يبدو مُحالاً، خرافة أخرى من خرافات بسام. لا يا صديقي، لا، ليس مصحّاً، ولا حتّى مستشفى، لا بل إنّه أفضل من هذا كلّه: مسجد.

سألته ما الذي بإمكاني فعله في مسجد.

ليس مسجداً كالمساجد الأخرى، أجابني بسّام. سَتَرى، روّاده أناس مختلفون.

وبالفعل، كان هذا صحيحاً، كانوا مختلفين. كانوا ملتحين ويرتدون ملابس قاتمة صارمة. وما عدا ذلك، حريّ القول إنّهم كانوا ودودين وأسخياء، هؤلاء الإسلاميّون. طلب منّي الشيخ نور الدين (كانوا يدعونه شيخاً لكنّه لا يبدو عليه أنّه تجاوز الأربعين) أن أرويَ له قصّتي بعد أن عرّف بسّام عنّي قائلاً: هذا هوَ الشابّ الذي حدّثتك عنه يا حضرة الشيخ، إنّه مؤمن حقيقي، لكنّه معوز. فأجابه الشيخ: الله الميسّر. لم يكن المسجد مسجداً حقاً بل كان طابقاً أرضياً في أحد المباني، فرشت أرضه بالسجاد وعلى بابه لوحة نحاسيّة كتِبَ عليها: «الجماعة الإسلاميّة لنشر الفكر القرآني». كان

بسّام يبدو فخوراً جداً باصطحابه الولد العاقّ إليهم. رويت كلّ شيء بالتفاصيل، أو ما شابه. وكان الشيخ نور الدين يستمع إليّ بانتباه وهو ينظر إليّ مباشرة في عينيّ دون أن تبدو عليه الدهشة، وكأنّه كان يعرف مسبقاً الحكاية كلّها. عندما أنهيت كلامي مكث لِوَهلة صامتاً دون أن يكفّ عن التحديق بي وسألني: هل أنت مؤمن؟ ووفّقت في الإجابة بنعم دون أن يبدو عليّ التردّد. ليست تلك خطيئتك يا صديقي الشابّ. وقعت في الفخّ الذي نصبته لك تلك الفتاة. والدك لم يكن عادلاً. أظهرت ضعفاً ولا شكّ لكن هذه حال الشباب. والدك هو المذنب، كان يجدر به أن يراقب بحذرٍ أشدّ نساء عائلته، ويفرض عليهنّ الاحتشام. لو أنّ قريبتك كانت محتشمة لما حصل ما حصل. قاطعه بسّام: يا حضرة الشيخ والده يجاهر في الحيّ كلّه بأنّه لم يعد لديه ابن وأنّه حرمه من الميراث.

ابتسم نور الدين بحزن. قال مثل هذه الأمور قد يصطلح مع الوقت. المهمّ هوَ أنت الآن. بسّام يقول لي إنّك تقيّ وجديّ ومجتهد وتهوى الكتب. هل هذا صحيح؟ قلت تماماً، وأضفت متلجلجاً : أ. . . أقصد بالنسبة للكتب.

وفي غضون خمس دقائق وُظّفتُ كأمين مكتبة عند جماعة نشر الفكر القرآني. قدّموا لي غرفة صغيرة في خلفيّة المسجد، وخصّصوا لي راتباً. لم يكن راتباً كبيراً ولكنّه مصروف للجيب. أصابتني دهشة عميقة. وشكرت الشيخ نور الدين بإجلال مرتاباً مع ذلك بأن يفسد أمر غير متوقّع الصفقة عليّ برمّتها. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث وبدا الأمر أشبه بمعجزة حقيقيّة. أعطوني بضع دراهم سلفاً لأشتري بها ملابس وحذاء. رافقني بسّام. بدا فخوراً ومبتسماً طيلة الوقت. قال لي: قلت لك، سبق وقلت لك إنّي

وجدت حلاً. أرأيت، الذهاب إلى المسجد أمر مفيد. كان قد التقى جماعة الفكر هذه أثناء صلاة الجمعة التي يذهب إليها بمعيّة والده. ولفرط ما رآهم أصبحوا متقاربين وهكذا حصل ما حصل. إنهم أناس لائقون، قال بسّام، عادوا لتوّهم من السعودية ولديهم مال وفير.

جلنا وسط المدينة كأميرين واشتريت بمعيّة بسّام ثلاثة قمصان وبنطالين وسراويل داخليّة وحذاء أسود ظريفاً ضيّقاً من الأمام ومدبّباً بعض الشيء. كذلك ابتعت مشطاً وغسولاً للشعر ودهاناً للأحذية. عدْتُ مفلساً من جديد، أو شبه مفلس، ولكنّي سعيد، وكان بسّام أيضاً سعيداً لأجلي. سُرّ لأنني تخلّصت من المأزق، فهذا بهجة للنظر، وهذا يدفئ قلبي على الأقلّ كحذائي الملمّع. ضممْت بسّام إلى صدري مداعباً خصلات شعره الأجعد. قلت الآن سأذهب لتغيير ملابسي ومن ثم نقوم بجولة في المدينة. سنغازل الفتيات ونعثر على سائحتين جميلتين ونجعلهما تكتشفان جنّة الله. وربّما دعتانا بعدئذٍ لاحتساء كوبي بيرة ودفعتا ثمنهما على سبيل الشكر. همهم بسّام بكلماتٍ لم أفهمها، ثم قال، نعم نعم، إنّها فكرة حسنة، لمَ لا. كان يعلم جيّداً أنّه إذا لم تحصل معجزة ثانية في النهار نفسه فلن نعثر أبداً على تنورتين قصيرتين ترحبّان بنا، لكنّه طاوعني في مسعاي. لدى عودتي إلى مركز نشر الفكر القرآني، مزدهياً بملابسي الجديدة، ألفيتُه يغصّ بالمصلّين وقد حلّ موعد صلاة العصر، لم أستطع التملّص منها. أدّيت ركعاتٍ أربعاً خلف الشيخ نور الدين، وبدا لي الوقت طويلاً.

هذا بالضبط لأنّني لم أكن معتاداً. وقد تسنّى لي الوقت كلّه لأتعوّد خلال السنتين التاليتين. كان عملي مع «جماعة نشر الفكر القرآني» ولا أسهل، الأمر الذي أفسح لي الكثير من الوقت للدراسة والصلاة. أمّا عملي كأمين مكتبة فكان يرتكز على استلام صناديق الكتب الكرتونيّة، وفتحها، ونزع الشرائط البلاستيكية عنها ورصفها على الرفوف. وكان يتعيَّن عليّ، مرّة كل أسبوع، نهار الجمعة، وضع طاولة عند باب الخروج من المسجد لبيعها. الجدير بالذكر أنّ كلمة «بيع» مبالغ فيها. فأغلبية الكتب (وهي متون غير مجلّدة تشبه الكتب المدرسيّة الرخيصة) كانت تساوي ٤,٩٠ درهماً. وكان هذا منهكاً لأنه يجب أن تتوفّر صناديق من القطع النقديّة لاقتطاع المبلغ وردّ المال، على قدر الكتب تقريباً. بهذا المبلغ، يمكن وهبها، قلت للشيخ. فأجابني لا، لا، مستحيل. على الناس أن يكونوا واعين بأنّ لهذه الأوراق قيمة وإلا لرَموا الكتب أو استخدموها لإشعال النار وشواء اللحم. أجبته حسناً، بالإمكان إذاً بيعها بخمسة دراهم فهذا يجعل عمليّة البيع أسهل لجهة ردّ النقود. فأجابني الشيخ إنّ هذا السعر مرتفع جدّاً، ويجب أن يكون سعر الكتب مناسباً للجميع.

لاقت هذه الكتب نجاحاً باهراً. أكثر كتبنا رواجاً «الجنس في الإسلام» بعت منه المئات، وهذا لأنّ الجميع يعتقد بالطبع أنّ الكتاب يتحدّث عن الجنس ويُسدي النصائح بالنسبة للوضعيّات، أو حججاً دينيّة قيّمة تدفع بالنساء للقبول ببعض الممارسات، ولكن لا شيء من ذلك، كان الفعل الجنسيّ يدعى فيها «الجماع» أو «المجون » أو «الوصال»، وكان المجموع منتخبات منحولة عن أقوال للفقهاء الكبار من القرون الوسطى غير مثيرةٍ إطلاقاً - ما يمكن تسميته برأيي سرقة حتى لو كان الكتاب يساوي خمسة دراهم. كان هؤلاء الذين يشترون الكتاب رجالاً بنسبة ٩٩٪. أما مبيعاتنا النسائيّة الفضلى فكانت «رائدات الإسلام»، وهو عبارة عن رسالة هجاءٍ بسيطة ومؤثّرة عن العالم المعاصر وظلم الأزمنة، وكيف أنّ عودة النساء وحدها إلى الدين بإمكانها إنقاذ العالم، اقتداءً بأمّهات المؤمنين، وخصوصاً خديجة وفاطمة وزينب.

كان القسم الآخر من الفهرس أعلى سعراً، ٩,٩٠ درهماً للكتاب. وكانت تلك الكتب مجلّدة وتضمّ أجزاء عدّة عموماً، مرزّحة كجثّة. حملت المجموعة عنوان «تراث الإسلام»، متضمّنة أعمالاً أعيد طبعها لمؤلفين كلاسيكيّين: سيرة النبي محمد، وتفاسير قرآنيّة، وكتب عن مصنّفات في البلاغة، والفقه، والنّحو. وبما أنّ هذه الكتب الهائلة الحجم كانت ذات حافاتٍ جميلة من التجليد المزخرف ومنسوخة بخطوطٍ ملوّنة، فإنّها كانت تصلح خصوصاً لتزيين الصالونات وقاعات الطعام في الحارة. يجدر القول إنّ اللغة العربيّة القديمة التي ترقى إلى ألف عام ليس سهلاً قراءتها. كنا نبيع أيضاً أقراصاً مدمجة لتسجيلاتٍ قرآنيّة، وأيضاً أسطوانات رقميّة تجنّبك حمل موسوعة قرآنيّة تضمّ خمسين مجلّداً مرفقة بالتفسيرات

المختلفة. وهذا ما يحلم به أمين المكتبة. وإلا فماذا تعتقدون؟

كان مركز «جماعة الفكر» مفتوحاً طيلة النهار، ومعه مكتبتي، ولكن الزبائن كانوا قلّة. كان بعضهم يمرّ أحياناً ليشتري أحد العناوين التي لا يحقّ لي وضعها على الطاولات. سألت الشيخ نور الدين عمّا إذا كانت الرقابة تمنعها. قال لي: قطعاً لا، إنّها فقط نصوص تتطلّب معرفة أوسع لدرء تحريف تفسيرها. ومنها «الإسلام في مواجهة المؤامرة الصهيونيّة»، ورسائل هجائيّة لسيّد قطب.

وإحدى مهمّاتي (الأمتع في الحقيقة) كانت تقوم على الاهتمام بصفحة الجمعيّة على الإنترنت والفايسبوك، والإشارة إلى أنشطتها (التي كانت قليلةً في أيّة حال)، ما يتيح لي استغلال الإنترنت طيلة النهار. كنت أقوم بعملي بكلّ جديّة. كان الشيخ نور الدين لطيفاً، مثقفاً، ودوداً. أخبرني أنّه درَسَ الشريعة في السعوديّة ومارسها في باكستان. وأوصاني ببعض القراءات. حين أملّ من المشاهد الخلاعيّة على الإنترنت (قليل من الخطيئة لا يسيء لأحد)، كنت أمضي ساعات في القراءة، ممدّداً بارتياحٍ على السجاجيد. وشيئاً فشيئاً اعتدت على العربيّة الفصحى، وهي لغة رائعة، وجبّارة، وآسِرة، وذات غنى فذّ. كنت أمضي ساعات أكتشف فيها مواضع جمال القرآن من خلال المفسّرين الكبار. كان أبسط تعقيد للنص القرآني يذهلني. إنّه أوقيانوس، أوقيانوس من نور. وكان يحلو لي أن أتخيّل النبيّ في مغارته متدثّراً في معطفه، أو محاطاً بالصحابة، وهم في طريقهم إلى خوض المعركة. إن التفكير في أنّني أستعيد حركاتهم وأردّد العبارات التي تلوها بأنفسهم يعينني على تحمّل الصلاة التي كانت في جميع الأحوال عقاباً لا ينتهي.

شعرت بأنّني أرمّم نفسي وأتخلّص من الأرجاس التي علقت

بي خلال أشهر تسكّعي. كان بإمكاني أيضاً أن أتصوّر اللقاء بوالدي أو بوالدتي دونما خجل. وأكثر ما أهجس بهذا اللقاء يوم الجمعة خلف طاولتي؛ أقول في نفسي سيأتي يوم وسألتقي بهما، هذا محتوم، على الرّغم من علمي أنّهما يمتنعان حتى عن ذكر اسمي علناً. كنت أشعر بطريقة مبهمة أنّ بسّام يُخفي عنّي أمراً ما وأنّه يتجنّب الحديث عن عائلتي، أسأله فيجيب: لا تقلق، لا تقلق، سيتخطّيان الأمر، ويغيّر الموضوع. كنت مشتاقاً لوالدتي.

في المساء، كنت أخرج للقيام بجولةٍ مع بسّام. رحنا نُمضي وقتاً أقصر في تأمّل الشاطئ الإسباني، ووقتاً أطول بكثير في مراقبة مؤخّرات الفتيات في الشارع. كانت طنجة تتميّز بأنّها واسعة الأرجاء بما يكفي لكي نشعر بأنّنا أحرار خارج حاراتنا. حتّى أنّنا في بعض الأحيان كنّا نقدّم لأنفسنا كأسَيْ بيرة في حانةٍ مخفيّة عن أعين المتطفّلين. قد أتحدّث لساعات طِوال إلى بسّام لإقناعه بالذهاب إليها ويبقى متردّداً حتى آخر لحظة، لكنّ مجرّد التفكير بأنّه سيلتقي بفتياتٍ أجنبيّات كان كفيلاً بإفحامه. وحتّى في الحانة، يتردّد لخمس دقائق محتاراً بين الكوكاكولا والبيرة، لكنّ خياره يذهب دوماً إلى الكحول، ومن ثمّ يلوم نفسه طويلاً ويشرع في التهام كيلوغرام من أقراص البونبون المطيّبة بالنعنع لإخفاء الرائحة. ليس بعيداً عن الحانة مكتبة فرنسيّة أعيد تجديدها، وكنت أحبّ كثيراً أن أطيل المكوث فيها دون أن أشتري أيّ شيء لأنّ الكتب كانت غالية الثمن بالنسبة لي. ولكن على الأقلّ، كان بإمكاني استراق النظر إلى أمينة المكتبة فنحن على أيّة حال زميلَين في المهنة. لم أجرؤ قطّ على التحدّث إليها. مهما يكن من أمر، كانت تضع خاتم زواج وتكبرني سنّاً.

بعدئذٍ كنت دوماً أرافق بسام إلى منزله. ثم أعود إلى غرفتي الصغيرة في مركز الجماعة؛ آخذ قصّة بوليسيّة، وأقرأ ساعة أو ساعتين قبل النوم. كان في الدكان الخلفي لتاجر الكتب في حيّنا كميّة لا تنضب من هذه القصص، وكنت أجهل من أين يأتي بها: قصص من سلسلة *Fleuve Noir* (وهي الأرخص ثمناً) وسلسلة *Masque*، و *Série Noire* (المفضّلة لديّ)، ومجموعات أخرى غامضة تعود للستّينات والسبعينات. كانت عناوين هذه الروايات على الرفوف المعدنيّة تؤلّف قصيدة متفرّعة مبهمة وجنونيّة: «صالون الجريمة»، «كرنفال التائهين»، «لآلئ لأجل الفاحشات»، «الثلاثاء الرمادي»، «رقاد الرصاص العميق». لم أكن أعرف ماذا أختار منها، وإن كنت أفضّل تلك التي تدور أحداثها في الولايات المتّحدة بدلاً من فرنسا - فالويسكي لديهم بدا حقيقيّاً أكثر، وسيّاراتهم بدَت أكبر ومدنهم أكثر توحّشاً. لا يفترض بتاجر الكتب هذا أن يجمع ثروة من عمله. بالإضافة إلى مخزونه من القصص البوليسيّة التي ربّما كنت الوحيد الذي أشتريها، كان يبيع كتباً مدرسيّة قديمة، وجرائد من أيّام زمان، ومجلّات إسبانيّة منجردة وبعض الروايات المصريّة العاطفيّة الرخيصة. كان صاحبَ نكتة يمضي وقته في شرب الخمر سرّاً خلف متجره. كان غير متقيّد بأيّ شريعة دينيّة وذا ميول ناصريّة، ووجهاً بارزاً في الحي. أخبرني أنّ جميع التلال المجاورة كانت منذ عشرين سنة فارغة ما خلا بيتين أو ثلاثة مبعثرة هنا وهنالك، وأنّ الطريق من الحيّ إلى المطار كانت مليئة بالحقول. قال لي إنّه طنجاوي أصليّ.

بعد القراءة، أنام أربع أو خمس ساعات حتى صلاة الفجر. كان الشيخ نور الدين يأتي، وبرفقته معظم أفراد الجماعة (ما عدا بسّام

الذي كان يدّعي أنّه يصلّي في المنزل، وهذا أمر يصعب عليّ تصديقه). عند رحيلهم، أعود إلى النوم حتى الساعة الثامنة أو التاسعة، ثم أتناول فطوري، وعند تمام الساعة التاسعة والنصف، أفتح المكتبة. غالباً ما كان الشيخ يعود حوالي الظهيرة فنتجادل لِبرهة، ثم يطلب منّي أن أضيف هذا الشيء أو ذاك إلى صفحتنا على الإنترنت، ويتحقّق من كميّة الكتب ثم يوصي بنفسه عموماً على الكتب التي في طريقها إلى النفاد (صندوق لكتب **الجنس في الإسلام**، وآخر لـ **رائدات في الإسلام**، والأعمال الكاملة لابن تيميّة في عشرين مجلّداً، ثم ينصرف إلى أعماله. إجمالاً كان وصول الكتب من السعوديّة إلينا يستغرق شهراً، لذلك ينبغي الاحتياط للأمر. ثم أُترَكُ في سلام طيلة ما بعد الظهر. وأمكث هادئاً منصرفاً إلى الدراسة، كما كان يقول الشيخ نور الدين. إنّها الجنّة. كان لديّ سقف يؤويني، ولباس يسترني، وكتاب يثقّفني. بعد صلاة المغرب، كان بسّام يمرّ بي لاصطحابي فنقوم بجولة، وهكذا دواليك، كالعادة.

لم تكن لديّ إلاّ خشية واحدة أو بالأحرى أمنية وهي أن ألتقي بأفراد عائلتي. كانوا يعرفون مكاني، وكنت أعرف مكانهم. لمحت أمي مرّة على الرصيف المقابل - اختبأت مُولياً ظهري وقلبي يخفق بسرعة. شعرْتُ بالخجل، وهم أيضاً... حتى لو كنت أجهل حتى اليوم لأي حدّ، ولأيّ سبب. كان بِودّي أن أرى أختي الصغيرة. لا بدّ أنّها كبرت وتغيّرت كثيراً. حاولت ألاّ أفكّر في هذه الأمور. وما زلت أحاول... أتساءل ماذا يعرفون عنّي اليوم. ثمّة دوماً أقاويل وشائعات تصل إلى البلد وعليهم بالتأكيد أن يصمّوا آذانهم عن سماعها.

غالباً ما كنت أفكّر في مريم - وأقول في نفسي ليتني استطعت

أن أجد الشجاعة لأركب الباص إلى القرية التي تقيم فيها والذهاب لرؤيتها سرّاً. كنت أكتب لها وينتهي دوماً مآل هذه الرسائل في سلّة النفايات، وهذا بسبب جبني وتخاذلي. كانت مريم منذ تلك اللحظة قد دخلت مجال الأحلام، جسداً يضجّ بالذكرى.

مرّت السنة مسرعة. وعند بدء التظاهرات في تونس، كانت مرّت سنة وأكثر على وجودي في مركز الجماعة. عكّرت هذه الأحداث صفوَ طمأنينتي. عليّ الاعتراف بذلك. بدا الشيخ نور الدين وأفراد الجماعة كلّهم وكأنّهم جُنّوا: يمضون وقتهم أمام التلفزيون، ويصلّون النهار بِطوله لأجل الإخوة التونسيّين. ثم بدأوا يجمعون التبرّعات للإخوة المصريّين، واتّسعت اللائحة لتشمل الإخوة الليبيّين واليمنيّين، وعندئذٍ أخذوا ينشطون «لدعم إخوتنا العرب المضطهدين».

وعند بدء المعارضة في المغرب في ٢٠ شباط، لم يعد يقرّ لهم قرار. أخذوا يتناوبون في الاعتصامات والتّظاهرات، وأصبحت مكتبتي مقرّ القيادة العامة للحملة. رأت الجماعة في الانتفاضات العربيّة المدّ الأخضر الذي طال انتظاره. في الواقع، كان الحلم بإسلام يعم البلدان العربيّة من الخليج إلى المحيط يؤرّق لياليهم. ووفق ما شرح لي الشيخ نور الدين فإنّ الهدف المنشود كان الحصول قدر الإمكان على انتخابات حرّة وديمقراطيّة لتسلّم الحكم، ومن ثمّ، من الداخل، من خلال القوّة الناتجة عن تآزر السلطة التشريعيّة والشارع، يجري العمل على أسلمة الدساتير والشرائع. قلّما كانت مشاريعهم السياسيّة تعنيني، لكنّ مجاهدتهم الدائمة الصاخبة قلبت رتابة أيّامي رأساً على عقب. بدأوا يمنعونني في أغلب الأحيان من استخدام الإنترنت (كانوا بحاجة إليه طيلة الوقت) ويعكّرون عليّ

صفو القراءة، فهنالك دوماً تحرّك أو تظاهرة يشاركون فيها، أو برنامج يشاهدونه على التلفزيون. وعلى هذه الحالة بدأت أطيل مكوثي في وسط المدينة؛ أذهب إلى ساحة فرنسا وأمضي الوقت طيلة ما بعد الظهر في قراءة رواية بوليسيّة محتسياً كوباً من الشاي. أخذ الشيخ يلومني قليلاً على تغيّبي قائلاً لي بإمكانك المشاركة بحيويّة أكبر في معركتنا، ثم يحدجني بنظراتٍ مستاءة.

كان أعضاء الجماعة يُمْنَون بضربات، واستطاعوا الصمود إزاءها والخروج سالمين عندما تلقّت الشرطة الأوامر بتفريق الصفوف الخلفيّة للمظاهرات دون غازٍ مسيّل للدموع أو رصاص مطّاطي، بل على الطريقة القديمة، باليد أو بالهراوة. كنت ترى الكدمات الزرقاء تنفر فوق لحاهم. وَجَب على الشباب أن يكونوا في مقدّمة التحرّك، وكان بسّام أوّل من تلقى بعض الضربات قرب ساحة الأمم، في وقت متأخّر من إحدى الأمسيات، وعاد بطلاً صدره مذيّل بالكدمات، وأنفه مضمّد، والهالات البنفسجيّة تطوّق عينيه، وهو لا يزال يهتف: «في سبيل الله، والأمّة، والحرية». كانت مصر المثال بالنسبة لهم، وكانوا يردّدون طيلة الوقت: القاهرة، ساحة التحرير. يقول لي الشيخ نور الدين: مصر مجتمع متقدّم، والإخوان سوف ينتصرون، ثم يبكي لشدّة انفعاله. أذكر، عندما سمعنا خبيراً فرنسيّاً في شؤون العالم العربي يقول على التلفزيون إنّه لا إخوان مسلمون في ساحة التحرير، كيف اغتاظ نور الدين وجنّ جنونه قائلاً هذا كذب، قاتل الله هؤلاء الكفرة. يا لنذالتهم هؤلاء الفرنسيّون، لا يحترمون شيئاً ولا حتى الحقيقة. هؤلاء الفجّار مستعدون لفعل كلّ شيء شريطة الاحتفاظ بالسلطة. ثمّ تماسك من جديد وهو يقول إنّه ليس سيئاً بعد كلّ حساب البقاء

في الظلّ، فهذا يعطي شرعيّة أكبر للمعارضة. ومن ثمّ فإن الأخبار الآتية من مصر تبشّر بالخير: كان الإخوان واثقين بأنهم سيخرجون منتصرين من الانتخابات الحرّة لدى إجرائها، وسيؤلّفون حكومة، وهي الحكومة الأولى منذ الخدعة الجزائريّة قبل عشرين سنة.

سادت الفوضى في طنجة لمدّة أسبوع على الأقلّ، لكنّ الشيخ نور الدين كان يرى أنّ الأمور لا تأخذ المنحى الذي اتّخذته في تونس أو في مصر، وأنّ القصر الملكي كان أكثر مكراً أو شرعيّة (وبعد كلّ حساب أليس الملك أمير المؤمنين؟) وأنّه يجب التحالف مع حزبٍ قوي في حال حصول الإصلاح الدستوري.

بعد عدّة أسابيع، أصدر الملك عفواً شاملاً عن مجموعة كاملة من السجناء السياسيّين من بينهم أعضاء من الجماعة كانوا قد تعفّنوا في سجون النظام مذ اعتقلوا إثر المداهمات العنيفة ردّاً على الاعتداءات التي حصلت في الدار البيضاء قبل سنوات. بدا الشيخ مغتبطاً، واحتفى بعودة هؤلاء الرفاق وكأنّهم يوسف نفسه عائداً من مصر للقاء إخوته. أصبح مركز نشر الفكر القرآني خليّة تعجّ بالملتحين.

كنت متحرّقاً لأن تنتهي كلّ هذه المعمعة فأتمكّن من استعادة رتابة قراءاتي وطمأنينتي. كانت الجماعة أشبه بقطيع من الحيوانات المسجونة في قفص؛ يدورون في أماكنهم منتظرين هبوط المساء ولحظة التحرّك. أرادوا الاستفادة من الفوضى والتظاهرات وانهماك الشرطة للشروع في «تطهير الحارة» على حدّ قولهم. وكان بسّام مستعجلاً للانتقام لأنفه المهشّم أثناء التظاهرة من أوّل شخص يصادفه، وتقدُّم طليعة المشاغبين. كانوا يخرجون زمراً من عشرة أشخاص، متسلّحين بالهراوات ومقابض المعاول ورؤوسهم مفعمة

بالخطبة الجهاديّة الفصيحة التي ألقاها الشيخ نور الدين متطرّقاً فيها إلى غزوات النبيّ، ومعركة بدر، وقبيلة بني قينقاع اليهوديّة، وحمزة البطل الصنديد، ومجد الشهداء في الجنّة، والجمال، جمال الشهادة العظيم في خضمّ المعركة. وبعد تمرين التحمية النظريّ هذا، كانوا ينطلقون مهرولين ليلاً وعلى رأسهم بسّام مزوّداً بهراوته، وثورة أعصابه. لم أعرف شيئاً عن نتائج هذه المناوشات الأولى، إلاّ أنّهم عادوا مسرورين، مبهوري الأنفاس، دون جرحى ولا شهداء. كان الشيخ نور الدين يعتقد، ولأسباب تتعلّق بالسلامة، أنّه من المهمّ عدم مشاركته هو نفسه في هذا الجهاد المقدّس، علماً أنّه كان يرمقني بنظرات مستاءة عندما أقول له إنّني أفضّل مرافقته إلى مركز «نشر الفكر القرآني». بعد ليلتين من المعارك دون وقوع ضحايا، رغب الشيخ في أن يقود بنفسه الزُّمَرَ إلى النصر. وفيما كنت أستعدّ للبقاء وحدي مطمئناً أخيراً أمام الحاسوب، حدجني الشيخ نور الدين بنظرة واحدة كانت كافية لإقناعي بأنّه يستحسن بي الانضمام إليهم. أعطوني هراوة فأخفيتها، أسوَةً بالجميع، تحت جلبابي.

كان بإمكان الحملة أن تكون مسليّة لا سيّما وأنّ منظر عصابتنا بالقلنسوات فوق الرؤوس واللحى والمعاطف الطويلة كان يليق بفيلم كوميدي مصري.

لم يُحطني أحد علماً بأهداف الحملة. نوّهَت الخطبة بالجهاد ضد الكفر والخطيئة والفجور، لكن لا شيء محدّداً. كان الليل بارداً رطِباً. كنّا ستة ونسير في صفٍّ منتظم. بدأت السماء تمطر قليلاً ممّا أفقد الحملة سحرها. لم يكن النضال ضد الكحول والشهوات أمراً ممتعاً.

عندما لاحظْتُ أنّنا ننحرف جهة اليسار على مسافة مئتي متر من

مركز «الفكر القرآني»، بدأ يساورني شيء من القلق. ثمّة هدف ممكن في نهاية الجادة ورجوت ألا يكون بغيتنا. لم يتحقّق رجائي. ليس بإمكان المقصد ألا يكون هناك. بدا أنّ الجميع يدركون وجهة ذهابهم ما عداي. تقدّم بسّام طليعة الرّتل دون تردّد. وصلنا أمام دكان الكُتُبيّ. كان قد أدخل بسطته بسبب المطر، لكنّ النور ينساب من الباب برغم الساعة المتأخّرة. تصوّرته منصرفاً إلى تجرّع مقدار قنينة أو اثنتين من النبيذ الرديء وهو يتصفّح مجلاتٍ إسبانيّة أو فرنسيّة تحفل بصور الفتيات العاريات. وبالفعل، كان العجوز منتحياً زاوية في متجره ويحوزته قنينة من النبيذ الأحمر. أشاح برأسه عن مجلة البلاي بوي، وهو غاضب. تعرّف إليّ، ابتسم لي بخجلٍ وإرباك. عاجله الشيخ نور الدين بنظرة احتقار، ثم ألقى خطبة وجيزة بالفصحى، أنت عار حيّنا، حيّنا محترم، أطِعِ الله عزّ وجلّ واحترمْ حيَّنا يا كافر، نحن عقاب الكفرة، وهلاك المنافقين، غادرْ حيّنا فوراً، أطِعِ الله عزّ وجلّ واحترم نساءنا وأطفالنا. أخذ صاحب المكتبة يدير عينيه مصعوقاً، ويزوغ بنظره بسرعةٍ فائقة يميناً ويساراً، متنقلاً من بسّام إليّ ليعود إلى الشيخ الذي كان يصبّ عليه لعناته. كان لا يزال ممسكاً كأسه في يده وهوَ لا يصدّق ما تراه عيناه متسائلاً ما إذا كنت أمزح معه مزحة ثقيلة أو شيئاً من هذا القبيل. ثمّ هتف الشيخ: لينزل غضب الله عليك! والتفت ناحيتي، فتح بسّام معطفه ليخرج عصاه ناظراً ناحيتي هو أيضاً. كان ثلاثتهم يحدّقون إليّ، فقال الكُتُبيّ بصوتٍ خافت: ما هذه المزحة؟ بدا على بسّام أنّه يتوسّل إليّ، هيّا، خسئت يا حيوان، ماذا تنتظر، هيّا. وراح الشيخ يروزني بنظراته. أبعدت طرفَي معطفي وانتزعت عصاي بِدَوري. ذُعِرَ الكُتُبيّ، أصيب بالدّهشَة والذعر في آن. ثم نهض

دفعةً واحدة عن كرسيّه والتفّ حول المكتب من جهتي بسرعة كبيرة وكأنّه يريد الفرار، لم أشأ أن أؤذيه، حاول أن يمسك عَصايَ وأخذ يشتمنا، يا زعران، يا كلاب، يا شواذ، سأفضح أمّهاتكم، عندئذٍ انهال بسّام على كتفه بضربةٍ قويّة من هراوته رجّعت صدى مخنوقاً، فزعق ألماً وتهاوى وهو يتشبّث بمعطفي وبساقيّ، ثم تلاها بضربات عنيفة متعاقبة على أضلعه فصاح صاحب المكتبة من جديد وسبَّ سباباً فظيعاً، فعاجله بسّام بضربة جديدة على فخذه مستهدفاً العظم فبدأ الرجل ينتحب فيما كان بسّام يبتسم شاهراً عصاه. تساءلت لحظة ما إذا كان سيهشّم وجهه أيضاً. انحنى الشيخ نور الدين على الكُتُبي المنتحب أرضاً وقال له آمل أن تكون قد فهمت، ثمّ وجّه إليه رفسة جعلته يصرخ كالمسعور. انهمرَت الدموع على وجه الرجل المسكين، لم يعد بإمكاني النظر إليه، أعدت هراوتي إلى موضعها وخرجت. تبعني بسّام ثم الشيخ. سمعته يبصق على فريسته قبل أن يغادر. عدت مهرولاً، وتبعني الآخرون. عندما وصلت إلى مركز «جماعة نشر الفكر القرآني»، رميت الهراوة على السجّاد وانزويت في غرفتي. كنت أرتجف حقداً، وأرغب في أن أقطّع الشيخ نور الدين وبسّام إرَباً. ثم أقطّع نفسي إرباً. كان بودّي ذلك. استويت على سريري متسائلاً ما العمل. لا رغبة لي في البقاء هنا. كنت ممتلئاً بِطاقةٍ خارقة تفوق البشر، وبغضبٍ جبروتُه غير مسبوق. أخذت كلّ المال الذي كان في حوزتي وخرجت. كانت الجماعة تؤدّي صلاتها من جديد. اجتزت القاعة الكبيرة دون أيّ تحفّظ. رفع بسّام رأسه أثناء سجدته ليومئ لي بإشارة. وخرجت وأنا أصْفِقُ الباب خلفي.

كان في حوزتي مئتا درهم، ما يكفي لأدفع ثمن شراب. تردّدت في إعطائها لصاحب المكتبة على سبيل التعويض له، لكنّي كنت أشدّ خجلاً من أن أعود إلى دكّانه. ربّما كان على الأرجح في المستشفى. رجوت ألا يكون بسام قد أصابه بكسورٍ خطيرة. كان حريّاً بي أن أوجّه العصا إلى الشيخ نور الدين. لا ضرر في تلقّيه بضع ضربات، لا بل إنّها كانت ستفيده. أرعبتني نظرة بسّام، كانت تضعني قيد التجربة. والآن ماذا عليّ أن أفعل: هل أترك الجماعة، هل أعود إلى الشارع، أم أبحث عن عمل؟ غداً نرى ذلك. أمّا الآن، فلننسَ البؤس.

اجتزت طنجة حتى حانة جادة باستور الصغيرة. دخلت. ألقيت التحيّة وكأنّني زبون معتاد. جلست إلى إحدى الطاولات وطلبت أوّل قنينة بيرة ثم الثانية فتحسّنت حالتي قليلاً. لماذا تعاملني الحياة على هذا النّحو. لعلّها لعنة أصابتني لأنّني جلبت العار لأبي، من يدري. أو ربّما كان الله هو نفسه حاقداً عليّ ليدفعني في كلّ مرّة باتّجاه يأسٍ أشدّ، من يدري. على أيّة حال، أمتعني احتساء البيرة. ربّما كان عليّ اللجوء إلى الصلاة بدلاً من البيرة، ولكن بئس الأمر.

في الحانة، كان هنالك بالضبط أربعة مغاربة في زيّ رسميّ

يتجادلون ويشربون الويسكي. لا سائحات وحيدات. بدأت أشعر بأنّني ثمل قليلاً. شعرت برغبة في البكاء. عادت مريم إلى خاطري، لا شكّ أنّها تنام الآن هناك في الريف. أو ربّما تحلم بي، من يدري.

في التلفزيون، تتوالى مشاهد المظاهرات في مصر وتونس واليمن، والثورة هناك في ليبيا. لم تحسم المعركة بعد، هكذا فكّرت. الربيع العربي، تفاهة لا تعنيني. سينتهي بنا الأمر تحت ضربات الهراوات، عالقين بين شقّي الرحى، بين الله والسندان.

لو أنّي جلبت كتاباً معي لروّحت عن نفسي قليلاً.

عندما دخل الرجل إلى الحانة، كنت لا أزال منشغلاً بمشاهدة التلفزيون، بالكاد رأيته. هو الذي اتّجه ناحيتي. اقترب مني واتكأ إلى طاولتي. وحدّق إليّ بعينيه الصغيرتين وابتسامة ماكرة ترتسم على فمه. وشارباه الأسمران عراهما بعض الشيب. أدَرْت رأسي في الحال.

قال: «انظروا مَنْ هنا! إنّه غلامي الصغير».

التفتُّ إلى صاحب الحانة مصدوماً وكأنّني أريد أن أقول إنّه لا يمكن إهانة الزبائن بهذه الطريقة. شعرت بلهيب نارٍ في صدري وعلى خديّ. نظر إلينا النادل مندهشاً.

- ألا تذكرني؟

من المستحيل نسيان هذا الوجه، نسيان ظلّ موقف السيارات ورائحة البول المنبعثة منه.

بدأت ركبتاي تصطكان. رغبت في أن يختفي من أمام وجهي كما لو بسحرِ ساحرٍ وتختفي معه الفضيحة والذكرى.

ليت الهراوة بحوزتي لأنهال عليه ضرباً وأهشّم وجهه.

انطلق بقهقهةٍ ساخرة. كان ثملاً. لطّخني لهاثه النتن المنبعث من عمق سراديب المواقف، واجتاحتني موجة من العفن والذكريات. كدت أقع على ظهري ودرت حول نفسي مدوّماً مثل مقعدي المتحرّك. هربت بجبنٍ، بصمت. خرجت مسرعاً من الحانة دون أن ألتفت ورائي، دون أن أستطيع الامتناع عن سماع العبارات التي قالها الرجل من مثل: لا تغادر بهذه السرعة يا مدَلّل، مصحوبة بكلماتٍ داعرة جعلتني أرزح تحت الغضب الواهن الذي أثارته فيّ، كمن يتلقّى الضربات وهو عاجز عن ردّها.

في الخارج كانت ريح جليديّة آتية من المحيط تفتك بالجادة تباعاً. المدينة مقفرة، حتّى أمام سور المعجازين لم يكن هناك إلا القليل من الناس، بعض السيّاح العائدين إلى الفنادق الضخمة. اجتزت الشارع صعوداً باتّجاه السوق الكبير، ودرت حول الساحة بطريقةٍ آليّة. ومن دون تفكير اشتريت علبة سجائر. لا يزال الرجلان العجوزان اللذان رأيتهما من قبل يتدفّآن حول المنقل. ساومتهما على كسرة حشيشٍ بالنقود التي تبقّت معي، ورحت أدخّن اللفافة سرّاً على مقعدٍ منعزل. كلّ شيء أصبح ساكناً. هدّأ المخدّر من رَوعي. واكتست المدينة من جديد بوشاحٍ هادئ أسوَد، صرت فجأةً بعيداً، خلف جدارٍ بين جسدي والعالم. فكّرت في أمين المكتبة من جديد، وفي حارس موقف السيارات، وفي الشيخ نور الدين، وبسّام، وكأنّهم كانوا غرباء تماماً، كما لو أنّ كلّ ذلك لم يعد له أيّ أهميّة. كانت طنجة طريقاً مسدوداً قاتماً، رواقاً يسدّه البحر، وكان مضيق جبل طارق شقّاً، هاوية تقطع الطريق على أحلامنا. كان الشمال سراباً. رأيتني ضائعاً مرّة أخرى، واليابسة الوحيدة تحت قدميّ وخلفي، كانت من جهة إفريقيا الهائلة حتى

رأس أقولاس، ومن جهة الشرق كلّ هذه البلدان المشتعلة، الجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسوريا. لففت سيجارة حشيش أخرى ممتلئة وأنا أفكّر أنّ هذا الحشيش آتٍ من جبال الريف، وأنّ مريم رأت شتوله النابتة من نوافذها، وسحقت بنفسها الزهرة في غرابيل كبيرة ثم دعكت المعجونة التي دكن لونها بفعل الأكسدة، وغلّفتها بورق شفّاف، ثم تركت في جيوبها الفتات الذي كشطته عن قفازيها المطاطيّين لتمضغه سرّاً وتسترسل في الضحك وحدها أو في النّوم والأحلام، أو لتتذكّر ربّما الساعات القليلة التي أمضيناها سويّة، كيف عرّيتها من ثيابها من دون إرادةٍ منّي تقريباً، بخجلٍ، بعد أن قبّلتني على فمي وهي تمسك بيدي. حنان تلك الذكريات البسيط الجميل زادته الحشيشة جمالاً، وأثار فيّ شيئاً منَ البهجة. كانت أنوار طنجة المتراقصة تسرّع وتيرة أفكاري، يجب أن أضع خطّة وأسير وفقها، لا يجدر بي هذه المرّة أن أتخلّى عن كلّ شيء لأعود ثانيةً إلى الحطّة والمَهانَة. فكّرت في والديّ من جديد، وخصوصاً أمّي وإخوتي الصّغار، ماذا بإمكانهم أن يعرفوا عنّي، ما رأيهم بي، ومرّت بخاطري سورة يوسف «يا أبتِ إنّي رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»، نسيت أنّني بتّ أحفظ هذه الآيات عن ظهر قلب. يوسف الذي باعوه بثمنٍ بخس لتاجر من مصر، يوسف الذي كان الله يلقّنه تعبير الرؤيا، يوسف التي أغوته زليخة. . . كانت أنوار العبّارات تخترق المضيق، أشبه بقافلة بحريّة. عسى أن أجد عملاً في ميناء طنجة المتوسطي أو في المنطقة الحرّة، ثم أوَفّق في الهجرة خلال فترةٍ قصيرة. كان بسّام محقّاً بعد كلّ حساب. يجب الرحيل، يجب الرحيل، المرافئ تلهب قلوبنا.

أضحت الوحدة كتلة ضباب صفيقة، غيمة كثيفة، غيمة منذرة بالشرّ أو الخوف. شعرت بغثيانٍ خفيف. بدأت أرتجف برداً على مقعدي. وفجأةً شعرت بالجوع، بجوعٍ قاتل.

على الطريق التهمت سندويشاً بقضمتين، وبعدئذٍ عدت إلى غرفتي في مركز «نشر الفكر القرآني» حيث كلّ شيءٍ كان مقفراً، ساكناً، سكوناً يطرق على صدغيّ. ثم غرقت في سباتٍ عميق.

في صباح اليوم التالي، استيقظت وفمي دبِقٌ، وعيناي حمراوان لكنّي بحالٍ جيّدة تقريباً. وضّبت بعض الكتب، وتناولت فطوري، وقرأت تفسير سورة يوسف في الكشّاف. كانت الشمس تنتشر على السجاجيد. أحياناً، كانت تعودني وجوه البارحة: أمين المكتبة دامعاً، شاربا كلب موقف السيّارات، وترتدّ مثل مدّ من الوساخة حاولت إيقافه بالتركيز على ما أقرأه، جاهداً إقناع نفسي بأنّ ما حصل قد حصل. ما حصل قد حصل. المهمّ هو المستقبل.

ظهر الشيخ نور الدين من جديد في بداية بعد الظهر بالملابس المدنيّة أي في بذلةٍ زرقاء غامقة أنيقة. حيّاني بتهذيب، لا بل بحرارة. سألني إذا كنت قد حضّرت الكتب (لأنّه يوم الخميس) فأجبته بنعم. قال: عظيم. هذا المساء لدينا اجتماع خارج المركز، سأكون هنا غداً صباحاً. وخرج. لم ينطق بأيّة ملاحظة، بأيّ تلميحٍ عن الجولة التأديبيّة بالأمس.

استعدت أخيراً وحدتي. تصفّحتُ الإنترنت قليلاً، وبعثتُ برسائل عبر الفايسبوك إلى فتياتٍ لا أعرفهنّ، جميعهنّ فرنسيّات، كرسائل القناني الملْقاة في البحر: «أنا شاب مغربيّ من طنجة، أبحث عن صداقتك لكي أتقاسم معك شغفي: القراءة».

فكّرت: سأظهر لكن إلى أيّ حدّ أنا مثقّف من خلال التوصية التي أرفقت بها الكتب، ربّما بالغت فيها قليلاً برغم تضميني إيّاها عبارات رصينة ودقيقة. زدْ على ذلك أنّي كنت أختار فتيات جميلات بالطبع لكنّهنّ يرتدين نظارات ويتحدّرن من مدنٍ لا أعرف عنها شيئاً، لكن طاب لي أن أتخيّلها باردة ومضجرة أي ملائمة للقراءة. (كان بديهيّاً ألا أتلقّى أيّ ردّ، ويجب الاعتراف أنّني أعذر هؤلاء الفتيات لأنّهنّ إذا ما ألقين نظرة على بروفيلي، الذي عُنيت أن أجعله متاحاً للجميع، لرأيْن في خانة أصدقائي ليس فقط وجه بسّام الشبيه بمساجين الأشغال الشاقة، بل أيضاً «جماعة نشر الفكر القرآني»، أو قناة الجزيرة، وهذا منظوراً إليه من بورج أو من تروا[٤]، يجعل حظوظي بأن ترقّ واحدة منهنّ لحالي متراجعة كثيراً).

غفوت قليلاً وأنا أحلم بالنساء الشابّات آنفات الذكر. ومن ثمّ قرأت مرّة أخرى البداية في إحدى رواياتي البوليسيّة المفضّلة: «معمعة كاملة»[٥]. تخيّلت فجأة أنّ طنجة أصبحت مرسيليا، وهذا يكاد يكون مستحيلاً، وأنا أقضم كيساً من رقائق البطاطا. كان المساء ينزل بهدوءٍ ورائحة البحر تغمرني.

بقيت ممدّداً على الأرض والنور مطفأ حتّى ادلَهَمّ الليل تماماً.

---

(٤) بورج وتروا Bourges, Troyes، من بلديّات فرنسا.

(٥) معمعة كاملة Total Khéops، رواية بوليسيّة للكاتب الفرنسي جان كلود إيزو تدور أحداثها في مرسيليا، وقد نقلت إلى الشاشة.

عاد بسّام مسرعاً، كاد يدوس عليّ.

- ماذا تفعل في الظلمة؟ هل كنت نائماً؟

- لا، ليس حقّاً.

كان مهتاجاً كالعادة. يدور حول نفسه كما يدور جرو كلب حول سلّة أمّه.

سألته:

- ما بك مجدّداً؟ هل ثمّة شخص آخر تريد ضربه؟

- لا، المسألة هذه المرّة أخطر من ذلك.

- ماذا؟ سيف ذو الفقار؟

- كفّ عن تجديفك أيّها الكافر. حانت ساعة الانتقام.

اعتقدته لِبرهةٍ يمزح، لكن، بعد أن أشعلت الضوء، استطعت التأكّد من أنّ عينيه الصغيرتين كخرزتين تلمعان بجنونٍ غريب وسط رأسه الأرعن.

- لأيّ حماقة جديدة تخطّط؟

واستعرض لي نواة نظريّة هوسيّة تقول إنّ اعتداءً واحداً يهزّ النفوس سيكون قادراً على تحريك الأمور قاذفاً بالغرب والشعب والقصر الملكي في المواجهة. قول يشبه تماماً الشيخ نور الدين،

ولكن قلّما يشبه بسّام. كلام يدلّ على غباء مطبق.

قلت:

- أنت في تمام الغباء.

مع العلم أنّني كنت أعرف جيداً أنّ الإسلام السياسي قلّما يهمّه في العمق. ثمّ إنّنا تربّينا في كنف الدين مذ كنّا صغاراً، حتى فاض بنا التديّن.

- دعك من قصص الاعتداء هذه، تعال نقوم بجولة. لن يعود الشيخ قبل الغد.

رأيت بسّام يحدّق إليّ كما لو أنّني أنا من كنت المجنون الأرعن.

- عليّ بالصلاة لكي أتطهّر.

تنهّدت. تساءلت عمّا فعله به الشيخ نور الدين أو بأيّ شيء وعده. ربّما بحوريّات الجنة لا سيّما وأنّ بسّام يميل إلى قصص الحور اللواتي تتجدّد عذارتهنّ دوماً ويمكن نكاحهنّ إلى الأبد على ضفاف الكوثر، نهر الجنة حيث الخير الوفير.

أنا أيضاً كان لديّ حوريّاتي.

- أتدري، تعرّفت على فتاتين ظريفتين مساء البارحة، طالبتين إسبانيّتين. ستمكثان حتّى الغد. دخنّا لفافة حشيشة سويّة وعليّ أن أوافيهما بعد قليل.

- كفاك كذباً.

أخذت عيناه تلتمعان.

وراح يُجيل الفكرة في رأسه.

- لا أصدّقك.

- لا يهمّ. أريدك أن تأتي معي لكي تهتمّ بالأخرى. لا أريد أن

أكذب عليك. إنّها أقلّ جمالاً لكنّها لطيفة مع ذلك. هيّا، أسْدِ لي هذه الخدمة.

- طيّب، وما اسماهما؟

عظيم، انطلت عليه الحيلة.

- فتاتك تدعى إيناس وفتاتي كارمن.

كان بإمكاني أن أجد اسمين أكثر تميّزاً ولكنّي نطقت بهما في الحال، دون أن أتردّد ثانية واحدة.

- وكم يبلغ عمرها؟

قلت:

- لا أعرف، الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين.

- يا ألله، يا ألله من نكد طالعي! وعدت الشيخ بالبقاء في المركز، وانتظار الأوامر، وتمضية الليل في الصلاة.

- يمكننا البقاء حيناً معهما، ومن بعدها تعود للصلاة، فما الذي سيتغيّر؟

فكّرت لو أنّ كلّ الأعضاء الجدد في جماعة الشيخ نور الدين يسهل التلاعب بهم مثل بسّام فلن يكون انتصار الإسلام وشيكاً.

وبَدَت عليه هيئة من اتّخذ قراراً مؤلماً.

- حسناً، لكن فقط للقيام بجولة، اتّفقنا؟ ومن بعدها أعود.

- كما تشاء.

فكّرت ها قد بالغت كثيراً. سيُقطّعني إرباً عندما سيكتشف أنّ إيناس البدينة وكارمن الجميلة أخلّتا بالتزامهما.

ليس الأمر خطيراً، يمكن تدبيره.

المهم ألا يحصل الشيخ نور الدين على ساعات الصلاة هذه.

إنّه مجرّد انتقام بسيط.

تنضّح بسّام بغسول الشعر خاصّتي. ونفخ في راحَتيه ليتأكّد من رائحة نَفَسه، كان يرتعص.

قال:

- سنتكلّم بعض الإسبانيّة أثناء الطريق لنتمرّن قليلاً.

فأجبته:

- *Con mucho gusto hijo de puta*.[٦]

وانطلقنا، بدأ مطر دافئ خفيف بالسقوط.

---

(٦) أي: بكلّ سرور يا ابن القحبة.

توقّف المطر عن الهطول، لكنّ ظروف الطقس قدّمت لي ربّما حجّة تدعم تغيّب صديقتينا الوهميّتين. فالجميع يعرف أنّ الإسبانيّات لا يخرجن عندما تمطر. مشينا مدّة نصف ساعة للوصول إلى وسط المدينة. أمطرني بسّام بِوابلٍ من الأسئلة بلغة إسبانيّة مطعّمة بالفرنسيّة والعربيّة غير مفهومة إجمالاً ولكن محبّبة. كان يريد أن يعرف كلّ شيء، أين قابلت هاتين الشابتين، عمّ تحدّثنا، من أين هما آتيتان، . . . كنت أرتجل هذه التفاصيل آمِلاً أن أتذكّرها لكي لا أفضح نفسي لاحقاً - قلت إنّهما من فالنسيا (لأنّ مدريد أو إشبيلية بدتا لي بديهيّتين) وإنّهما طالبتان تمضيان إجازة بين فصلين دراسيّين، وهكذا دواليك. كنت أتساءل عمّا إذا كان بسّام مغفّلاً أو أنّ اللعبة جعلته يحلم مثلي. ولفرط ما تحدّثت عن الموضوع، كدْتُ أصاب بالخيبة أنا نفسي لتصوّري أنّ أحداً لن يأتي على الموعد المزعوم في صالون الشاي بالقرب من ساحة الأمم. قدّمت قطعة منَ الحلوى لبسّام فالتهمها بلمحة بصر، بسبب الاهتياج ربّما. كان يبدو علينا المكر نحن الاثنين في محل الحلوى هذا. ومن حولنا بُلهٌ خرجوا برِفقة خطيباتهم اللواتي كنّ جميعهنّ مرتديات أحجبة جميلة ملوّنة. رحن يلتهمن تورتة بالحامض أو بالميلك

شايك، فيما رجالهم المُشَوْرَبون يحلمون ولا شك بمداعبة نهودهنّ ويفكّرون أنّ الثمن ليس مرتفعاً جدّاً، بعض الحلوى لقاء جلسة مداعبات دافئة في سيّارة أو على كنبة. أعتقد أنّني كنت غيوراً بعض الشيء من هؤلاء السذّج الذين يتقدّمون علينا قليلاً في السنّ لكنّهم اكتسبوا الحق بوضع يدهم في سراويل قريباتهم بفضل خطوبة شرعيّة وقليل من المال ثمناً لخواتم وعقود. نحن كنّا ننتظر شبح إسبانيّتين بهيئتنا الغريبة، بسذاجة أبناء الضواحي المدهوني الشعر.

كان بسّام يضرب الأرض برجليه وأمامه فُتات حلوى «الفوريه نوار»[٧] وكرزتها المعقودة بالسكر تتربّع متروكة وسط الصحن.

تظاهرت أنا نفسي بنفاد الصبر: لكن ما بالهما تأخّرتا؟ ما الذي تفعلانه؟

خمس دقائق وأقترح على بسّام الذهاب لنبدّد حزننا في البيرة في مكانٍ ما - راحت السماء تمطر من جديد.

هذا أمر معروف ولا يخفى على أحد، الإسبانيّات لا يخرجن عندما تمطر.

وفجأةً رأيت بسّام يقفز عن كرسيّه رافعاً رأسه مثل زرافةٍ وأخذ يرفسني بعنفٍ بقدمه من تحت الطاولة. التفتُّ. كانت فتاتان شابّتان أوروبيّتان تدخلان للتوّ. كانتا سمراوين بشعور طويلة مسدلة وبِغرّةٍ مقصوصةٍ على الجبين، وترتديان سراويل فضفاضة وعشرات الأساور في معصميهما، وتحملان جزدانين من الجلد وفي أقدامهما كالوش من المادّة نفسها: كانتا إسبانيّتين ولا شكّ. هذا غير

---

(٧) كعكة من الشوكولا مع الكريما المخفوقة تزيّن بالفواكه والكرز المعقود بالسكر.

معقول. في الواقع ليس الأمر مستبعداً إلى هذا الحدّ، ولكن هذا كان يجعلني في وضعٍ لا أحسَد عليه.

قلت لبسّام:

- ليستا الفتاتين اللتين ننتظرهما.

لم يحر جواباً؛ نظر إليّ وهو يتنهّد.

لا بدّ أنّ الفتاتين دخلتا إلى محلّ الحلويات لتحتميا من المطر.

كان بسّام مغتاظاً. وبدأ يتساءل عمّا إذا كنت ضللته. أن تصل فتاتان إسبانيّتان فيما كنا ننتظر أخريين، كان ذلك يعطيه شعوراً بأنّ شيئاً ما لا يجري على ما يرام. أن تتنزّه شابتان إيبيريّتان في طنجة في هذا الفصل. ليس هذا بالأمر الشائع.

واعتملت فكرة في رأسه:

- اذهب واسألهما ما إذا كانتا تعرفان إيناس وكارمن، هكذا بالصدفة.

كدت أجيبه مَنْ إيناس وكارمن هاتان؟ ولكنّي تذكّرت قبل فوات الأوان الاسمَين الوهميّين اللذين اخترعتهما.

- لعلّهما في المجموعة نفسها.

كانت نظرته متحدّية، وسيماؤه متوعّدة. ويسعى إلى استفزازي، ومعرفة ما إذا كنت كذبت عليه أم لا.

تنهّدت. لم أكن أستطيع أن أقول له إنّي لا أجرؤ. فهذا يتجاوز فهمه. استعدت منظره بالأمس والهراوة في يده وهو يوسِعُ أمين المكتبة ضرباً. تساءلت ما الذي كنت أفعله في صالون الشاي برفقة صديقي المعتوه المتسلّح بالهراوة.

- أوكي، سأذهب.

كان بسّام يتلمّظ، ولسانه الضخم يلكح شفته العليا ملتقطاً آخر

فتات الشوكولا. أمسك حبّة الكرز المحلّاة بالسكر ورماها داخل فمه. أشحت بنظري قبل رؤيته يمضغها.

- أوكي، سأذهب.

لم يسبق لي أن جرؤت على التحدّث مباشرة إلى أجنبيّة. لطالما تحدّثت في الموضوع، لطالما تحدّثنا فيه أنا وبسّام خلال الأوقات التي أمضيناها ننظر إلى المضيق. كذبنا كثيراً أو بالأحرى حلمنا كثيراً. نظر إليّ بهيئته الساذجة الأخويّة. أذكر أنّني فكّرت في عائلتي غالباً، عائلتي هي بسّام ومريم ولا أحد سواهما.

- أوكي، سأذهب.

اقتربت من طاولة الفتاتين، هذا أمر أكيد. أعرف أنّني توجّهت بالكلام إليهما. أجهل ماذا بربرت أو بأيّ لهجةٍ استطعت أن أتواصل معهما وكيف فهمتا قصدي؛ أعرف بالضبط - تسنّى لي كلّ الوقت فيما بعد لأفكّر في الأمر مراراً - أنّه بدا عليّ أنّني في منتهى الصدق ولا غاية لي إطلاقاً سوى رغبتي الشديدة بأن تعرفا كارمن هذه وإيناس تلك لدرجة أنّهما لم ترتابا في مسعاي، أجاباتاني بصراحة، وجرَت الأمور بطبيعيّةٍ فائقة. ومن ثمّ، رأتا فعلاً، وهما تستمعان لبسّام، وتنظران إلى رأس بسّام، بأنّ ذلك لم يكن فخاً، كان هنالك فعلاً فتاتان تدعيان كارمن وإيناس تحومان في الفضاء مثل شبحين. أعربتا عن أسفهما لأجلنا، ولكن، كما تعرفان، إنّها تمطر، تمطر، وضحكت في سريرتي، تلوّيت منَ الضحك وأنا أفكّر أنّ المطر، المطر الذي لا ننتبه إليه أبداً، يستطيع أن يغيّر قدراً بالسهولة نفسها التي يغيّر الله بها الأقدار، أستغفر الله العظيم.

بعد إمعان النظر فيهما، لم تكونا متشابهتين إلى هذا الحدّ فتاتينا الإسبانيّتين. كانتا من برشلونة وتدعيان جوديت وإيلينا، الأولى أكثر سمرة والأخرى أكثر امتلاءً، وهما طالبتان أتيتا إلى المغرب، بفعل معجزة، لتمضية أسبوع العطلة فيها أي كما تصوّرت بالضبط، عطلة الشتاء، أو الربيع، لم أعد أدري، ولكن بالنسبة لي كان الربيع العربي قادماً، وإرسال طالبات لطيفات إلينا يُساوي الثورات قاطبة. يا للروعة، فتيات بوسعنا أن نتخيّل الملابس الداخليّة المرهفة التي يرتدينها، لا بل هن ميّالات إلى إظهارها لنا، دون أن يرهقن كاهلنا بأسئلة عن العائلة، والدين، وآداب الحشمة، والعادات الحميدة. فتيات ثريّات، إذا تعلّقن بك استطعن أن يعبرن بك هذا المضيق اللامع بتوقيع واحد، ويعرّفنك على أهلهنّ بهيئة شاردة قائلات: هذا صديقي وسيجد الأب، وبحقّ، أنّ لك هيئة زنجيّ أفريقيّ لكنّه سيهزّ رأسه وكأنّه يقول يا ابنتي القرار عائد لك، وسينتهي الأمر بنا سعداء متنعّمين في إسبانيا، بلاد لحم الخنزير الأسود المقدّد، وبوّابة أوروبا.

كانت عينا بسّام الصغيرتان تقولان كلّ ذلك، كلّ ذلك، إلاّ الخنزير الذي في داخله. راح ينظر إلى المرأة الشابّة أمامه وكأنّها

جواز سفر، مع صور فتياتٍ عاريات بدلاً من تأشيرات المرور، لدرجة أنّ إيلينا كانت تمضي وقتها في تسوية قميصها على كتفيها لِسَترِ نحرِها، وحركتها هذه لم يكن بسّام يفسّرها على سبيل الحشمة بل الاستفزاز بالأحرى - أخذت تسوّي أيضاً حمّالة نهدَيها، منزعجة من نظراته، دون أن تنتبه إلى أنّ فعلها هذا إنّما يشير إلى هذا الشيء المحجوب عن بسّام، وأنّ يديها الناعمتين على جلدها بالذات حين أزاحتا القميص للقبض على حمّالة الكتف، ورفعها بلمسة خفيفة إلى الأعلى رنّ لها المطاط بخفوتٍ، جعلتا العرق يتصبّب من جبين بسّام. لم يكن يستطيع أن يشيحَ نظره عن الكتفين الناحلتين، عن هاتين النقرتين المجوّفتين كمملحتين أو كمبهرتين، اللتين كان يعترضهما بياض القماش الخفي والبارز معاً.

أخذ بسّام يلعق سبابته، يلعق طرفها سهواً ثمّ يهرس فُتات حلوى «الفوريه نوار» المبعثر في الصحن ويجمّعه دون أن يتفوّه بكلمة، مستغرقاً في تأمّله. كانت إيلينا تحاول أن تزوّغ الفخّ البصريّ بالكلام. كانت تتلفّظ بوضوح وتؤشّر بالكلمات حتّى تجعل نظر هذا الفتى يستقيم خمساً وعشرين درجة فينتقل من صدرها إلى وجهها كما هيَ العادة لدى الناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً، لكنّ رغبته، لكنّ هذين النهدين وهذه اليد المتشّبثة بالقماش كانت توحي لبسّام بالعار بحيث كان عاجزاً عن التحديق إلى إيلينا في العينين، لكأنّه لو فعل ذلك كان الأمر أشبه بالنظر إلى أفكاره بالذات مواجهةً. كيانه وتربيته كلها كانا يمنعانه من رفع رأسه والتنعّم، سرّاً كما يفعل الأوروبيّون، بالمنظر الخارق، بالإثارة التي تشيعها العفّة، فيما هي، رغماً عنها، تكذّب ذاتها وتتنكّر لها إذ تكشف لخيال ذاك الذي يتأمّلها، ما تحاول سترَه.

كان بسّام أكثر صدقاً منّي، وربّما أكثر بساطة. إنّها مسألة مزاج، أو صبر؛ كنت أتحدّث كثيراً إلى جوديت. وأطرح من وقتٍ لآخر سؤالاً لإيلينا. كنت أحاول وأبذل ما في وسعي، أنا أيضاً، لأخمّن ماذا تخفي تحت قميصها، ولكن بخفرٍ، دونما إصرار، مواظباً على التحديق في عينيها مباشرة، ثم ما إن تلتفت لتتحدّث مع صديقتها أو تتفرّس بهيئة واجمة ببسّام المسكين، حتى أنعم بمرآها، مع اعترافي بأسفٍ بأنّ تلك التي أجلسَها القدَر قبالتي لم تكن الأفضل بين الاثنتين لأنّ جوديت بدَت لي توّاً أكثر قرباً وانفتاحاً وبشاشة.

وبسرعة كبيرة، لم تكفِ كلماتي الإسبانيّة القليلة في إدارة الحديث، فانتقلنا إلى الفرنسيّة. كانت تلك، على ما أعتقد، المرّة الأولى التي أخاطب فيها فعليّاً أجانب بالفرنسيّة، ولزمني البحث عن كلماتي. لحسن الحظّ، سهّلت اللهجة الكتالونيّة لجوديت عليّ الفهم. لم يقل بسّام شيئاً، أو تقريباً. من وقتٍ لآخر، يتمتم بضع كلماتٍ بلهجةٍ غير مفهومة. لكنّه عندما أدرك أنّ هذين الملاكين اللذين هبطا من السماء كانتا تدرسان العربيّة في برشلونة، أخذ يتكلم معهما بعربيّة فصحى. لكأنّها عظة للشيخ نور الدين مع فارق الأخطاء النحويّة. بدأ يسأل جوديت وإيلينا هل كانتا تعرفان القرآن، وما إذا كانتا قد قرأتاه بالعربيّة وما رأيهما بالإسلام. كان عليه أن يعيد مرّتين أو ثلاثاً كلّ سؤال لأنه يتحدّث بسرعة ويلفظ بشكل سيّئ ناظراً إلى الأسفل.

البارحة ليس إلا، كنّا نشارك في حملةٍ تأديبيّة وفي أيدينا الهراوات. وهذا المساء، نهدي هاتين الأجنبيّتين إلى دين النبي. بإمكان الشيخ نور الدين أن يفخر بنا.

شاقني أن أصدّق أنّهما كانتا طالبتين تدرسان العربيّة، أي مهتمّتين ببلادي ولغتي وثقافتي. كانت تلك معجزة ثانية، معجزة غريبة، أتراها كانت شيطانيّة؟ أيعقل أن تهتمّ شابّتان من برشلونة بهذه اللغة إلى حدّ تعلّمها؟ وما الداعي؟ قالت جوديت إنّ عربيّتها سيّئة للغاية، وإنّها تخجل من التحدّث بها. أمّا إيلينا فانطلقت بيسرٍ أكبر، لكنّ لفظها يشبه لفظ بسّام في الإسبانيّة أو الفرنسيّة، أي غير مفهوم. خجلت قليلاً. من حولنا الرجال يراقبون خطيباتهم وهن يشرَبنَ «الميلك شايك» ويرشفن بصوتٍ صاخب القشة مغمضات الأعين، دون أن يفوّتوا في الوقت نفسه كلمة واحدة من حديثنا. ربّما كانوا يقولون انظروا إلى هذين الأبلهين، عثرا على سائحتين أجنبيّتين وها هما يحدّثانهما عن النبيّ.

اقترحت أن نذهب إلى مكانٍ آخر. همس بسّام لي ببضع كلماتٍ باللغة المغربيّة، بسرعة كبيرة، وبصوتٍ خفيض.

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة مساءً. اقترحت إيلينا تناول بعض الطعام. فكّرت في الدراهم القليلة الباقية في جيبي، بإمكاني أن أشتري بها سندويشاً، ليس أكثر. اقترحت إيلينا الذهاب إلى مطعمٍ صغير عاينته في المدينة القديمة. لا بدّ أنّ هيئتي كانت مندهشة وأنّ جوديت لاحظت انزعاجي. قالت باستطاعتنا الذهاب إلى مقهى متذرّعة بأنّها لم تكن تشعر بالجوع كثيراً وبأنّ الشاي قطع عليها شهيّتها. تجهّمت صديقتها قليلاً، تلفّظت جوديت جملتين باللغة الكتالونيّة. وهمس لي بسّام ببضع كلمات في أذني بهيئة ماكرة: لمَ لا نصطحبهما إلى مركز «نشر الفكر القرآني» من أجل درسٍ بالعربيّة؟ وَجَب عليّ أن أمسك نفسي عن الضحك. تخيّلت هيئة الشيخ نور الدين وهو يكتشف وجود امرأتين كافرتين في

مسجده، وبسّام شبه عارٍ منصرفاً لأن يفسّر لجوديت وإيلينا مآثر حمزة. ليس الآن، ليس اليوم، قلت له.

من جهتي، كنت أستطيع دعوتهما لتدخين لفافة كَيْف عند الأسوار. ما زال معي كسرة حشيشٍ من البارحة. ليس المشهد رومنطيقياً كثيراً - ثم ربّما أثار ذلك الخوف فيهما فتتمنّعان وتعدلان عن مرافقتنا وخصوصاً إيلينا تلك التي لا يبدو عليها أنّها مغامِرَة كثيراً.

كنّا واقفين أمام محلّ الحلويات منذ خمس دقائق وأكثر.

قلت: لنذهب إلى المقهى.

فأجابت جوديت: عظيم، أيّ مقهى؟ أين ستصطحباننا؟

دار بسّام حولنا وهوَ يحجل.

لم يسبق لي أن فكّرت بهذه السرعة.

وأتتني الفكرة:

- عند مهدي، نذهب عند مهدي.

حملق بسّام بعينيه، وضرب كفّاً بكفّ، أجل عند مهدي بالطبع، أنت فعلاً عبقريّ. كان في غاية الحبور.

ابتسمت جوديت، ابتسامة واسعة مشعّة، وشعرت أنّني بطل.

«عند مهدي» المكان الوحيد في طنجة الذي يستطيع فيه اثنان من البونيول[8] في التاسعة عشرة من عمرهما مثلنا الدخول برفقة أجنبيّتين دون أن يفلسا أو يثيرا الاستغراب لدى الناظر. إنّه من الأمكنة الفريدة المختلطة في المدينة، لا هو بالفخم ولا هو بالشعبيّ، ليس أوروبيّاً ولا عربيّاً. خلال النهار وخصوصاً في الصيف يصبح المكان مقهى يحتسي فيه الطلاب والتلامذة عبوات الصودا تحت خيم القصب والنباتات المعترشة. وفي الليل، شتاءً، وحين يكون الجوّ ماطراً، كان هنالك قاعة صغيرة حفيّة فيها مقاعد ووسائد يحتسي فيها شبّان مغربيّون وأجانب الشاي. في ذاكرتي، كان الديكور مزيجاً من الطابع الشرقي السياحي والحداثة الحائرة، تزيّنه بعض الصور بالأسود والأبيض داخل أطر من الألمنيوم، وسجاجيد بربريّة وآلات موسيقيّة قديمة زائفة. لم يكن للمكان اسم، فقط لافتة بلاستيكية نُقش عليها ماركة مشروب غازي. كان يُعرف باسم صاحبه مهدي، وهو رجل فارع الطول شديد النحول

---

(٨) بونيول: شتيمة عنصريّة، اسم كان يطلقه المستعمرون البيض على السكّان الأصليّين السود والأفريقيّين الشماليّين.

قلّما هوَ ظريف لكنّه غير متطفّل أو مزعج ويمضي معظم وقته جالساً على سطيحته بالذات، معتمراً كاسكيتاً باريسيّة، ويدخّن سجائر جيتان. ذهبت إليه كغيري، بمعيّة بسّام معظم الوقت، لا بل إنّني اصطحبت مريم مرّة أو مرّتين في الصيف وقدّمت لها البيبسي.

كان المقهى على مسافة بعيدة قليلاً. ووَجَب صعود التلّة عند غرب المدينة القديمة. إلا أنّ السماء توقّفت عن المطر. كانت جوديت وإيلينا سعيدتين بالقيام بجولة. مشيت إلى جانب جوديت ومشى بسّام بالضبط خلفنا مع الأخرى. كنت أسمعه يتكلّم بالعربية، وما إن تقول له إيلينا إنّها لا تفهم ما يقول، أي معظم الوقت، كان يردّد الجملة نفسها بالضبط ولكن بصوت أعلى. تكرّر إيلينا عدم فهمها ذاته بنبرات آسفة فيرفع بسّام صوته ليصبح أقرب إلى خوار العجل، لكأنّه كلّما صرخ قاذفاً الكلمات التي تجهلها، زادت حظوظ الفتاة الكتالونيّة المسكينة في فهمه. أو لكأنّ اللغة الأجنبيّة بالنسبة له هي بمثابة مسمار يجب غرزه في الأذن الشامسة بضربات كبيرة من مطرقته الصوتيّة: أو بالهراوة التي كان يفرض بها احترام الدين على الكفّار، ولكن مع فارق ابتسامة.

بدَت لي الحياة جميلة، حتى مع بسّام الصارخ في الليل. ها إنّي أجتاز برفقة فتاة هذه الأحياء المجاورة للسوق الذي كنت أتردّد إليه منذ سنة ونصف وكانت هذه النزهة تمحو - وإن يكن لفترة قصيرة - سلسلة التجارب كلّها التي عشتها واللعنات التي نزلت بي خلال السنتين الأخيرتين وخصوصاً ذكريات ليلة أمس الحديثة والأليمة في آن معاً. عادني وجها صاحب المكتبة، ورجل موقف السيّارات النجس. حبّذا لو أنّهما يقلعان عن إزعاجي في هذه اللحظة بالذات. أذكر صررت على أسناني وقد اجتاحني ألمٌ

حقيقي، إنّه طغيان العار، رجّع صداه الفظيع تماماً كمساء أمسٍ، وكأنّه ارتداد كارثة، ما حدا بمرافقتي لتسألني، إذ رأت قشعريرة مفاجئة تنتابني، ما إذا كنت أشعر بالبرد أو بالانزعاج من أمرٍ ما.

بدت لي جوديت فتاة يقظة متنبّهة. تحدّثنا عن الثورة، والربيع العربي، والأمل، والديمقراطيّة، وأيضاً عن الأزمة في إسبانيا، حيث لا يبدو أنّ البهجة والسرور يعمّان البلاد - البطالة متفشّية، والدولة مفلسة، وهراوات الشرطة تنهال على كلّ هؤلاء الذين يشعرون بالاستياء. بدا لي الاستياء (وقد سمعتهم يتحدّثون عنه بطريقة مبهمة على الإنترنت) شعوراً قليل الثوريّة، شيئاً أشبه بسيّدة عجوز لا تحسن في ما تحسنه إلا جلب المتاعب لك؛ أو كأن يعنّ على بال غاندي، لا مشروع يحدوه ولا قرار، الجلوس على الرصيف تعبيراً عن استيائه، إن لم يكن اغتياظه، من الاحتلال البريطاني. كان هذا الموقف سيضحك ولا شك الإنكليز كثيراً. كنت ترى التونسيّين يضرمون النار بأنفسهم، والمصريّين يواجهون الرصاص بأجسادهم في ميدان التحرير، فتشعر أنّ كلّ هذا يبعث على الحلم حتّى لو كان هنالك احتمال متعاظم بأن يقطف ثمرة كلّ ذلك الشيخ نور الدين ورفاقه. لم أعد أذكر ما إذا كنّا تحدّثنا لاحقاً بعد مرور بضعة أسابيع، عن إجلاء «المستائين»(٩) الذين احتلّوا ساحة كتالونيا في برشلونة بعد أن فرّقهم رجال الشرطة بسيّاراتهم وهراواتهم كَسرب حمام إفساحاً في المجال على حدّ زعمهم للاحتفال بإحراز نادي برشلونة كأس البطولة. وهذا ما يدعو

---

(٩) حركة المستائين وهي حركة احتجاجيّة واسعة انطلقت في إسبانيا في ١٥ مايو ٢٠١١.

للاستياء تحديداً: أن تتصدّر كرة القدم السياسة. لكن يبدو أنّ لا أحد اعترض فعليّاً فالشعب اعترف، في قرارة نفسه، بأنّ فوز ناديه هو بحدّ ذاته احتفال جميل للديمقراطيّة ولكتالونيا، لا بل إنّه حدث عظيم يصبح معه الاستياء شيئاً لا أهميّة له.

سألتني جوديت أيضاً عن المغرب، وعن طنجة، وعن تحرّكات المعارضة فتملّصت من الإجابة. وعندما سألتني عمّا إذا كنت طالباً جامعيّاً، أجبتها بأنّني أعمل أمين مكتبة، وأنوي متابعة دراستي. بدا أنّ مهنة أمين المكتبة هذه أوحَت لها بالاحترام. وعلى كلّ حال، لم تكن كذبة. كنت متحرّقاً لطرح سؤال عليها لكنّني احتفظت به لوقتٍ لاحق، بِدافع الخجل على الأرجح، أو ربّما ببساطة لأنّني سمعت بسّام يطرحه على إيلينا، خلفي بالضبط، وبصيغة مختلفة قليلاً: لماذا اختارت أن تتعلّم العربيّة، هل تريد أن تعتنق الإسلام؟ لحسن الحظ، لم تفهم إيلينا الأسلوب القرآني لبسّام الذي كان من الممكن ترجمته إلى: «هل ترغبين في إشهار إسلامك؟» كدت أنفجر من الضحك لكنّني استحسنت عدم إغاظته لأنّه بسببي أخلّ بواجبه في تأدية الصلاة وألفى نفسه يتغزّل بفتاة إسبانيّة. مغفورة له عربيّته النبويّة.

حين أصبحنا عند مهدي، جلسنا على طراريح وأمامنا أربعة فناجين شاي. كان المقهى خالياً إلا من مهدي نفسه المستغرق في قراءة الجريدة. انسحب بسّام قليلاً من الحديث لأسبابٍ لغوية بشكل أساسي: تعب من فرط الكلام والصراخ بالإضافة إلى أنّنا كنّا نتحدّث بالفرنسيّة أو بشيء من هذا القبيل. أخذْتُ أتباهى مدّعياً أنّني تعلّمت اللغة بمفردي من خلال قراءتي للروايات البوليسيّة، فظهرت على سيماء جوديت أمارات الإعجاب. قالت لي ليتني أستطيع أن أفعل

مثلك مع العربيّة. لا بدّ أنّ هنالك روايات بوليسيّة عربيّة، مصريّة على الأرجح (لا أعرف لماذا تصوّرت القاهرة أكثر ملاءمة للقصص المشبوهة التي تدور في أحياء البؤس). قلت لنفسي إنّني ربّما كنت قادراً عى إهدائها بعض هذه الروايات ما ذكّرني بحملة البارحة على صاحب المكتبة؛ تخيّلت لو أنّني التقيت هاتين الفتاتين قبل أربع وعشرين ساعة لَحزمت أمري وامتنعت عن المشاركة في هذه الحملة الجبانة المشينة، ولكن هذا مخالف للواقع بالطبع.

بدا على بسّام نفاد الصبر. راح يضرب الأرض بقدَميه، وانقطع عن الابتسام. كان راغباً في العودة، وأنا أيضاً شعرت، برغم رغبتي العارمة في البقاء، أنّ هذا الشاي لا يمكنه أن يدوم إلى الأبد. أخذت إيلينا تتثاءب من وقتٍ لآخر. أوضحت لي جوديت أنّهما تنويان البقاء يوماً آخر في طنجة قبل الذهاب إلى مراكش. يومٌ آخر فقط، هذا قليل. قلت إنّ هناك أشياء كثيرة تستوجب الرؤية هنا، وندمت في الحال على قولي هذا لأنّني كنت سأجد صعوبة حقيقيّة في أن أضع قائمة بها.

ولحسن الحظ، إنّ أيّاً من الاثنتين لم تسألني عن الروائع التي كنت أتحدّث عنها للتوّ. أخذ بسّام يتثاءب بدوره إلى حدّ أنّ حنكه كاد ينقطع، وقد هدهده ترجّح نهدَي إيلينا إلى حدّ النعاس. ما انقضت عشر دقائق إلا وأعلنت جوديت الرحيل. لم أصرّ على إبقائهما، لا بل إنّني وافقت على أنّه حان الوقت. قلت إنّ لديّ عملاً غداً صباحاً، ثمّ أضفت شارحاً: عليّ أن أبسط الكتب أمام مسجد الحيّ. وكرّرت مرّتين اسم المسجد واسم الحيّ، على طريقة بسّام، لأتأكّد من أنّهما سمعتا بوضوح.

ولمزيدٍ من الإيضاح أضفت: مُرّا لرؤيتي إذا كنتما في الجوار.

كان الاحتمال ضئيلاً بأن تكونا «في الجوار» إذا أخذنا في الحسبان ما تتّصف به ضاحيتنا من أهميّة سياحيّة هائلة. ثم إنّني لم أكن متاكّداً فعلاً من رغبتي في أن تطّلعا عن كثب على محتوى عرمات الكتب التي أبيعها. لكن، لا يخفى عليكم أنّه كان أمراً محبطاً للغاية أن أتركهما تذهبان هكذا في سبيلهما، دون أن أقترح عليهما شيئاً ما، ولو حتّى بطريقة غير مباشرة. كانت جوديت وإيلينا تنزلان في فندق صغير في المدينة القديمة فرافقناهما. وددت أن أروِيَ عليهما تاريخ طنجة، والقلعة، والأزقّة، لكنّي كنت أعجز من أن أقوم بهذه المهمّة.

ثمّة ما يزعج دوماً في عبارات الوداع، وخاصّة في شارع صامت ومقفر، بالقرب من حاويات النفايات أمام النّزل الذي كان مصباحه النيون الموهن على الشرفة، تحت اللافتة، يشحن من وقتٍ لآخر خطوط المطر الناعم الذي عاود السقوط. إنّها لحظة مستفيضة وليس بالإمكان معرفة ما إذا كان يجب إطالتها أو على العكس قطعها صراحة. قالت جوديت: ستتبلّلان. قلت شكراً على السهرة. مدّ بسّام يده لمصافحة إيلينا دون أن يرفع عينيه إلى وجهها. يستحسن إيقاف كلّ شيء عند هذا الحدّ. كان بانتظارنا المدينة المتلألئة ومركز «نشر الفكر القرآنيّ». جمّد الضوء المتقطّع على وجه جوديت حاجبيها وشفتيها وذقنها. على أمل اللقاء إذاً، قلت. إلى اللقاء، أجابت. كانت تلك الكلمات العربيّة الأولى التي أسمعها من فمها. «إلى اللقاء»، كان لفظها رائعاً، عربيّاً بإتقان. فأجبت مندهشاً بطريقة تلقائيّة إلى اللقاء، وسرنا في طريق العودة.

أجهل ما إذا كان المطر هو الذي أيقظ بسّام. ما كدنا نسير مئة متر بعد مغادرة الفتاتين حتى شرع في الكلام دون توقّف. يا الله، يا الله ما هذه السهرة يا صاحبي، هل لاحظت أيّها المغفّل كم كانتا متيّمتين بنا، أرأيت كيف كانت تظهر لي نهدَيها، شيء لا يُصدّق. اعتقدتها مزحة قصّتك تلك عن كارمن وإيناس. أيّ لقاء رائع حظينا به. يا الله يا الله.

والأغرب من ذلك أنّه لم يكن يبدو عليه الإحباط أو الخيبة بعدما أوصلهما إلى فندقهما. كان فقط سعيداً، وبدا أنّه لا يبالي إطلاقاً بالمطر. أمّا أنا فكنت بخلافه مستاءً من المطر الذي بلّلني - لا يزال أمامنا ثلاثة أرباع ساعة كاملة من المسير - وأشعر بفراغٍ مرعب، وبوهنٍ شديدٍ، كأنّ القدر أظهر لي جوديت ليحجبها عنّي من جديد مضاعفاً بذلك من وحدتي. الآن، وأنا في طريقي إلى حيّنا، عادت مريم إلى ذاكرَتي عوداً أليماً، بحنانها وجسدها. كان ظهور الفتاة الإسبانيّة يحيي، في اعتقادي، هذا الغياب ويدلّني على طريق حبّي الحقيقي. وكلّما نأى واقع هذا الاتّصال الجسدي الوحيد في الزمن - مرّ ما يُقارب السنتين على حدوثه - ازددت يقيناً بما كانت تعنيه لي مريم، ذلك أنّ حضور جوديت، عوضاً عن أن يثير فيّ تلقائياً رغبات جديدة، فإنّه بخلاف ذلك أعاد إلى ذاكرتي

تفاصيل (من عطور وأنسجة ونداوات) تجلّت لي تحت وابل المطر: إنّها كآبة الخصيتين التي لا شفاء منها. كان بسّام يُعيد تأوّهاته المضبوطة كساعة الدوام والتي باتت ترهقني. صرخت به: بسّام، أغلق فمك، اصمت لو سمحت، فتوقّف عن الكلام صراحة، منتصباً وسط الجادة عاجزاً عن الفهم. ثم صحت زاعقاً: أتعرف أنت على حق، يجب أن نرحل، علينا أن نغادر طنجة، علينا أن نغادر المغرب. لم يعد ممكناً البقاء هنا.

نظر إليّ وكأنّني شخص أخرق أو أبله يجدر التحدّث إليه بهدوء. قال: اصبر إذاً إنّ الله مع الصابرين.

استشهد بالنبيّ، بطريقة ساخرة ربّما. هذا فيما لو كان بسّام قادراً على السخرية. شعرت فجأة أنّني متعتع من السُّكر. كان سُكْراً هائلاً، يغمر كياني، دون أيّ باعثٍ. البارحة الحملة مع الجماعة، واليوم اللقاء بجوديت. إذا كان لكلّ ذلك من معنى فإنّه يتجاوزني تماماً.

راح المطر يتساقط بشدّة متزايدة واضطرّنا الأمر في النهاية إلى إيقاف سيّارة تاكسي كانت مارّة من هنا، وكلّفتني التوصيلة ما تبقى لي من دراهم.

عند الوصول إلى «مركز نشر الفكر القرآني»، بدأ بسّام بالصلاة. وأنا دخّنت لفافة حشيش. حملق بعينيه فيّ. الشيخ نور الدين لا يحبّ هذه الأمور كما تعرف. يجب أن نكون أطهاراً.

أشرت له بإصبعي الوسطى بشكلٍ نافر. فضحك لذلك.

هدّأ الكيْف من رَوْعي قليلاً - عاودتُ التفكير بجوديت، واستعدت من جديد السهرة، وابتساماتها، وأفكارها عن المغرب، والربيع العربي، وإسبانيا. رأيت من جديد عينيها البنيّتين المشرقتين

بلون البندق وشفتيها وأسنانها بكلّ تفاصيلهما. هرعت إلى الإنترنت لأبحث عنها على الفايسبوك. كان هناك الكثيرات من اللواتي يُدعَين جوديت في كتالونيا وبعضهنّ مع صور، وبعضهنّ دونها وما من واحدة تشبهها.

وانتهى بي الأمر إلى تصفّح مواقع عن برشلونة. رحت أجول المدينة، من مرفئها حتّى التلال، صعدت الرامبلاس، وبحثت عن الجامعة، وملعب نادي برشلونة، وأنعمت النظر إلى واجهات غاودي[١٠]، وطالعني فجأة برج حديث غريب وسط المدينة، عضو ذكرِيّ عملاق متقزّح، قضيب ملوّن مليء بالمكاتب منتصب قبالة البحر، عضو متطاول إلى ما لانهاية، وتساءلت لبُرهة عمّا إذا كان هذا البرج مهزلة فاجرة تخيّلها أحد الهاكرز أم استيهاماً فاحشاً ابتدعه مخرج أفلام خلاعيّة. لكن، كيف أمكنهم بناؤه وسط مدينة بهذا الجمال، هذه الشتيمة، هذا الاستفزاز، هذه الفُرجة. لكأنّ هذا المبنى موجود هنا لكي يذكّرني بألم ما أملكه بدلاً من الدماغ، كأنّه نذير سوء، تأشيرة غامضة للقدر. رأيت برشلونة تحت علامة القضيب المنتصب فأطفأت الحاسوب.

غفا بسّام فوق السجاجيد، مستلقياً على ظهره. علا شخيره بعض الشيء، وقد ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة هادئة.

خلدت إلى الفراش. دار الليل بي قليلاً، أومضت بعض نجوم مذنّبة عند السقف. ثم غفوت.

---

(١٠) أنطونيو غاودي (١٨٥٢-١٩٢٦)، من أشهر المهندسين المعماريّين الإسبان وقد تركّزت معظم أعماله في برشلونة ومن أهم إنجازاته كنيسة ساغرادا فاميليا.

كانت أيّام الجمعة مرهقة دوماً إذ عليّ القيام بنقلتين أو ثلاث ذهاباً وإياباً وأنا أجرّ عربة لجلب الكتب والأقراص المدمّجة، وإيداعها داخل المسجد، ومن ثم نقل القوائم الخشبيّة لوضع الألواح الكبيرة عليها بمساعدة أحدهم، ما يستغرق ساعتين كاملتين، يتبع ذلك تغطية الطاولات بشراشفٍ ورقيّة وتنضيد الكتب عرماتٍ مرتّبة. وعليّ أن أكون قد جهّزت استعداداتي عند إقامة الصلاة. كان الشيخ نور الدين يساعدني ثم يجلب إليّ الصندوق ولفافات تحوي قطع العشر سنتيمات الصادرة حديثاً التي نُقش عليها نحلة تمتص رحيق زهرة زعفران بكلّ طمأنينة.

كان عليّ بالطبع أن أعمل على تجديد عروضي دوماً لا سيّما وأنّ الزبائن كانوا هم أنفسهم غالباً. في ذلك الصباح، أحضرتُ صندوقاً من كتاب «الجنس في الإسلام»، وآخر من «رائدات في الإسلام»، وهما بالطبع دعامتا مبيعاتي، لكنّي جلبْتُ أيضاً كتب قرآنٍ ضخمة مرفقة بشروح في الهوامش، وبعض الكرّاسات الصغيرة لسيّد قطب، «وسيرة النبي محمد» في مجلّدين ضخمين، وثلاثة عناوين مصوّرة للأطفال (الصلاة، الحج، الصوم)، وكتاباً جميلاً كنت أحبّه كثيراً «قصص الأنبياء» ويحوي أخباراً منذ نوح وحتّى

النبي محمد، بالإضافة إلى بعض النسخ المجوّدة للقرآن في أقراص مدمّجة، وفي أقراص بصريّة.

كان الزبائن في الإجمال يلقون نظرة سريعة على الكتب لدى دخولهم إلى المسجد ويطيلون المكوث عند الخروج. وما خلا بعض العابرين، ينعدم الزبائن أثناء الصلاة والخطبة. وعلى أيّة حالٍ ووفقاً لتعليمات الشيخ نور الدين، لا يفترض بي البيع في وقت الصلاة لأنّ المسلمين يجب عليهم الامتناع عن البيع والشراء خلال صلاة الجمعة.

كان الطقس منذراً بالمطر. تحضّرت للأمر فتزوّدت بغطاء بلاستيكيّ لحِماية الكتب في حال انهمار المطر وإن يكن المطر مستبعداً بحسب نشرة أحوال الطقس.

احتشد جمع قليل في الساحة. كان هناك فتى مراهق يمعن فيّ النظر. إنّه أخي الصغير ياسين. يبدو أنّ النهار يبدأ شيّقاً. كان ياسين يحمل كيساً وخبزاً. مرّت سنتان لم أرَه فيهما. انتبه إلى أنّني لمحته فأشاح برأسه متردّداً وابتعد بضع خطوات متراجعاً إلى الخلف.

كنت أنتظره بابتسامة عريضة. مددت له يدي من فوق الكتب فلم يأخذها بل أفلت فقط الكلمات التالية:

- عليك أن تخجل لظهورك مجدّداً في هذه الناحية.

هذا يكفي، كلّ هذه المتاعب لأنّني ضُبطت عارياً مع مريم.

- وما دخلك أنت في هذا يا نجس.

لدى سماعهم السباب، التفت بعض المتسكّعين الفضوليّين السذّج. والتفت أيضاً الشيخ نور الدين الذي كان على مسافة بضعة أمتار.

انقلب تصرف ياسين فجأة بشكلٍ تام:

- هل تعرف، بالرغم من المصائب التي تسبّبت بها، أمّي مشتاقة إليك كثيراً.

فجأة بدا في غاية الانفعال.

تحيَّرتُ في ما أقول.

- قلْ لها إنّني أنا أيضاً مشتاق إليها.

لن يذهب بنا الأمر إلى حدّ البكاء فوق كتاب «سيرة النبي» أو «الجنس في الإسلام». نظرنا واحدنا إلى الآخر لِبرهة قصيرة صامتين. وددت أن أكرهه، ورغبت في ضمّه بين ذراعي، كما كنت أفعل عندما كان صغيراً. الآن أصبح عمره أربعة عشر عاماً. فقط مددت له يدي مرة أخرى فأمسكها بحزنٍ وقال لي ببساطة، إلى اللقاء، نعم هذا ما قاله بالضبط، إلى اللقاء. شعرت أنّ ذلك كان يعني «أبداً». مع السلامة يا معتوه، أنت لديك أمّك وحتى أبوك، ولديك نور التي بلغت لِتوّها الثانية عشرة وسارة الصغرى التي تصغرها بسنتين، لديك كلّ هؤلاء الناس حولك، ولديك أيضاً دكان سمانة ينتظرك مشرّعاً أبوابه، ومستقبل مشرق بفضلي، إذاً لا تثقل علينا. رغبت في أن أهْديه كتاباً على سبيل الذكرى، لكنّه انصرف. ما أسرع ما ينصرف الناس الذين نرغب في شتمهم، أو لعلّني كنت أنا نفسي غير جاهز للشتم والعنف، هذا محتمل.

رحت أرتجف وأنا أنضّد أكوام الكتب أو أبسطها، وفي قلبي يعتمل غضب حقيقي، دون أن أفهم لذلك سبباً. كالعادة، لم أكن أفهم تماديهم في الحقد. ما كنت أعرف أنّ هذا البازل تنقصه أجزاء لتكتمل الصورة. تصوّرت لسذاجتي أنّ كلّ هذه الضغينة باعثها فقط رؤية جسدينا عاريين، جسدي وجسد مريم، ولا شيء آخر، لأنّ

الناس كلاب عمياء ولئيمة، مثل أخي ياسين، مثلي أنا، كلاب تتأهّب للعضّ ولا تتقارب، ذات ظهيرة يوم جمعة في ساحة مسجدٍ في الضاحية، في طنجة أو في مكانٍ آخر. وكلّ ما كنت أجهله، كان الشيخ نور الدين يعرفه، هو الذي، ما إن ابتعد ياسين حتّى اقترب منّي وسألني عمّا إذا كان هذا أخي فعلاً الذي كنت أتحدّث معه، وتكرّم عليّ بنظرة تعاطف وتربيتة على الظهر ثم تلا عليّ بضع آياتٍ قرآنيّة لمواساتي. انقبض قلبي، وتوقّدت عيناي، شعرتني من جديد طفلاً، طفلاً متأهّباً لمناداة أمّه، تلك الأم التي أشتاق إليها فيما جمع المصلّين يهرع للدخول إلى المسجد. وأيقنت في تلك اللحظة فقط أنّه لم يعد لديّ عائلة؛ عبثاً سأصرخ حتّى الموت فإنّ أحداً لن يأتي لنجدتي أبداً، أبداً. وحتى لو كان والدي أو والدتي بين هذا الحشد فلن يحفلا بي. وهكذا ارتددت بكليّتي إلى نفسي طفلاً جريحاً معمّياً تماماً عن رؤية أمواج الشقاء المرتفعة من حولي.

بعت كتاب «رائدات في الإسلام» لرجلٍ اشتراه هديّة لزوجته. أذكر، سألني هل أستطيع أن أوضّبه له كهديّة، واستاء منّي عندما أجبته بالنفي. كان يريد لقاء خمسة دراهم بائسة كتاباً وتغليفة فوق ذلك، وددْت أن أقول له على الفور إنّ باستطاعته وضع هذه الدراهم في مؤخّرته، ومعها كتابه وحتى زوجته، إن شاء، لكنّي لم أجرؤ. فالثورة لم تكن تلوح في الأفق القريب.

استمعت إلى الخطبة التي ترسلها مكبّرات الصوت، وكانت تتعلّق بسورة أهل الكهف وأسفار الاسكندر ذي القرنين إلى بلاد يأجوج ومأجوج. كان الإمام الذي يلقيها عالماً تقيّاً، ورجلاً حكيماً قلّما يتعاطى السياسة، لكنّه كان يثير أعصاب الشيخ نور الدين ورفاقنا إلى أقصى الحدود.

انتظرت ظهور جوديت. كنت مقتنعاً بأنّها ستأتي، يجب أن تأتي. رجوت أن تكون قد حفظت جيّداً موقع المكان، واسم الحي. من أجلها اخترت أن أحمل كدسة من «قصص الأنبياء» لأنّي أردت أن أهديها هذا الكتاب. رأيت أنّه كتاب جميل لِمَن يدرس العربيّة الفصحى، وغير معقّد كثيراً.

خرج الجميع من المسجد، وفي مقدّمتهم بسّام. بعت بضعة كتبٍ كالعادة. مضى الوقت بطيئاً. كنت أنظر في جميع الاتّجاهات مترقّباً وصول جوديت، غير مركّز في عملي. أخذ بسّام يهزأ منّي لأنّه حدس سبب قلقي.

عند الساعة الثانية، ولحظة توضيب الكتب، بدا الأمر جليّاً بالنسبة لي: لن تأتي. الحياة قذارة، فكّرت. الزيارة الوحيدة التي حظيت بها زيارة أخي الصغير الأبله.

أنهيت عملي والأسى يلفّني. تابع بسّام سخريته منّي بلطف. لم يكن مزاجي يتحمّل معاكساته. دعانا الشيخ نور الدين، ككلّ يوم جمعة، للغداء في مطعمٍ صغيرٍ في الجوار، مع باقي «الأعضاء الناشطين» في الجماعة. كنت أسمعهم يتحدّثون في السياسة والثورات العربيّة، إلخ. كان ممتعاً رؤية هؤلاء المتآمرين الملتحين وهم يلحسون أصابعهم متلذّذين بالطعام. بسط الشيخ فوطته على صدره وأدخل زاوية منها في ياقة قميصه لئلا تتلطّخ - فصلصة الزعفران، لا توفّر أحداً. أمسك أحد أعضاء الجماعة الملعقة بجمع يده وكأنّها هراوة وأخذ يلتهم الطعام واضعاً الصحن على بعد عشرة سنتمترات من فمه ليقصّر المسافة قدر الإمكان ثم يُدخل السميد في فمه المفتوح على مصراعيه كمن يُدخل حصى في خلاطة الإسمنت.

أنهى بسّام طعامه فيما كان خطّان عريضان أصفران يزيدان فمه اتّساعاً حتّى وسط الخدّين، وهو يمتشّ بشغفٍ عظم آخر قطعة دجاجٍ. برعمت اللحى النبوية بحبوب السميد وتسفّعت بِوابلٍ من الثلج المذهّب، ووَجَب نفضها فيما بعد كما يُنفض السجّاد. تابعت الحوار شارد الذهن غير مشاركٍ فيه. كنت أعرف أنّهم، وككلّ نهار جمعة، سيتطرّقون إلى عظة إمام المسجد المكروه وسيكون مآلهم وصفه بالنهاية بأنه "mystique" مع استعمال الكلمة بالفرنسيّة (وكلمة "mystique" كانت تعني بالنسبة للشيخ نور الدين شتيمة وهرطقة أفظع من كلمة "mécréant"[١١]، أجهل السبب لكنّه كان يقول دوماً "mystique"، كما هي في لغة فولتير، ربما بسبب تشابهها مع "moustique" أو "mastic"[١٢]. كان الصوفيّون، أو الذين يُشتبه بأنهم كذلك، أعداءه اللدودين، على قدر الماركسيّين تقريباً). وبالفعل، دار الحديث عن سورة الكهف وتفسيرها. تساءل أحدهم لماذا لم يشدّد الإمام على الآيات الأولى التي تهاجم المسيحيّين ومسألة أن يكون لله ابن. وأعرب آخر عن قلقه من التعظيم الذي أولاه لشخص الكلب في السورة المذكورة، حارس النائمين السبعة، الذي يسهر عليهم أثناء نومهم. ورأى ثالث أنّ هنالك مواضيع تجدر معالجتها وتبدو أكثر إلحاحاً من أرض يأجوج ومأجوج وذي القرنين، وحسم الشيخ نور الدين الجدال بقذفه كلمات: «ميستيك، ميستيك، كلّ ذلك ميستيك!».[١٣] الأمر الذي أبهج الجميع.

---

(١١) "Mystique" تعني متصوّف أو صوفي، و "mécréant" تعني كافر.
(١٢) "moustique": برغوث، و "mastic": صمغ أو معجونة.
(١٣) في النص حرفيّاً: "Mistik! Mistik! Kullo dhalik mistik!"

لم يكن يشغلني إلا أمر جوديت. لم تأتِ، تُرى كيف السبيل إلى رؤيتها من جديد؟ فكّرت: إذا كانت الفتاتان تتبعان الخطّة التي رسمتاها، أو على الأقلّ تلك التي خلتني فهمتها البارحة، فسوف تغادران طنجة إلى مراكش، إذاً لا يزال في إمكاني المرور بالفندق حيث تنزلان، وهناك أترك رسالة صغيرة، من يدري، وعنواني الإلكتروني ورقم هاتفي. لدي هاتف جوّال رصيده منتهٍ دوماً لكنّه يستطيع تلقّي المكالمات. لا بل أحسن من ذلك: بوسعي أن أجلب لها الكتاب (أو حتّى بضعة كتب، وإن يكن حملها ثقيلاً في حقيبة ظهرها، بئس الأمر- آثرت أن أتخيّلها تحمل حقيبة ظهر، شعار الشبيبة الأوروبيّة، بدلاً من حقيبة بِدَواليب تجرّها خلفها) وفي طيّه الرسالة الصغيرة المقصودة. حتّى الساعة لم آخذ أيّ كتابٍ من المستودع. كنت فقط أقرأ الكتب التي تهمّني وأعيدها. لا أظنّ أنّ الشيخ نور الدين سيستاء منّي بسبب بضعة نماذج ناقصة. ثم إنّ هدف الجمعيّة كان نشر الفكر القرآني، كنت أعمل إذاً في الاتّجاه الصحيح.

ولا أريد أيضاً أن أذلّ نفسي قاضياً السهرة بطولها أمام الفندق حتى ظهورهما. يجب أن أكون حازماً في هذا الشأن حتّى لو كانت الفكرة شديدة الغواية بالنسبة لي. بدا لي الغداء برفقة الجماعة بلا نهاية.

وأخيراً نهض الشيخ ونهض الجميع معه. شكرْتُه فابتسم لي بحرارة. عندئذٍ استغللتُ الموقف لكي أسأله تسليفي مسبقاً مئتي درهم من أجري للشهر المقبل. أجابني بوسعي أن أعطيك خمسمئة درهم إذا كنت محتاجاً للمال، لكن ماذا تريد أن تفعل بها؟ لم أشأ أن أكذب عليه. قلت له أريد تقديم هديّة لصديقة ودعوتها لتناول

البوظة. شعرتني طفلاً أو مراهقاً يطلب من ذويه ثمن بطاقة سينما ليشتري بها سجائر. سرّ لصراحتي وقال لي ما دامت القضية تستحقّ ذلك فما من مشكلة، وأخرج من جيبه خمس أوراق نقديّة من فئة المئة. لا أطلب أكثر. كانت ثروة بالنسبة لي، ما يشكّل نصف أجري. تقوم بعملك جيّداً، أنت واحد منّا، تدرس كثيراً، لديك الحق أيضاً في تزجية الوقت. أُعجبْتُ بهذه الصداقة شبه الأخويّة وخجلت فجأة من أن أتنكّر لها بطريقة أو بأخرى. أخرج الشيخ نور الدين الأوراق النقديّة دون تحفّظ فيما كان بسّام ينظر إليّ بحسد، علماً أنّه يترتّب على نشاطه، هو، نوعٌ آخر من الأجر جزاء العنف والمخاطرة.

وبدءاً من الجمعة مساءً وحتّى الأحد، كنت في عطلة. لا دخل لأحدٍ بالطريقة التي سأمضي فيها أوقاتي. كان عرفاني بالجميل حيال الشيخ نور الدين يشي بسذاجتي لكي لا أقول بلاهتي. كان تفكيري مستغرقاً في سذاجة عاطفيّة معسولة. وكما يقول المثل الإسباني: «إنّ شعرة في العانة أصلب من قضيب الحديد». مررت من جديد بمركز الجماعة وصادف مروري تحضّرهم جميعاً لاجتماع كنت معفيّاً منه، نِعْم الأمر؛ النادر لا حُكم له: بدلاً من الجلوس بهدوءٍ على السجاجيد، انزووا في مكتب الشيخ الصغير، وعليهم هيئة المتآمرين. قدّرْتُ فعلاً أنّ لذلك علاقة بالاعتداء الذي حدّثني عنه بسّام البارحة، لكنّي كنت عاجزاً عن التصوّر أنّ الأمر متعلّق بفعلٍ حقيقيّ، بالعنف الأكثر خبثاً وهوساً. خِلْتُ أنّ مجرّد اقتناء «جماعة نشر الفكر القرآني» مقرّاً لها كان كفيلاً بأن يحملها على إبقاء تحرّكاتها، ضمن الحدود (الواهية حقّاً)، التي يسمح بها القانون.

أخذت ثلاثة كتب غلّفتها بشكلٍ رثّ بواسطة أوراق الجرائد

(التي كانت هي أيضاً بالعربيّة ما يجعلها متناسبة مع الموضوع، أليس كذلك؟) وخرجت. ارتأيت قبل خروجي أن أضع رواية بوليسيّة في جيبي، ففي حال لم تظهر الفتاتان أعوّض عن خيبتي بالقراءة وإنفاق مال الشيخ وأنا أحتسي البيرة.

وانطلقت باتّجاه الفندق حيث تنزلان، مصمّماً أخيراً على الانتظار طويلاً أمام هذا النّزل حتّى تظهرا. الأمر واضح، ليست لديّ أيّ قوّة معنويّة.

في ذلك المساء، وفيما قضيت نهاية بعد الظهر، والمساء مع جوديت، وفيما حزنْتُ بالطبع لفراقها ثانية، وسررتُ في آنٍ لرؤيتها مجدّداً، داهمني أوّل كابوس على عتبة سنّ الرشد. لم يكن حلماً جنسيّاً يتيح لي اللقاء بتلك التي تركتها للتو، بل هو حلم فظيع رأيت فيه أخي الصغير الذي قابلته في ذاك النهار نفسه، ورؤى جحيميّة ستتكرّر متشابهة تقريباً حتّى اليوم: قد تتغيّر مادّة الحلم قليلاً، ويطرأ تبدّل على تشكّله. لكنّ الألوان، وصور العنف والخوف ثابتة يستحيل التعوّد عليها برغم تواترها. مشهد الشنق يعود مراراً، سواء شنقْتُ نفسي، أم سقطت على جسد مشنوق لا يزال يختلج؛ وهناك البحر الذي يعبره فجأة تيّار أحمر يزداد كثافة باطّراد ويبتلعني فيما كنت أسبح فيه؛ والاغتصاب حيث عجائز شديدو الهزال كهياكل عظميّة يغتصبونني وهم يضحكون فيما أنا عاجز عن الحراك أو الصراخ. ثم تنقطع هذه المشاهد كلّها في ذروتها فأستيقظ لاهثاً مبهور النفس، أو تتواصل بخلاف ذلك إلى ما لا نهاية، في تأمّل بطيء مبرّح لجثّة مألوفة تعوم في الهواء، أو في السباحة التائهة وسط أمواج من الدم. النساء اللواتي كنّ شهدن نومي روَينَ لي أنّني كنت أستغرق في انتحاب طويل وأنا متكوّم

على نفسي مخفياً وجهي بذراعيّ، أو أتقلّب في سريري مطلقاً صرخات مخنوقة. قد يتغيّر نظام المقاطع المشهديّة فيختفي بعضها حيناً ثم يعاود ظهوره فجأةً دون أن أفهم لذلك سبباً.

استيقظت في هجيع الليل على هذه الصور، وفي الظلمة صلّيت لبرهة في ذهني. كانت ردّة فعلي الأولى في مواجهة الخوف الصلاة، والابتهال لله. وكنت لأمنح كل ما لديّ لأحظى بأحدٍ ما إلى جانبي. ثم أشعلت النور لأطرد التصوّرات الذهنية وأستبدلها بالأشياء الأليفة لغرفتي الصغيرة. استغرقت وقتاً طويلاً لأهدّئ من روعي. تشبّثت بوجه جوديت. كانت وعدتني أنّها ستمرّ ثانية بطنجة على طريق العودة، بعد خمسة أيام، وأنّها ستكتب لي رسائل عبر الإنترنت لتخبرني عن رحلتها. بدأ الحلم المرعب ينمحي شيئاً فشيئاً مع ذكرى جوديت. كان بإمكاني مرافقة جوديت وإيلينا إلى مراكش فأنا لم أزرها قطّ. وجدت غريباً التفكير أنّهما ستعرفان بلادي أكثر منّي. ولكن هل كانت هذه بلادي حقاً؟ بلادي كانت طنجة، هذا على الأقلّ ما كنت أعتقده إلى أن أدركت بعد الظهر، أنّ طنجة كما تراها جوديت لا تتطابق مع طنجة التي أعرفها. كانت المدينة بالنسبة لها عالميّة، وإسبانيّة، وفرنسيّة، وأميركيّة. سبق لها أن قرأت بول بولز، وتينيسي وليامز، أو وليام بورروز، وكتّاباً آخرين أوحت لي أسماؤهم شيئاً ما بشكل مبهم لكنّي كنت أجهل كلّ شيءٍ عنهم. حتّى محمد شكري وهو كاتب من طنجة، الذي سمعت عنه قليلاً، لم أكن قرأت سطراً واحداً ممّا كتبه. دُهشْتُ للغاية عندما علمت أنّهم يدرسون رواياته في قسم الأدب العربي الحديث في جامعة برشلونة. عندما تحدّثت إلى جوديت عن طنجة، شعرت أنّها مدينة مختلفة، أنّ هنالك

صورتين، قطاعين غريبين يجمعهما الاسم نفسه، خطأ تماثل الأصوات. لا شكّ أنّ طنجة لم تكن هذه ولا تلك، لا ذكريات الأزمنة الغابرة للمدينة العالميّة، ولا ضاحيتي، ولا طنجة المتوسّط، أو المنطقة الحرّة. إلاّ أنّني بعد لقائي صدفة جوديت وإيلينا على مسافة مئتي متر من فندقهما وأنا أتأبّط رزمة الكتب تحت ذراعي، وتنزّهي برفقتهما طيلة ما بعد الظهر وردحاً من الأمسية، راودني شعور غريب بأنّني سُلبْتُ أرضي. والغريب في الأمر أنّ جوديت هي من شرحَت لي تاريخ المدينة القديمة، مثلاً. كانت هيَ العالمة بالأمور، وتقتفي الأمكنة والآثار والذكريات. كانت هي من بادرت إلى إهدائي نسخة عربيّة من «الخبز الحافي» لمحمد شكري اشترتها من مكتبة أثناء تجوالنا. حاولت أن أُظهر لها أنّني أعرف أشياء أنا أيضاً. حاولت أن أكون مضحكاً، على الأقلّ، أن أبدو ذكياً، لكنّ قلّة انسيابي بالفرنسيّة الشفويّة، وجهلها التام للغة المغربيّة جعلاني أبدو بليداً، وجلفاً قليلاً، ومجرّداً منَ الرهافة. شعرت أنّني أبدو كأبله صراحة. وعندئذٍ بذلْتُ ما في وسعي للتواصل بالعربيّة الفصحى. وفي هذا أستطيع التألّق؛ كانت جوديت تفهم إلى حدّ ما كلامي وتلفظ بإتقانٍ بالغ اللغة العربيّة، ولكن تراءى لي أنّني أقرب إلى مذيع في الراديو أو خطيب يلقي عظة في المسجد نهار الجمعة، ما جرّد النوادر التي أرويها من طبيعيّتها وعفويّتها. حاولوا أن تكونوا ظرفاء وجذّابين بالعربيّة الفصحى وسترون أنّ محاولتكم ستبوء بالفشل حقاً، أؤكّد لكم. لكأنّكم على وشك إعلان حصول كارثة جديدة في فلسطين، أو تلاوة آية من القرآن. برغم ذلك، بدا على جوديت أنّها تهتمّ لأمري. راحت تطرح عليّ أسئلة عن عائلتي وأخبرتها أنّ أبي من

جبال الرّيف من قرية قرب مدينة الناظور، وأنّ أمي عربيّة من طنجة، وترعرعت في كازا باراطا. لم أرغب في الاستفاضة في الكلام عن مواضيع خاصّة. لكن بدا أنّه لا مفرّ من التطرّق إليها: عدد الإخوة والأخوات، والدراسة، والمعهد، والميول، والهوايات، والدين، وهنا اعترضتني مشكلة بيّنة: كيف أقول لها إنّي كنت مسلماً ممارساً دون أن أبدو بمظهر الرجعيّ أو معادياً للنساء الغربيّات. كان أمامي خيار بسّام الذي يقوم على التغنّي بفضائل الإسلام لساعات طوال حتّى يرتدّ الكافر أو يموت ضجراً. اخترت قول عبارات من هذا القبيل: «إنّما الأعمال بالنيّات» و «إن ما من شيءٍ إلاّ يُسبّح بحمده»، وكان لذلك وقعٌ جيّد في العربية وبدا أقلّ تفخيماً، ثمّ غيّرت الموضوع. وافقت جوديت. أمّا إيلينا فكان رأسها لا يزال يضجّ بجدالها الذي لا ينتهي مع بسّام بالأمس، فامتنّت لي لتغييري الموضوع. على أيّة حال، لم تكن تتكلّم كثيراً واحترزت من أن يؤدّي شغفي بصديقتها إلى إقصائها من الحديث. وعلى السؤال هل لديك خطيبة أو صديقة رأيت أنّ الجواب يوازي بصعوبته ما سبق. فكّرت في مريم من جديد. ثم أجبت: قلبي خالٍ الآن، ملمّحاً إلى أنّني أملك خبرة ما في النساء وأنّني مهيّأ للدخول في علاقة جديدة في الوقت نفسه.

ثم جاء دوري لطرح الأسئلة، وخاصة السؤال الذي كان يهمّني في الطليعة : لماذا اختارتا تعلّم اللغة العربيّة ودراستها في الجامعة؟ فضلاً عن أنّ مثل هذا الاختصاص لا ترتسم له آفاق مهنيّة منظورة، كنت أتساءل ما الذي قد يدفع بصبيّتين كتالونيّتين من برشلونة لسلوك درب نبيلة بالطبع، لكنّها تسير في اتّجاه معاكس لرغبة غالبيّة سكّان العالم العربي ألا وهيَ الانعتاقُ من هذه اللعنة الظالمة،

والهجرةُ إلى الشمال. لم يشقّ على جوديت أن توضح سبب خيارها: استهواها دوماً السفر والأدب. باشرت بدراسة اللغة الإنكليزيّة وأتيح لها حضور بعض الدروس في اللغة العربيّة التي انتقتها كمادّة اختياريّة على سبيل الفضول فسحرَتها هذه اللغة وجعلت منها مادّة اختصاصها. أمّا إيلينا فلم تكن تعرف بما تجيب حقّاً. قالت لا أعرف السبب بالضبط، اخترتها هكذا صدفة.

لم أجرؤ على طرح السؤال الآخر الذي كنت أتحرّق له، وهو معرفة إذا كان لديهما صديق أو لا.

ثم عاد الحديث إلى الأدب، إلى ابن بطوطة الرحالة الطنجي القروسطي الذي اجتاز تقريباً جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك حتّى الصين (وهذا كنت أعرفه من دون قراءة طبعاً - أمضى ثلاثين سنة في الأسفار ليصل في النهاية إلى فاس وكأنّ الأمر يستحقّ هذا العناء).

قلت في لغة عربيّة فصيحة متقنة:

- أمر مستغرب فعلاً أن تكون طنجة مشهورة بهؤلاء الذين رحلوا عنها.

ضحكت جوديت معقّبة باللغة نفسها:

- بالله عليك؟! هذا فعلاً غريب.

- بدأ ابن بطوطة أسفاره في الثانية والعشرين، إذاً لم يعد يتبقّى لي إلا القليل من الوقت لأحزم أمري بأن أصبح مشهوراً.

وهكذا دواليك، لساعات إلى أن حان الوقت للافتراق عن جوديت حوالي منتصف الليل بعد أن تناولنا العشاء، واحتسينا الشاي عند مهدي، وعدنا واحتسيناه من جديد، لأنّني كنت أعرف

أنّهما سترحلان في الغد إلى مراكش، وأنّ الحظوظ باتت قليلة بأن نلتقي من جديد برغم وعدها لي بالتوقّف في طنجة على طريق العودة. عندئذٍ تعيَّن عليّ كالبارحة مواجهة هذه اللحظة الشديدة الإحراج، لحظة التواعد على التلاقي، لكي لا أقول الوداع، لا سيّما وأنّني أمضيت طيلة ما بعد الظهر متسائلاً هل سأجرؤ على تقبيل جوديت، ووضع شفتيّ على شفتيها. كنّا لحظتذاك وجهاً لوجه، وكانت إيلهينا متخلّفة عنّا قليلاً، شبه متوارية في ظلّ نتوء الشرفة حيث يومض باستمرار ضوء هذا النيون السقيم، لحظةَ ينظر الناس إلى بعضهم بحنان لأنّهم سينصرفون بعدها إلى الغياب والذكرى، فيما تعتريهم الرغبة التي يتساوى جموحها ولاجدواها إزاء افتراقها عن موضوع إثارتها. وقفنا إذاً متواجهين، صامتين، وكنت عاجزاً عن فعل شيء إن لم يكن الذهاب في سبيلي، مستغرقاً في غمرة أفكاري الرومنطيقيّة الرخيصة، وعارفاً مع ذلك أنّه حان الوقت لأكون رجلاً، وأتقدّم نحوَها كَرَجل، وأقبّلها على فمها لأنّني راغب في ذلك، وأحلم بذلك؛ فإذا أحجمنا عن السعي إثر أحلامنا تلاشت؛ وحدهم المعلّلون النفس بالأمل أو اليائسون يغيّرون العالم، وبالقدر ذاته. سواء هؤلاء الذين يُقدمون على إحراق أنفسهم في سيدي بو زيد، أو يتلقّون الضربات والرصاصات في ميدان التحرير، أم أيضاً هؤلاء الذين يجرؤون، برغم اختلاف الموقف عمّا سبقه، على تقبيل طالبة إسبانيّة في فمها في الشارع. لذا كنت محتاجاً في هذا الصمت، في هذه اللحظة الضائعة بين عالمين، إلى شجاعة مماثلة لأقبّل جوديت، شجاعة توازي الصراخ في وجه سيارة جيب تقلّ جنوداً ليبيّين: «يا قذافي! يا منيوك»، أو

الزعيق في الرباط وحيداً وسط المخزن: «التحيَ جمهورية المغرب!»[١٤]. استطالت لحظة الوداع هذه، قلنا لتوّنا إلى اللقاء، وكانت هي بالطبع التي قرّبت أخيراً وجهها من وجهي وطبعت قبلة ملتبسة، محيّرة عند زاوية فمي، قبلة يمكن أن تفهم في الوقت نفسه على أنها رعناء أو واعدة. يبقى أنّني شعرت بلهاثها قريباً مني، وبعذوبة شفتيها، وأنّي التفتّ متصلّباً مثل جنديّ من رصاص بعد أن شدّت لِبرهة بيديها على يديّ، ثم انطلقْتُ شبه مهرول لموافاة عالم الكوابيس.

والشكّ في القلب. واليقين في القلب.

كان مركز «نشر الفكر القرآني» مقفراً. ما من أثرٍ لبسّام.

وجلست من فوري أمام الحاسوب. أخرجت قصاصة الجريدة حيث كتبت لي عنوانها الإلكتروني. وكتبت لها رسالة طويلة ملتهبة حبّاً. لكنّي عدت ومحوتها شيئاً فشيئاً، سطراً فسطراً وأبقيت في النهاية على عبارة: «سفراً ميموناً! أقبّلك بحرارة وإلى اللقاء قريباً على ما أرجو!»، وأرسلتُ لها الرسالة نفسها عبر الفايسبوك، إلى جوديت فوش، لم يكن هناك صورة لسوء الحظ على بروفيلها.

ستركبان القطار إلى مراكش في اليوم التالي عند الساعة السابعة والنصف وسيستغرق الوصول إليها عشر ساعات من السير على سكك الحديد يقطعها إجراء تحويلة في الدار البيضاء. أي أنّهما على الأرجح ستكونان في الفندق نحو السابعة والنصف مساءً. ربّما لن تستطيع جوديت الوصول إلى الإنترنت في الحال، وسيلزمها

---

(١٤) المخزن مصطلح له دلالة خاصة في المغرب ويشير إلى النخبة الحاكمة لكنّه اليوم يُستخدم أيضاً لوصف الشرطة.

وقت لتجد مقهى إنترنت أو واي فاي[١٥]، لا أستطيع إذاً تلقّي إجابة منها إلا بعد انقضاء إحدى عشرة ساعة في أفضل الأحوال. هذا في حال أجابتني. تردّدت في ركوب القطار ومرافقتهما إلى مراكش. كانت البطاقة تساوي مئتي درهم، وربما أقلّ بقليل في الباص، ولكن سيكون عليّ والحالة هذه دفع تكاليف كلّ من الفندق والطعام، لا سيّما وأنّني لا أعرف أحداً هناك، وعندئذٍ لن تكفيني سلفة الشيخ نور الدينِ إلا يومين فقط. ثم إنّني كنت أحاذر أن أفسد من خلال ضغطٍ متزايد، الودّ القليلَ الذي أمكنني كسبه. يجب التحلّي بالصبر، والاستمرار في الكتابة لها وباعتدالٍ فوق ذلك.

في اليوم التالي، وبعد ليلة فظيعة داهمتني فيها كوابيس حيث رأيت مشنوقين وأمواجاً من الدم، ذهبت إلى شاطئ البحر. أمضيت الجزء الأكبر من النهار في قراءة قصّة بوليسيّة جالساً على إحدى الصخور. كانت شمس نيسان الجميلة تدفئ الرصيف. واستطعت التركيز على قراءتي. أحياناً كنت أرفع عيني عن صفحة الكتاب متأمّلاً المعدّيات، في البعيد، بين المرفأ الجديد، وطريفا أو ألجزيراس.

في العشيّة، شاهدت التلفزيون الإسباني متنقّلاً بين المحطات الأندلسيّة والإسبانيّة، محاولاً الإصغاء إلى اللغة وتعلّمها. لم يظهر أحد من الجماعة، لا بسّام ولا الشيخ نور الدين. نظرت لا أدري كم من المرّات إلى رسائلي، لا أخبار عن جوديت. وانتهى بي الأمر للخلود إلى الفراش وما لبث أن غلبني النوم.

---

(١٥) الواي فاي wifi اختصار لـ Wirless fidelity أي البثّ اللاسلكي الفائق الدقّة والسرعة.

أمضيْت ليلة مضطربة انتابتني فيها الكوابيس مسترجعةً دوماً صورة ذاك المشنوق. عندما استيقظت، وجدت رسالة من جوديت تقول لي فيها: مراكش مدينة رائعة، وغامضة، وتضجّ بالحياة. الرحلة في القطار كانت ممتعة. المغرب بلاد خلاّبة. أقبّلكَ بحرارة وإلى اللقاء في القريب العاجل.

وعلى الفور أجبتها.

لم أعد أتذكّر حركاتي وسكناتي في ذلك النهار. لكأنّ السهرة البهيّة، الصاخبة جعلت الأحداث الأخرى في الظلّ، بعكس الضوء. لا بدّ أنّني قمت بأعمالي المعهودة: قرأت، وتنزّهت قليلاً، وأمضيت بعض الوقت أمام الإنترنت.

في السابعة والنصف مساءً، جلست أمام شاشة التلفزيون، وراحت الصور تتقاطر عن مقهى مدمّر كليّاً؛ الطاولات محطّمة، والكراسي مبعثرة، وكذلك عن ساحة جامع الفنا التي كانت شبه مقفرة إلا في ركن احتشد فيه جمع من الناس قبالة صفّ من رجال الشرطة؛ جابت سيّارات الإسعاف والإطفاء المكان زاعقة بصفّاراتها. في الطابق الأوّل من المقهى شرفة تداعت وتداعى فوقها سقف، ولافتة اقتلع نصفها يبين عليها اسم المقهى بالفرنسيّة

وبالعربيّة: مقهى أركانة. كان عنوان الشريط الإخباري على القناة الإسبانيّة الإخباريّة المتواصلة يقول: انفجار في مراكش يوقع ستة عشر قتيلاً على الأقلّ. أمضيت السهرة بين شاشة التلفزيون والإنترنت، محاولاً معرفة تفاصيل أكثر عن الانفجار- حوالي الساعة العاشرة، اطمأنّ بالي، ما من إسبان بين الضحايا الذين كانوا في معظمهم من الفرنسيّين. أعلنت المواقع الإخباريّة على الإنترنت أنّ الانفجار حصل نتيجة قنبلة، ولم يكن من تنفيذ انتحاريّ كما أشيع في البداية. واحتلّت صورة مريعة لجثّة رجلٍ ممدّدٍ بين الأنقاض جميع صفحات الإنترنت. لم يتمّ توقيف الإرهابيّين. قيل إنّ رجال شرطة فرنسيّين وإسبان سيأتون لمساعدة زملائهم المغاربة؛ وإنّ الرئيس ساركوزي قدّم تعازيه للعائلات المنكوبة، وكذلك ملك المغرب.

حتى لو كنت مطمئنّ البال لناحية جوديت، روّعتني هذه الصور. وصلت الأرقام الدقيقة في الليل. كانت حصيلة القتلى النهائيّة ستة عشر شخصاً ومن بينهم ثمانية فرنسيّين. اتّفقت الصحف على القول إنّ الانفجار كارثة حقيقيّة بالنسبة للمغرب لأنّ أعداد السائحين ستتضاءل في الحال بسبب الوضع السياسي المضطرب، ولن تشجعهم هذه المجزرة على العودة مجدّداً. بدا لي من الوقاحة بمكان التحدّث عن الاقتصاد فيما كلّ هؤلاء الناس لقوا مصرعهم.

رجوْتُ بصورة مبهمة، ألا يكون لبسّام دخل في هذا كلّه. لم يمرّ إلى المركز مجدّداً، لا هوَ ولا الشيخ ولا أحد. تذكّرت ما قاله أوّل أمس عن اعتداء سيهزّ النفوس، وضرورة الحثّ على المواجهة- لا، هذا مستحيل.

كتبت رسالة جديدة إلى جوديت عبر الإنترنت، وسألتها عن

أخبارها؛ أجابتني بطريقة شبه فوريّة قائلة لي إنّها وصديقتها بخير، وقد صادف وجودهما في الساحة لحظة وقوع الانفجار، ولكن على مسافة بعيدة نسبياً. أصيبتا بخوف شديد وبصدمة كبيرة، وتفكّران في ضرورة العودة إلى اسبانيا على أسرع وجه، لأنّ والدي إيلينا قلقان جداً ويعتقدان أنّ احتمال القيام باعتداءات أخرى ليس مستبعداً لذا أوعزا إلى ابنتهما بمغادرة المغرب حالاً. قد لا تستطيعان والحالة هذه المرور بطنجة لركوب الطائرة من هناك كما كان مقرّراً.

تعزية صغيرة: الرسالة تنتهي بعبارتي أقبّلك، أفكّر فيك. انقبض قلبي في صدري لدى قراءتي هذه الكلمات.

كان يوم أحد، ذهبت للجلوس على رصيف أحد المقاهي في ساحة فرنسا. كان الجميع يتحدّثون عن الاعتداء، وهم يفكّرون أنّ إمكانية وضع متفجّرة في طنجة محتملة أيضاً. تساءلت عمّا إذا كان هذا الرجل المطروح جثّة هامِدَة على رصيف مقهى أركانة قد شعر بشيءٍ ما أو إذا علم ماذا حدث له قبل أن يسودّ كلّ شيء أمامه في صعق الانفجار.

- إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها أحداً يقرأ «السلسلة السوداء» في مقهى طنجي.

كان الصوت يأتي من خلفي متحدّثاً بالفرنسيّة. التفتّ فرأيت رجلاً أصلع في الخمسين من عمره يبتسم لي. ثم أضاف:

- صدفة لذيذة لأنّني أنا أيضاً هاوي قصصٍ بوليسيّة.

اعتقدت للوهلة الأولى أنّه كان يريد مغازلتي أو أن يشتري منّي الرواية التي كانت بين يدي «وضعة الرامي المتمدّد». لكن لا شيء من هذا، كان يسعى فقط لمعرفة مصدر الكتاب الذي أقرأه. تردّدت في أن أجيبه، لعدّة أسبابٍ. دردشنا لبعض الوقت. سرّني أن

أتحدّث عن كتّابي المفضّلين، برونزيني Pronzini، وماكبين Mcbain، ومانشيت Manchette، وإيتزو Izzo، وأن أنسى صور الجثة الطريحة أرضاً والطاولات المقلوبة في مقهى أركانة. كان الرجل مندهشاً من اكتشافه أنّ شاباً مغربياً يمكنه أن يكون مطّلعاً على هذه الكتب.

قلت له:

- أعشق هذه الكتب. تعلّمت الفرنسية وأنا أقرأها.

كان جان فرنسوا يسكن في طنجة منذ عدّة أشهر. ويدير فيها فرعاً لشركة فرنسيّة تقع في المنطقة الحرّة. أعجبته المدينة وسيكون في تمام الرضا بوجود تاجر كتب قادرٍ على تزويده بالروايات البوليسيّة القديمة.

أعطيته عنوان الكُتُبي موضّحاً له أنّني لست أكيداً من أنّ مكتبته مفتوحة، لكن في حال كانت كذلك فسيجد هناك مبتغاه. شكرني ثمّ سألني عمّا إذا كنت أعرف استخدام الحاسوب. أجبته بدون شكّ.

- وهل تطبع بسرعة؟

- نعم.

- بكَم من الأصابع، إصبعين؟

- بل بأربع.

قال لي اسمع، لديّ ربّما عمل أعرضه عليك. شركتي تعمل لِدور نشرٍ فرنسيّة. نبوّب وفق التقنية الرقميّة قسماً من فهارسهم. ونبحث دوماً عن طلاب يتقنون الفرنسيّة ويهوون الكتب.

البارحة الاعتداء، وأوّل البارحة جوديت واليوم وظيفة في المنطقة الحرّة. فكّرت من جديد في الجملة الافتتاحيّة لرواية نجيب

محفوظ «ثرثرة فوق النيل»: «كان ذلك في أبريل، شهر الغبار والأكاذيب». كانت فكرة أنّه يمكنني أن أترك قليلاً مركز «نشر الفكر القرآني» أكثر من مغرِيَة. قلت لجان إنّني أعمل في مكتبة دينيّة، ولكن لديّ وقت فراغ. بدا منفعلاً.

- كم عمرك؟
- عشرون عاماً تقريباً.
- تبدو أكبر سناً.
- بسبب الشعرات البيضاء.

منذ بضعة أشهر ظهرت خطوط بيضاء فوق صدغيّ. لكنْ، لو كنت فعلاً أبدو أكبر سنّاً لما طرح عليّ هذا السؤال. لا بدّ أن وجهي لا يزال يحتفظ بشيء ما طفوليّ يتناقض مع جديّة النظرة والخطوط البيضاء.

- تعال لرؤيتي في المكتب نهار الاثنين بين الرابعة والخامسة، ونتحدّث في الموضوع.

أعطاني العنوان قبل أن يغادر المقهى. نظرت إلى «وضعة الرامي المتمدّد» أمامي. الكتب البوليسيّة كنوز مكنونة. تساءلت كيف نترجم إلى الفرنسيّة عبارة «الله أعلم».

كنت أجهل أنّه بقي لي بالضبط أربعة أشهر أمضيها هنا في طنجة. لم أكن أعلم أنّني سأرحل إلى إسبانيا عمّا قريب. لكنّي كنت أستشفّ قوّة القدر، لا بل التشابك الطاغي للأسباب المتوالية الخفيّة التي تُدعى القدر. لدى عودتي إلى المركز عند هبوط الليل، بدا لي العالم مشتعلاً: المغرب، وتونس، وليبيا، وسوريا، واليونان، وأوروبا بأكملها، كلّ شيءٍ بدا مشتعلاً، وكلّ شيءٍ أشبه بصور مراكش هذه التي كانت تتقاطر على التلفزيون، صور المقهى

المدمّر، الكراسي المقلوبة، والجثث. ووسط هذا كلّه، لمست سخرية القدر المذهلة: هناك هاوي قصصٍ بوليسيّة يقدّم لي فرصة عملٍ دون أن يعرفني حتّى، فقط لأنّه رآني أقرأ كتاب مانشيت. وهناك أيضاً مريم. وجوديت. وبسّام مع هراوته. والأسوأ الذي يخبّئه المستقبل دوماً.

إنّه نهار الاثنين بعد الظهر، ولا أحد في مركز الجماعة. بتّ الآن شبه متأكّد أنّ لهم علاقة باعتداء مراكش. بإمكانكم الهزء منّي والقول إنّني ساذج لحدّ البلاهة، لكن، تخيّلوا لحظة واحدة أنّ جيرانكم في الطابق نفسه، وربّ عملكم، وأفضل صديق لكم، متورّطون في عملٍ إرهابيّ، فلن تصدّقوا ذلك أبداً. ستنظرون من حولكم، وترفعون أذرعكم علامة على العجز، ثم تهزّون رأسكم قائلين لا، غير معقول، أعرف هؤلاء الناس ولا دَخل لهم بذلك. كنت أتصوّر أنّ عالماً يفصل بين ضرب سكارى الحيّ، وتنظيم عمليّة يُقتل فيها ستة عشر شخصاً في مقهى، على مسافة سبعمئة كيلومتر من هذا الحيّ. لكن لماذا مراكش بالذات؟ هل لحماية مواقعهم في طنجة؟ أم لِلقضاء على المدينة الأكثر جذباً للسيّاح في المغرب؟ من أين حصلوا على المتفجّرات؟ ربما كان بسّام على علمٍ بذلك منذ أسابيع؛ إنّ عمليّة كهذه لا تُحضّر بين ليلةٍ وضحاها على ما أعتقد. كنت أظنّ أنّ بسّام من الصراحة والاستقامة بحيث لا يخفي عليّ هذه المسألة الفظيعة لوقتٍ طويل، لا بدّ أنّه علم بها في المساء نفسه الذي حدّثني عنها.

ربّما قتلوا مجهولين، وأوشكوا حتى أن يقتلوا جوديت، من يدري. أوسعوا ضرباً الكُتُبي المفضّل لديّ. قدّموا لي الطعام والمَسكنَ والكتاب. كانت غرفتي في غاية الصغر، وفيها تفاسير

القرآن، ومؤلّفات النّحو، ومباحث البلاغة، وأقوال النبي وكتب سيرته، والرفّ الذي وضعت عليه رواياتي البوليسيّة: كانت كلّ هذه الكتب الرائعة تسدّ عليّ الرؤية. تُرى أين ذهب أعضاء الجماعة كلهم؟ عند الظهيرة، اتّصلت بالشيخ نور الدين وبسّام على هاتفيْهما المحمولَيْن من هاتف المركز: لا جواب. شعرت أنّ أحداً منهم لن يعود، وأنّ هذا المكتب أصبح في خبر كان، وأنّهم تركوني، أنا الساذج، لأتكبّد الضربات ومضايقات رجال الشرطة. هاكم السبب في أنّ الشيخ أعطاني بهذه السهولة خمسمئة درهم. لن أرى أحداً منهم مجدّداً. لا أحدَ. سأبقى مع كتبي حتى يصل رجال الشرطة. لا، هذا مستحيل، لا بدّ أنّني مصاب بجنون الارتياب بِدَوري. لا بدّ أنّني قرأت الكثير من القصص البوليسيّة التي يدرك فيها الراوي أنّه غُرّر به، واستغلّه اللصوص، أو استخدمته قوّات الأمن لتحقيق مآربها؛ وهكذا رأيتني الممثل الوحيد لجماعة الفكر القرآني في مركزها المقفر، منتظراً بهدوء رجال الشرطة، مساقاً في آخر الأمر إلى التعذيب بدلاً من الملتحين.

لم يكن مكتب الشيخ نور الدين مقفلاً بالمفتاح. لِوَهلة قلت في نفسي إنّني أتوهّم أموراً وحدي، وإنّهم سيظهرون بين لحظة وأخرى ليوقعوني في الخزي ساخرين منّي إلى ما لا نهاية.

كان صندوق المكتبة هنا: على الطاولة. لم يفرغه أحد منذ أسابيع. ربّما كان يحتوي ألفي درهم. عثرت أيضاً على أوراقٍ نقديّة أخرى في محفظة جلديّة، من فئتي الأورو والدولار، أي ما يتراوح مجموعه بين عشرة أو خمسة عشر ألف درهم. لا أصدّق عينيّ.

وعدا المال لا شيء هناك. المفكّرات اختفت، ومعها أرقام

الهواتف ودفاتر الطلبيّات والسجلات والنشاطات وأغراض الشيخ نور الدين. كلّ ذلك اختفى. حتّى حاسوبه الشخصيّ لم يعد هنا. لم يتبقّ إلا الشاشة.

كنت وحيداً وسط عشرات لا بل مئات الكتب في أغلفتها البلاستيكيّة.

قمت بجولةٍ في الحي، لأرى ما إذا كنت سألقى أحداً من الجماعة صدفةً. لا أحد. مررت بمنزل بسّام، وكان على خطى يسيرة من منزل والديّ، فوجدْتُ والدته وسألتها عن مكانه فرمقتني بتلك النظرة التي نُفردها للمتسوّلين الموبوئين، وتمتمت سباباً ثم صفقت الباب بوجهي باستياء، ثم عادت وفتحته لتناولني ظرفاً قديماً متّسخاً، عليه اسمي- بخطّ بسّام. ألقيت نظرة على الرسالة؛ لكأنّ تاريخها ليس حديثاً. إنّها رسالة قديمة على ما يبدو لم يبعث لي بها قطّ، ربّما لِعدم معرفته عنواناً يرسلها إليه. أغلقت والدته الباب دون تحفّظ أو أيّ تفسير إضافيّ.

عند الساعة الخامسة، كنت على موعدٍ في المنطقة الحرّة مع جان فرنسوا بشأن الوظيفة الجديدة. أردت أن أغيّر ملابسي وأبدو قدر الإمكان في أبهى حلّة. كنت أشعر أنّ العالم من حولي ينهار. لدى عودتي إلى مركز الجماعة ظننت أنّي لمحت رجلين مشبوهين يحومان حول مقرّنا. ربّما كانا شرطيّيْن في زيّ مدنيّ، مَن يَدري. ألقيت نظرة على رسائلي الإلكترونيّة. ثمّة رسالة من جوديت تقول فيها إنّها ستمرّ بطنجة مجدّداً كما كان مقرّراً، ولكنْ بمفردها. ليس لديها المال لتحصل على بطاقة سفر جديدة إلى برشلونة. ستصل إلى طنجة قبل الموعد المقرّر بوقتٍ قصير، بعد غد، على حدّ قولها، بعد أن ترافق إيلينا إلى المطار.

أثلج هذا الخبر صدري، برغم شعوري ببعض الأسى لاتّخاذها هذا القرار لا بداعي لقائي من جديد بسرعة أكبر أو لوقتٍ أطول، بل لأسباب ماديّة تعيسة.

قمت بخياري، دون أن أنتظر ما ستسفر المقابلة عنه بعد الظهر. جمعت كلّ المال الموجود في مكتب الشيخ نور الدين، كلّه، حتى قطع العشرة سنتيم. أخذت ما يقارب الخمسة عشر ألف أو العشرين ألف درهم أوراقاً وقطعاً نقدية، أي من السيولة ما لم يتوفّر لأحدٍ من قبل. كان باستطاعتي الذهاب في سيّارة تاكسي إلى ضاحية الناظور لأبحث عن مريم وأقول أريد الزواج بهذه المرأة الشابّة، وهاكم عشرة آلاف درهم تكفيراً عن الذنب الذي اقترفْتُه بحقّكم، ولا أحد كان سيعترض.

«كان ذلك في أبريل شهر الغبار والأكاذيب».

وجمعْتُ أغراضي أيضاً. احتلّت القصص البوليسيّة المئة لدى توضيبها مكاناً لم أكن أتوقّعه. فأفرغْتُ الطرود التي تلقيناها للتوّ من السعودية ووضعْتُها هناك، كلّها مع «الكشّاف» و«قصص الأنبياء» والقاموس، والكتب التي أحبّها؛ فاستلزم تنضيدها ثلاثة صناديق ضخمة من الكرتون. وزّعْتُ ثيابي القليلة على الصناديق. وإلى ذلك، أخذت الحاسوب المحمول الخاصّ بالمركز، والشاشة، ولوحة المفاتيح، وغرضين أو ثلاثة أردت الاحتفاظ بها.

عملية ارتحالٍ حقيقية، ولا مكان أذهب إليه.

عندما فرغْتُ من تجهيز كلّ شيء، ركبتُ الباص للذّهاب إلى المنطقة الحرّة. تركت كلّ أغراضي في مركز الجماعة، وأخذت فقط المال والحاسوب المحمول لما يوحي به من أهمّيّة. تصوّرت أنّ جان فرنسوا لن يتذكّرني، أو أنّ السكرتيرات (المغربيّات

الشديدات السمرة) بتنانيرهنّ القصيرة وجواربهنّ الطويلة السوداء وسيقانهنّ الجميلة، بنظرة الاحتقار في أعينهنّ والنبرة عينها في أصواتهنّ) لن يدعنني أبداً أقابل المسؤول عنهنّ. لكن لا شيء من هذا، ما كادت تمرّ عشر دقائق على وصولي إلى الشركة حتى كنت أصافح جان فرنسوا. وكان يكلّمني بصيغة الاحترام. قال، أعرّفكنّ بالسيّد هاوي «السلسلة السوداء»، وفي الحال بدأت النساء المرتديات الجوارب السوداء والتنانير القصيرة ينظرن إلى الشاب البلديّ الأخرق الذي وصل لتوّه نظرتهنّ إلى كائنٍ بشري. وسرعان ما اختفى ربّ العمل واحتُجزْتُ في غرفة صغيرة مجاورة لمكتب المدير. وما لبث أن ظهر فرنسيّ أمامي. ناولني كتاباً ثم قال لي حسناً يقوم عملنا على رقمنة هذه النصوص، انسَخْ لي هاتين الصفحتين على الحاسوب. فأخذْتُ الكتاب ووضعْتُه على مقرأ ونفّذت ما طلبه منّي الفرنسي فيما راح ينظر إلى ساعته، وهي عبارة عن كرونومتر ضخم لامع. عندما أنهيت الصفحتيْن قلت أوكي، أنجزْتُها. فأجابني لا بأس، يبدو أنّك ماهر، دعْني ألقي نظرة، عملٌ جيّد فعلاً، انتظر لحظة. ظهر جان فرنسوا من جديد، وكان الآخر يناديه سيّد بوريلييه. قال سيّد بوريلييه أرى أنّه يجيد عمله. ما من مشكلة. نظر إليّ جان فرنسوا مبتسماً. قال كنت أعرف أنّه عنصر جيّد، ابحثا في التفاصيل سويّة يا فريدريك.

نادى فريدريك السكرتيرة. أخذت أوراقي الثبوتيّة وصوّرت نسخة عنها. سألني فريدريك متى أستطيع المباشرة بالعمل، فكّرت لحظة: إذا كانت جوديت ستصل غداً إلى طنجة، فأنا راغب في قضاء الوقت معها. قلت له: هل يناسبك الاثنين القادم؟ أجابني فريدريك: نعم يناسبني. سندفع لك على الصفحة، لكلّ ٢٠٠٠

كلمة ٥٠ سنتيماً من الأورو. ما يعني تقريباً ١٠٠ أورو لقاء كتاب متوسّط الحجم ومن ثمّ نقتطع التصحيحات من المبلغ، سنتيمان عن كلّ غلطة. إذا نسخت عشرين كتاباً في الشهر حصلْتَ على ألفي أورو كأجر، على وجه التقريب، هذا في حال كان العمل متقناً.

قمت بعمليّة حسابيّة صغيرة: إذا أردت إنجاز عشرين كتاباً في الشهر أي مئتي صفحة في اليوم، وَجَب عليّ طباعة خمسٍ وعشرين صفحة بظرفِ ستّين دقيقة، أي ما يقارب صفحة كلّ دقيقتين. لا بدّ أنّ فريدريك هذا متفائل جدّاً. أو ممّن يبيحون الرقّ؛ هذا يتوقّف على الظروف.

- أليس من الأسهل تصوير الكتب؟

- لا بالنسبة لبعضها. ويغدو الأمر متعذّراً مع الكتب التي ورقها شفّاف قليلاً، إذ نحصل على شيءٍ غير مفهوم لا سيّما أنّه يستحيل أيضاً التعرّف الضوئي على الأحرف ومسحها. ومن ثم يجب تفكيك الكتاب، وتركيب صفحاته وإجراء التصويبات اللازمة، وفي النهاية تُصبح الكلفة أكثر ارتفاعاً.

كنت أشعر أنه يتكلّم باللغة الصينيّة، لكنّه يفترض به أن يتقن عمله.

- هل أستطيع العمل في المنزل؟

- نعم، بالطبع؛ على أن تعمل هنا على الأقلّ خمس ساعات في النهار، وذلك لأسبابٍ تتعلّق بالضريبة.

- مفهوم.

جعلتني السكرتيرة أوقّع عقداً، هوَ الأوّل في حياتي.

- حسناً إلى نهار الاثنين. أهلاً بك في شركتنا.

- إلى الاثنين، بكلّ تأكيد، وشكراً.

- الشكر لك.

مررت لألقي التحيّة على جان فرنسوا. صافحني قائلاً: إلى الأسبوع المقبل.

وعدت إلى طنجة. أثناء الطريق، كان البحر ساطعاً.

غداً تصل جوديت. في غضون خمسة عشر يوماً أصبح في العشرين من عمري: بدا العالم مزيجاً غريباً من الشكّ والأمل.

في الجريدة لا جديد عن منفّذي اعتداء مراكش.

كانت الساعة تشير إلى السابعة تقريباً حين وصلت إلى الحي. هبط الليل. تسنّى لي الوقت للتفكير في خطّة. أوّلاً كنت أريد أن أوضّح بعض الأمور. شعرتني مفعماً حيويّة. قرّرت زيارة صاحب المكتبة.

شعرْتُ بالإحراج عندما وصلت أمام حانوته. لم تكن الكتب مبسوطة في الواجهة لكنّ الستارة المعدنيّة كانت مرفوعة. شعرت بغصّة في حلقي. ثم لملمْتُ شجاعتي كلّها ودفعت الباب. لقد تردّدت إلى هذا المكان مذ كنْتُ في سنّ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. ولن أترك الشيخ نور الدين يفسد عليّ ذلك.

كان الرجل جالساً خلف مكتبه. رفع رأسه نحوي. رأيت على وجهه الدهشة المشوبة بالحقد، أو الاحتقار الممزوج بالشفقة. توقّعت أن يشتمني. تصوّرت أنّني أطلب المغفرة منه، وأنّه سيسامحني وسنستعيد حواراتنا كما في السابق. لم ينبس بكلمة، وحدّق إليّ مقطّب الحاجبين. ظلّ على صمته متأمّلاً بلاهَتي، وساعياً إلى تضليلي في متاهة جبني بالذات. شعرتني حقيراً، منسحقاً تحت وطأة خجلي، عاجزاً عن الكلام، غير قادرٍ على إخراج المغلّف الذي حضّرته بسذاجة وضمّنته الدراهم لأسلّمه إيّاه.

تمتمت بعض الكلمات، صباح الخير، عذراً، واختنق صوتي. انقلبت على أعقابي وهربت مرّة أخرى، هربت من أمام نفسي. غادرت المكان مهروِلاً. ثمّة أشياء لا تعوّض. على أيّة حال لا شيء يعوّض. خلتُه سيلحق بي قائلاً: «عُدْ يا صغيري»، لكنّ ذلك لم يحصل بالطبع. وعندما أعاود التفكير في ذلك اليوم أجد منَ المنطقيّ تماماً ألا يَكِنّ صاحبُ المكتبة لفتى ضائع مثلي إلا الحقد، الفتى الذي اختار الهراوة والشيخ نور الدين؛ ليس بوسعه الإشفاق عليّ. كنت أمشي مسرعاً باتّجاه مقرّ الجماعة، وكان شعوري بالذنب يتحوّل إلى عدائيّة، ورحت أشتم في قلبي الرجل المسكين. ما الذي دهاني للعودة إلى هناك، لعنة الله عليّ، وسالت دمعتا غضبٍ صغيرتان من مقلتيّ. وفجأةً رأيت دخاناً يتصاعد في الليل، دخاناً كثيفاً، أبيض، ممزوجاً بنتف رماد بعثرتها الريح. كانت أبخرة مشحونة تثقل هواء الربيع. عبّت رائحة حريقٍ حلقي. وعند وصولي إلى زاوية الشارع، ورؤيتي الحشد وشاحنات الإطفاء، عندئذٍ فقط أدركت أنّ مركز «جماعة نشر الفكر القرآني» يحترق. كانت ألسنة اللهب المرتفعة بضعة أمتار تخرج من النوافذ متطاولة على الطابق العلوي من المبنى فيما طفق رجال الإطفاء يرشّون بخراطيم الماء الفتحات المشتعلة التي كانت تقذف أطناناً من فُتات الورق المحترق نصفه، وفيما سعت فرقة من الدركيّين إلى إبقاء الحشد قدر الإمكان بمنأى عن الكارثة. أخذت مئات الكتب تتطاير في الهواء مستبيحة الفضاء حتّى العرائش[١٦] أو طريفا[١٧]. تخيّلت الأغلفة تذوب،

---

(١٦) العرائش مدينة مغربيّة تقع في جهة تطوان.

(١٧) طريفا مدينة تقع في الأندلس جنوب إسبانيا.

والنّار تلتهم الصفحات المتراصّة في المؤلّفات المكدّسة التي سيكون مآلها إمّا الدّمار وإمّا نقل عدوى الدّمار إلى جوارها. كنت أذكر جيداً محتويات الغرفة: هنا بالقرب من هذه النافذة بالذات كتب «رائدات الإسلام» و «الجنس في الإسلام»، وكلّ الكرّاسات الصغيرة، وهناك الأمتار المكعّبة المخصّصة لتفاسير القرآن، وفي الوسط تحديداً على السجاجيد الاصطناعيّة التي لا بدّ وأنّها ذابت، صناديقي من الكرتون التي وضعت فيها روايات «السلسلة السوداء» والتي تطايرت هي أيضاً، روايات مانشيت وبرونزيني وماكبين وإيتزو، وتطايرت معها كلّ قمصاني الجميلة، وأحذيتي الرائعة، والكريمات، ودهان الأحذية، وكريم تصفيف الشعر. وإذا لم يتوصّل رجال الإطفاء في وقتٍ قليلٍ إلى السيطرة على ألسنة اللهب، فستنفجر قارورة الغاز في المطبخ، وتلك التي في غرفة الاستحمام مبدّدتين في الفضاء كلّ ما تبقّى من مؤسّسة الشيخ نور الدين.

حضر الجيران، تعرّفت إليهم. كان أحدهم في ثياب النوم، وقد رمى بطانيّة طوارئ من اللون الفضي اللامع على كتفي زوجته التي خرجت في ملابس خفيفة على ما يبدو. مكث البعض صامتاً، حزيناً فيما راح البعض الآخر يزعق ويؤشّر مثل غريق على شفير الهلاك. كان يشقّ على رجال الإطفاء التحكّم بالأدب المستحيل وقيداً لألسنة النار.

بعد ثلاث دقائق من التأمّل المتشائم المذهول، اعتراني الخوف فجأة فانحدرت من التلّة باتّجاه وسط طنجة. كان الحيّ كلّه يعرف أنّني أمين المكتبة التابعة لجماعة نشر الفكر القرآني. لا شكّ أنّ رجال الشرطة سيهبّون للبحث عنّي، لا سيّما إذا كانت الجماعة،

كما تصوّرت، على علاقة من قريبٍ أو من بعيد باعتداء مراكش. لم يكن لديّ مكان أذهب إليه. والأشياء الوحيدة التي كانت في حوزتي: حقيبة تحوي حاسوباً محمولاً، ومالاً، وكتاب «الخبز الحافي» لمحمد شكري الذي أهدتني إيّاه جوديت والذي كنت أخذته معي لأقرأه في الباص.

على أيّ حال، وفّرت على نفسي الاهتمام بصناديقي الكرتونيّة: ربّ ضارّة نافعة. وكما يقول النبيّ: عندما تستعدّ للسفر، أحكم السفينة فإنّ البحر عميق وأكثر الزاد فإنّ السفر طويل. كان مركز الجماعة يحترق، ومعه يحترق كلّ ما أملكه. لم يتبقّ لي إلا أهلي. لأيّام خلت، وبرغم المشاجرة مع أخي، كنت أرغب جدّاً في رؤية والدتي. لكن ليس اليوم. لا أملك الشجاعة للقيام بذلك. تراجعت نسبة الأدرينالين في دمي شيئاً فشيئاً، وغفوت في الباص الذي كان يقلّني إلى وسط المدينة. شعرت فجأة بالإرهاق، وبالعجز عن التفكير؛ سيّان لديّ معرفة سبب الحريق أو مسبّبه. انحدرْتُ جهة السوق الكبير وقد اعتراني شيء من الذهول. أيّ يوم غريب هذا! أمّا الآن فعليّ أن أجدَ مكاناً أنام فيه. تردّدت في اتّخاذ غرفة في الفندق نفسه حيث تنزل جوديت. منَ التهوّر أن تجدني نزيل الغرفة المجاورة عند وصولها إلى طنجة. كما أنّني لست أكيداً من أنها ستقيم في الفندق نفسه. الأمر محتمل لكنّه غير أكيد. اخترت نزُلاً آخر، على مسافة غير بعيدة، في أسفل الشارع باتّجاه المرفأ. نظر إليّ صاحب النزل كما لو أنّني مصاب بالبرص. أن يكون المرء مغربيّاً في مقتبل العمر وغير حاملٍ حقيبة، فثمّة ما يدعو للعجب. لذا اشترط عليّ أن أدفع ثلاث ليالٍ مسبقاً مردّداً على مسامعي مرّات عدّة أنّ هذه الحجرة الصغيرة مكان محترم.

لم تكن الغرفة سيّئة بشرفتها الصغيرة من الحديد المطروق ومشرفها الجميل على المرفأ وسطوح المدينة القديمة، كما وأنّها كانت مزوّدة بالواي فاي. بحثت على الإنترنت علّني أجد أخباراً عن الحريق. لا يبدو أنّه حدث أساسي إذ لم يورد أحد ذكره حتّى الآن.

أرسلت رسالة إلى جوديت، ثم خرجت لأشتريَ بعض الملابس وأتناول شيئاً من الطّعام.

كنت مستعدّاً للرحيل: لم يعد لديّ عائلة منذ ما يُقارب السنتين، ولا حقائب منذ ساعتين. اللاوعي ليس له من وجود، ليس هنالك إلاّ بقايا معلومات، خرق ذاكرة لا أهمّيّة لها، شذرات أشبه بتلك الشرائط المثقبة[١٨] التي كانت تتغذّى منها الحواسيب. ذكرياتي قصاصات من ورق مرميّة في الهواء، مبعثرة، مرتّقة، ثم ما لبثت أطرافها أن التحمت من جديد لتّتخذ معنى جديداً. الحياة آلة تنتزع الكائن فينا، تجرّدنا منذ الطفولة لكي تُعيد بناءنا مغرقةً إيّانا في بحر من العلاقات والأصوات والرسائل التي تجعلنا في تحوّل لامتناهٍ ما دمنا في حركةٍ دائمة؛ وتلك الصورة الفوريّة لا تُصدر إلاّ رسماً شخصيّاً فارغاً، وأسماء، أو بالأحرى اسماً وحيداً ومع ذلك متعدّداً يُسقطُونه علينا ويصنعنا. أن يدعوني «مغربيّاً»، أو «موريّاً»، أو «عربيّاً»، أو «مهاجراً»، أو باسمي. سمّوني إسماعيل مثلاً أو أيّ شيء تريدون- وسرعان ما يُهشّمني جزء من الحقيقة. انظروا إليّ راكضاً في طنجة، مغفّلاً، غير دارٍ بما احترق مع حريق مركز

---

(١٨) شريط مثقب: شريط من ورق أو من بلاستيك تسجّل عليه الأرقام والكلمات بشكل ثقوب.

الجماعة لنشر الفكر القرآني، متشبّثاً بالأمل في رؤية جوديت، وبمهنتي الجديدة وكأنّهما آخر مركبين على الرملة. أحياناً أشعر أنّني أستعيد سيّئات وأفكار ذاك الذي كنته. ولكن هذا وهْمٌ بالطبع؛ هذا الشاب الذي يشتري قميصين أسوَدَين، وسروالي جينز، وتيشرتات وحقيبة هو مزيّف، كالملابس التي يقتنيها. كنت أعتقد أنّ العنف الذي يحيط بي لا يمسّني، لا علاقة له بي، لا تأثير أو سطوة له عليّ، كذلك العنف الدائر في طرابلس الغرب أو القاهرة أو دمشق. كنت أعمى البصيرة لا أفكّر إلاّ في وصول جوديت، وبهذه الأبيات الشعريّة لنزار قباني الممعنة في عاطفيّتها، التي كنا نُعيد نسخها في المدرسة، ونبعثها في رسائل سريّة لفتيات يحرّكن مشاعرنا، كتلك التي تلوتها سابقاً على مسامع مريم فيمّا كنّا نتأمّل المضيق: «عيناك آخر مركبين يسافران فهل هنالك من مكان»، ولم نكن نجرؤ على إمساك أيدينا، وخصوصاً ما يتبع: «إنّني تعبت من التسكّع في محطّات الجنون، ظلّي معي». كانت عينا جوديت، آنذاك، كما كان يقول هذا الشاعر للنساء، «آخر مركبين يسافران». أذكر، كانت مريم قلقة وخائفة من علاقتنا، خائفة من تبعاتها، خائفة طيلة الوقت، خائفة ممّا يمكن أن أسبّبه لها. لم تكن تعرف ماذا تفعل حيال هذا الحبّ المراهق. كانت تتردّد في اللجوء إلى أمّها التي كانت، هي نفسها، غير متزوّجة بقريبها اللزم. وأذكر ذات يوم فيما تملّصت من بسّام لأذهب لموافاتها، بعيداً عن الحي، قالت لي إنّها تخشى أن أتركها وأهاجر، فحاولت عندئذٍ طمأنتها مستعيناً بأشعار نزار قباني، والحقيقة، فيما لو كانت موجودة، هي أنّني أهملتها، واستخففت بها. اهتممت أكثر بإشباع رغبتي ومتعتي، بتجريدها من ثيابها وملامستها. ثم أدركت في نهاية المطاف، بعد أن قرأت

رسالتها الأخيرة طيّ الظرف القديم المجلوب من عند بسّام، أدركت أنّني كنت مسؤولاً عن موتها، هناك، في هذه القرية الضائعة، وعن نزيفها جرّاء إجهاض بدائيّ أجري سرّاً لأنّني لم أستجب ليأسها، ولا ليأس والدتها. مريم التي ماتت حزناً بعد بضعة أسابيع، في جنّة المغرب تلك، المغرب العصري حيث نظريّاً لا تنزف أيّ امرأة حتى الموت، ولا تنتحر أبداً، ولا تتعذّب ولا توسع ضرباً من أيّ ذَكَرٍ، لأنّ الله والعائلة والتقاليد مجتمعين يسهرون على النساء ولا شيء يمكن المسّ بهنّ إذا كنّ محتشمات، فقط إذا كنّ محتشمات، على حدّ قول الشيخ نور الدين الذي كان هو أيضاً يعرف الحقيقة، كما تبلّغها جميع أهل الحيّ، وبسّام في المقدّمة. عندما علمت أنّه لم يعد بإمكاني التخلّص من هذه الحقيقة الكريهة، الواضحة مثل رقم على ورقة نقدٍ، الدقيقة المرئيّة مثل النحلة التي تمتصّ زهرة الزعفران على قطعة العشرة سنتيم الجديدة التي كنت أردّها مع كل كتابٍ أبيعه. عندما الموت الجامد الثابت، جمود وثبات هذه النقود، أمسكني من أذني ليقول لي اسمع يا صاحِ، لقد فاتك حدث، منذ ثمانية عشر شهراً تعيش وأنت تتجاهلني... كان يجب أن يُقوّض العالم تماماً، عالمي بالذات، لكي لا أنهار نهائيّاً بعد هذا الانفجار. كان يجب أن تكون جوديت إلى جانبي لكي لا أستسلم للبكاء المرّ بعد تلاشي حالة الذهول: كلّ ما حصل يؤكّد حدسي إذ كنت أعرف الحقيقة، جسدي كان يعرفها، أحلامي كانت تعرفها، حتى لو كنت في تلك اللحظة، لحظة موت مريم في أبعد جبال الريف، أُضربُ في أحد مخافر الدار البيضاء أو أتسوّل تفاحة من السوق. بعد انجلاء معناها، تغدو كوابيسي أكثر إيلاماً، وأشدّ وضوحاً، وأثقل وطأة. تضاءل يقيني وازداد وعيي تشوّشاً، وامتلأ

بالحسرات وبهذا الإحساس الراعب الذي أبكاني دموع الألم المعيب: الإحساس بأنّني مارست الحبّ في الحلم، ولأشهرٍ، مع ميتة، مع مريم المتحلّلة في النعش آكل اللحم فيما كنت أراها حيّة تُرزَق على مرّ الفصول. كانت ترافقني فيما هي ميتة. رأى قلبي الفتيّ في هذا الغموض والانغلاق خيانة مقرفة، وسفالة تتخطى بدناءتها مسؤوليّتي في موتها، وحقداً ينصبّ على بسّام، وعائلتي، وعلى كلّ هؤلاء الذين حالوا دون بكائي على مريم، وأرغموني على اشتهائها ميتة- كمن يسحب بهدوءٍ الكفن عن جثّة امرأة ليعاين نهديها. كانت مريم ممدّدة على طاولة الرخام وكنت أحلم ببطنها وبعانتها الباردة. العار كان هنا، هنا، في هذا الانزلاق للوقت؛ الوقت امرأة قبّارة، امرأة ترتدي الأبيض وتغسل جثث الأطفال.

ابتعت لنفسي قمصاناً وأنا محنيّ الظهر، أستشعر كارثة، دون أن أدري أنّها وقعت. خلت أنّ الحريق سبب اضطرابي، أو مجيء جوديت، أو اعتداء مراكش أو اختفاء بسّام، ولم أعرف أنّ الأخطر كان كامناً هنا. تردّدت طويلاً في شراء بيجامة، على رجاء أنّ تراني جوديت فيها. إلا أنّني تذكّرت بحزن عابر طفيف المرأة الوحيدة التي رأتني عارياً، ولم أعرف أنّها ميتة.

كانت السهرة أطول من كلّ سابقاتها.

في الوحدة والانتظار.

أطلت المكوث أمام الإنترنت لعلّني أجد خبراً ما عن بسّام أو الشيخ نور الدين، أو جوديت، أو العالم، أو ليبيا، أو سوريا. كان الحريق مدمّراً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. خرجت للقيام بجولة؛ الليل دافئ، وفي المدينة حشد من الناس. تعرف طنجة في الربيع كيف تكون باعثة على القلق ومنذرة بالخطر. كلّ شيءٍ انقلب عليّ.

بقيَت رائحة الحريق متغلغلة في منخريّ وحجبت رائحة البحر. كان الشبّان يمشون ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة وهم يهزّون أكتافهم، وقد بدا عليهم الاضطراب. عند منعطف أحد الشوارع، رأيت شابّاً في مثل سنّي انتابته حالة شبه جنونيّة وراح يصبّ جام غضبه على شجرة موضوعة في حوض، ثم رماها أرضاً مطلقاً الشتائم دون سبب. ثم رأيت صاحب أحد المحال يخرج بسرعة ليهاجمه بِدَوره موجّهاً إليه اللكمات فانبجس الدم على تي شرته الأبيض. وضع الشابّ يده على وجهه منذهلاً ثم ولّى هارباً وهو يصرخ. كانت الشجرة، على ما أذكر، شجرة برتقال أو حامض نبتت فيها أزهار صغيرة بيضاء. أرجعها صاحب المحلّ إلى مكانها في الحوض وهو يداعبها وكأنّها امرأة أو طفل، ظننته أيضاً يتحدّث إليها.

كنت على مسافة خطوتين من المكتبة الفرنسيّة. دخلت إليها؛ نظرت قليلاً إلى مجموع الرفوف. كانت هذه الكتب الجادّة تبعث على الرهبة، غالية الثمن ومرهبة، يتردّد المرء في فتحها لئلا يلطّخ أغلفتها البيضاء ويفسد تجليدها. خُصّصت زاوية للأدب الطنجي، وكان الكتّاب الذين ذَكَرَتْهُم جوديت هنا كلّهم: بولز، وبورّوز، ومحمّد شكري بالطبع، وأيضاً كاتب إسباني اسمه أنخيل فاسكيز وعنوان روايته **العيشة الكلبة لخوانيتا ناربوني**- علماً أنّني كنت أبحث في الكتب عن نسيان عيشتي الكلبة أنا بالذات، ونسيان طنجة. كما وجدت زاوية «الروايات البوليسيّة» وبينها كتب ضخمة بدت لي ذات حجم هائلٍ، لا يتناسب مع رواياتي القديمة من «السلسلة السوداء» التي احترقت، ومثيرة للرهبة على غرار الروايات الجادّة. خرجت حزيناً بعض الشيء لأنّني لم أحظَ بصحبة كتابٍ مجهولٍ قادرٍ على تغيير سير الأشياء وإعادة النظام إلى العالم.

شعرتني منعدم الحجم إزاء الأدب الحقيقي. انحدرت نحو البحر وأنا أفكّر في بسّام؛ تُرى هل كان حقاً متواطئاً وشريكاً في اعتداء مراكش، هل سأراه ثانية.

كانت لافتات الحانات تومض لي. جلس بعض الرجال على الكراسي ليتنعّموا بالربيع. كانت سحناتهم أشبه بالمهرّبين. لم أشعر يوماً أنّني بعيد عن مكاني كما شعرت آنئذٍ، لا في برشلونة حتّى، ولا في باريس أو نيويورك. انبعثت من هذه الشوارع رائحة تشي بالمحظور في المساء الخطير. ألفيتني بعيداً جدّاً عن حارات طفولتي، أبعد ما يكون عن هذه الطفولة التي خرجت منها بالكاد، وأعادتها الشوارع الصغيرة المنحدرة إلى ذاكرتي بسببٍ من اختلافها الجذريّ عنها. تساءلت عمّا إذا كنت سأجرؤ على الدخول إلى إحدى هذه الحانات ذات الأضواء الحمراء التي تنبعث منها رائحة السجائر، والرغبة، والتخلّي الربّاني، أو إذا كنت سأبلغ يوماً السنَّ التي تؤهّلني للدخول إلى هذه الأمكنة. على أيّة حال لديّ القليل من المال، ورغبة قويّة في تناول بعض الشراب، أو ربّما في التحدّث إلى أحدهم. كنت أثمّن الكحول للصورة التي تضفيها عليّ، صورة شخصٍ قاسٍ، ناضج، لا يخشى غضب والدته ولا غضب الله، كهؤلاء الذين كنت أودّ التشبّه بهم، أمثال مونتال[١٩] التحرّي المغمور، ومارلو[٢٠] التحرّي الخاص، ورجال الشرطة في الروايات السوداء. لماذا نتشبّث بهذه الصور التي تصنعنا، بهذه

---

(١٩) فابيو مونتال: من شخصيّات الروائي الفرنسي جان كلود إيزو في ثلاثيّته البوليسيّة السوداء.

(٢٠) فيليب مارلو: من شخصيّات الروائي ريمون تشندلر، تحرٍّ خاص تأتي شخصيّته في المقام الأوّل في أدب الجريمة.

النماذج التي تُقَوِلِبنا وتقدر على تحطيمنا فيما هيَ تصنعنا، إنّها هويّتنا المتحرّكة دوماً، الكائن المتشكّل فينا إلى الأبد. لا بدّ أنّي شعرت بوحدةٍ هائلة في ذاك المساء ما حدا بي للدخول إلى حانة صغيرة ضيّقة اسمها «أل بيراتا» التي يبدو أنّ لافتتها الكستنائيّة المنجردة قد عرفت الأزمنة المجيدة للنظام العالمي. كانت مديرة الحانة سيّدة ملّست شعرها الأجعد وصبغته بالأشقر البلاتيني.
راحت تراقبني متسائلة على الأرجح عمّا إذا كنت في سنّ تسمح لي بارتياد المكان. ألقيت التحيّة. جلست أمام طاولة الشرب على مقعد دون مسند وطلبت بيرة. نظرت إليّ المرأة وكأنّها تريد تأنيبي، لكنّها قدّمت لي الشراب. تراها تتساءل كيف استطاع شاب ساذج مثلي الوصول إلى هنا بمفرده، أو ربّما لم تكن تتساءل شيئاً البتّة. ولم تنقضِ خمس دقائق حتى خرجت فتاة من خلف الستارة، كانت نحيلة كخيطٍ باترٍ، وساقاها شديدتي الهزال في جواربها السوداء، ووجنتاها شاحبتين برغم الماكياج. اعتلت مقعداً إلى جانبي؛ دخلت إلى هذه الحانة، ويفترض بي أن أتعامل مع الموقف. أَوَلَمْ أدخل إلى الحانة تحديداً لأجل هذه الغاية، لأتحدّث مع أحدٍ ما، مع ساقية أو عاهرة ما همّ. وبخلاف شخوص رواياتي، أشحت بنظري عنها، وقد استبدّ بي بعض الخجل. كانت الفتاة تدعى زهرة، هذا على الأقل ما قالته. على وجهها وشوم، وشفتاها رقيقتان، ورائحة الياسمين تنبعث منها. وتحت العطر، تفوح من ملابسها رائحة بخور الأرز الذي يطيّب الصالون الذي ساقتني إليه بعد عشر دقائق، وفيه أريكة خضراء يلتمع قماشها البالي تحت مصباح مِلحيّ شحيح النور. جلست زهرة وفكّت أزرار قميصها كاشفة عن حمّالة نهدين بيضاء بدانتيلا مرتخية، ونهدين منمنمين

بحلمتين قاتمتين جدّاً. قالت لي أعطني مئتي درهم. أتاح لي التفتيش في جيوبي بأن أشيح نظري عنها قليلاً. أعطيتها المال فوضعته تحت وسادة الديوان. فرجت ساقيها رافعة تنورتها لتريني عضوها المحلوق الحادق السواد، المتناسب مع حاشيتي الجوارب التي تعترض ساقيها الناحلتين كقصبة. تنازعني الخجل والرغبة في آن. أشارت لي بالاقتراب، لم أتحرّك. تمتمَتْ: تعال، لا تخف، وأمسكت بيدي لتلصقها بصدرها وهي تداعب باطن ساقيّ. كان لهاثها يغمر بطني. بدأت تحاول فكّ حزامي. تراجعت خطوة وأنا أدفعها. نظرت إليّ بطريقةٍ غريبة. إنّه الخجل الذي انتصر على الرغبة في النهاية. خرجت. قالت السيدة خلف البار ضاحكة: «انتهيت؟» لم ألتفت.

كان الشارع مقفراً، وكنت حائراً بعض الشيء وقلبي يخفق. يوم قذر. فكّرت لِبرهةٍ في مريم، ثمّ في جوديت وأنا أمشي باتّجاه النزل.

غداً يوم آخر.

حاولت أن أقرأ قليلاً في رواية «الخبز الحافي» ولم أستطع. كانت صور فرْجِ زهرة تنحشر بين الكتاب وبيني. وبقيَتْ طويلاً في الليل، طويلاً بعد أن أطفأت الضوء.

إبّان شروعه في رحلة تجواله عام ١٣٣٥، أي في اللحظة التي كان يستعدّ فيها لمغادرة طنجة باتّجاه الشرق، أتساءل عمّا إذا كان ابن بطوطة يؤمّل النفس في الرجوع يوماً إلى المغرب أم أنّه اعتقد أنّ منفاه نهائيّ. أمضى عدّة سنواتٍ في الهند وفي جزر المالديف، في خدمة سلطانة عيّنته قاضياً، وهذا بالطبع لسعة علمه وإتقانه العربيّة. وهناك تزوّج بابنة الوزير. عند مغادرته الأرخبيل، وبعد مروره بمدينة حيث للنساء ثدي واحد، التقى رجلاً يسكن وحده مع عائلته في جزيرة صغيرة، وغبطه على عزلته. كان للرجل، على حدّ قوله، «نخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير إلى حيث أراد من الجزائر». ويضيف ابن بطوطة قائلاً «فغبطت والله ذلك الرجل، وودت أن لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين». إلى أن عاد إلى المغرب في نهاية المطاف، وأظنّه أنهى أيّامه في صومعة دراويش حيث وجد الطمأنينة عبر كتابته قصة أسفاره ربّما، أو روايته أخبار مغامراته فيما وراء البحار لمن يرغب في سماعها. لا أذكر أنّه تطرّق في ذكرياته، بالشكل الذي وصلت به إلينا، إلى العاهرات. كان لدى ابن بطوطة إماء ومغنّيات، وبعض النساء الشرعيّات اللواتي تزوّج بهنّ، فيما أنا،

حين ذهبت لاحقاً إلى برشلونة، وعشت وسط العاهرات واللصوص، ودخان الحاويات المشتعلة، وبين هراوات رجال الشرطة المعتمرين خوذات، أعترف أنّ وجه زهرة الناحل وفرجها بعثا فيّ ندماً ملتبساً، وكذلك حسرة وحزناً أزيدهما على حسراتي وأحزاني. كان شبابي يقول لي أيّ نوعٍ من الرجال أنت إذا كنت غير قادرٍ على التمتع بامرأة دفعْتَ لها مالاً ووهبتك ما بين جواربها السوداء، فرجها الخشن المزغب. لأكثر من مرّة، تردّدت في إعطاء عشرين أو ثلاثين أورو للعاهرة التي لا تفارق عتبة المبنى المجاور لمنزلي، في الرافال[٢١]، وفي الصعود معها إلى شقّتي فقط لكي أستعيد اعتباراً وثقة بنفسي سلبت قسماً كبيراً منهما زهرة النحيلة وضحكة قوّادتها. لحسن الحظّ أنّني كنت بمفردي في ذاك المساء، في طنجة. لم أكن لأستحسن قطّ أن يهزأ بسّام منّي وهو يراني أهرب بعد دقيقتين بقياس الزمن من الغرفة الصغيرة ذات الأريكة الخضراء. الرجال كلاب يتمسّحون في الوحدة، ووحده الأمل برؤية جوديت كان يلتمع في عتمة البؤس، برغم خجلي، وذكريات مريم التي تطاردني، شعرت أنّني على الأرجح سأرتعد قبل أن أقبّلها، وسأرتجف قبل مضاجعتها فيما لو الفرصة سنحت بذلك. وكلّما كان هذا السراب يقترب - إذ إنّ بضع ساعات فقط كانت تفصلني عن عودتها إلى طنجة في تلك الصبيحة الباكرة على شرفتي حيث كنت أقف وحيداً - ازداد خوفي. كانت أحداث الأيّام الأخيرة تدور في رأسي، وشذرات الكوابيس تصبغ بالحمرة أبخرة الضباب فوق المضيق.

---

(٢١) الرافال : حيّ شعبي من أحياء برشلونة.

كان حريق مركز الجماعة يشغل بالي. وكنت أتساءل كم من الوقت تبقّى لي قبل أن يعتقلني رجال الشرطة.

بدوت لنفسي فارّاً من وجه العدالة.

برغم عملي الجديد، والمال المقدّم الذي كان في حوزتي، شعرت بأنّي حائر قلق، ومعدَم الحيلة كما كنت إزاء زهرة عشيّة البارحة. كان ثوب العمر فضفاضاً عليّ، ينقصني أمّ وأخ وأب، وشيخ، مثل الشيخ نور الدين، وأيضاً بسّام.

كان مجيء جوديت مصيبة حقيقية.

ربّما لم يكن يجدر بي الذهاب لانتظارها في المحطّة سعياً لمفاجأتها، ولا إرهاقها بالكلام، ولا التصرّف كما لو أنّنا على علاقة حميمة، فيما هذه العلاقة غير موجودة أصلاً - أخذتني العجلة. وعلى طريقة بسّام، غير عابئ بما أمكنها مقاساته في مراكش، اختلقت بمفردي وعلى وجه السرعة قصّةً غير موجودة. كانت جوديت تراني وفق ما أنا عليه، شاباً مجهولاً يعانقها بقوّة. ربّما خافت. قالت لي إنّ الجوّ كان مرعباً بعد الاعتداء في تلك الساحة المفعمة بالحيوية حيث كان الجميع يتصرّف وكأنّ شيئاً لم يكن؛ فجّأة أوقف الموت بِلجمةٍ واحدة الآلة الكبيرة التي كانت تسحر السيّاح.

قالت لي أتعرف، رأيتُ في مراكش صديقك بسّام الذي كان برفقتنا في ذاك المساء عشيّة رحيلنا.

قالت لي ذلك وهي تنظر في عينيّ. لم أكن واثقاً من أنّها تخمّن فعلاً معنى هذه المصادفة. على أيّة حال، يستحيل تخيّل الأمر. يستحيل التفكير في أنّها صادفت، بعد ساعاتٍ قليلة، أحد هؤلاء الذين فجّروا القنبلة في ذاك المقهى. أنا نفسي، رغم كلّ

الدلائل المتوفّرة لديّ، عجزت عن تصديقه. لا يعقل أن يكون هذا الاعتداء قد حصل فعلاً فيما يتعدّى الصور على التلفزيون. في الواقع، كان مستحيلاً أن يشارك بسّام فيه دون أن يطلعني على الأمر بشكلٍ وافٍ.

لم تقل جوديت «أمر غريب أن يكون في مراكش فيما رأيناه عشيّة سفرنا ولم يجرِ على ذكر سفره».

رافقتها حتى النزل الذي تقيم فيه. ظلّت جوديت متحفّظة. بالكاد فتحت فمها أثناء المسير. حاولت طيلة الوقت أن أملأ الصمت بالحديث، وهذا لم يكن إطلاقاً بالفكرة الجيّدة. بدا أنّ ثرثرتي تزعجها أكثر وترغمها على التزام الصمت.

أحياناً نشعر أنّ الأمور تفلت عن سيطرتنا، وأنّ الأشياء تخرج عن إرادتنا. يتولانا الخوف بدلاً من التروّي والسعي إلى تفهّم الموقف. نتصرّف مثل كلب عالق في شريط شائك فيتخبّط بجنون حتّى يتمزّق صدره.

انبثق غضبي من الهلع، وكان مرادي فقط التغلّب على جفاء جوديت. اتّخذت من هديّتها، رواية محمد شكري، هدفاً لي، ولم أقرأ منها إلا خمس صفحات فقط.

قلت:

- هذا الكتاب معيب. كيف بإمكان مسلم مغربي أن يكتب أشياء مماثلة.

لم تُجب جوديت بشيء. وصلنا إلى ميدان السوق الكبير موشكين على اجتياز بوّابة المدينة القديمة. رمقتني فقط بنظرة محتشمة شعرت وكأنّها صفعة هائلة.

واستغرقت في خطبة بلهاء عن هذه الرواية التي لم أقرأها، وعن كاتبها هذا الرجل البائس، المتسوّل الأميّ، المنحطّ. كلّما أتفوّه بسخافة، أشعر أنّني أغرق وأتهاوى في بحرٍ من الحماقة فيما تمشي جوديت الفاتنة أبداً على وجه الماء. تصبّب العرق منّي وأنا أجرّ حقيبتها النقّالة، وأخيراً رأيت أنّه لم يكن لديها حقيبة ظهر بل حقيبة لعينة بدواليب، وبصفتي فارساً طيّباً خدوماً، طلبت منها أن أجرّها بنفسي. رحت ألهث تعباً غير قادرٍ إلا على مواصلة خطابي الذي أصبح متقطّعاً. ثمة أفكار كثيرة في رأسي لكنّ أمواج حركاتي غير المتناسقة تبعد عني خشبة الخلاص. شعرت أنّ لديها رغبة واحدة وهي الوصول إلى فندقها للتخلّص مني، ونسيان الرحلة الطويلة في القطار، ونسيان مراكش، ونسياني، وركوب طائرتها، وفي أعماقي، هناك في صميم أعماقي كنت أعرف أنّها محقّة. أردت أن أبدو مهمّاً وهاوي أدب، فتابعت خطابي، مواصلاً إطنابي ومستعرضاً ذكوريّتي. قلت لها: عليك بالأحرى قراءة المتنبّي أو الجاحظ. هذا هو الأدب العربي الحقيقي، محمد شكري ليس للفتيات. أطلقت رصاصة ليس في قدمي فحسب، بل في رأسي أيضاً. هذه المرّة، وشت نظرة جوديت باحتقار مطلق. قالت شاردة: نعم، نعم. ولو كنت شجاعاً قيد أنملة لرميت الحقيبة، وتوقّفت، وأطلقت شتيمة هائلة ثم اعتذرت قائلاً: لننسَ كلّ شيء ونعاود كلّ شيء من البداية، وكأنّني لم أقل شيئاً، وكأنّني لم أكن مهووساً بك، وكأنّ شيئاً لم يحدث في اليومين الأخيرين، وكأنّ شيئاً لم ينفجر في مراكش، وكأنّ الحرائق لا تدركنا.

قلت ارتجالاً:

- بيتي احترق البارحة.

التفتت بوجهها صوبي دون أن تتوقّف عن المسير.

- بجدّ؟

ما عدت أعرف ماذا أقول. كان عليّ أن أضيف البارحة ذهبت إلى العاهرات دون أن أتمكّن من مضاجعتهنّ. بدأت عيناي تحرقانني، جرّاء العرق ولا شكّ. شعرتني طفلاً ضائعاً يطلب المعونة من أجنبيّة مجهولة.

- ما الذي حدث؟

- لا أعرف، كلّ شيءٍ احترق. واستأجرت غرفة في نزل.

تقول عيناها إنّه يَشقّ عليها تصديقي. وفجأة رأيت حرج موقفي: لا عائلة لديّ ولا منزل؛ كنت وحيداً في طنجة، في مدينة تسير على غير هدى.

- إنّها قصّة طويلة.

- لا شكّ في ذلك.

نظرت قُدماً أمامها. بدا لي أنّها تسرع الخطى.

من المؤكّد أنّ أصل المصيبة كلّها هي الخطيئة الأصلية: تجريد مريم من ثيابها. ولكن يبدو لي الآن أنّ الأمر أشبه بمؤامرة عالميّة، أو بانمساخ مخيف كالأطفال المشوّهي الخلقة من أولي القربى.

- وصلنا.

كان هناك ارتياح في هذه الكلمات الملفوظة بالإجماع؛ شدّت جوديت يدها على الحقيبة التي كنت أمسك بطرفها الآخر، وكأنّها تخاف أن أحملها معي.

- شكراً على مجيئك إلى المحطة لاصطحابي، هذا لطف منك.

بدت صادقة، صادقة ومنهكة.

- لا شكر على واجب. هذا بديهي.
- إلى اللقاء إذاً.

قلت إلى اللقاء بِدَوري. لم أمدّ يدي لمصافحتها ولا قرّبت خدّي، ولا شيء من هذا القبيل، وانصرفت.

لا بدّ أنّني كنت منهكاً تماماً أنا أيضاً، متداعياً ومنهاراً نفسيّاً، لأنّني بدأت بالبكاء. شرعت أبكي في الشارع. أصبح الحريق في العينين أشدّ إيلاماً. شعرت برطوبةٍ على خديّ كتلك التي يحدثها نزيف الأنف في الطفولة، نمسحه فنفاجأ بأنّ يدنا مغطاة بالدم. وبالطبع لم أكن أنزف دماً، بل كان هذا ماء، دموعاً تنداح على وجنتيّ حاولت عبثاً تجفيفها بأكمام قميصي، عبثاً. راحت تنهمر من جديد، وأكثر غزارة. خجلت من بكائي هكذا كالأطفال في الشارع. صعدت أدراج فندقي أربعاً أربعاً وصفقت الباب خلفي. أقفلته بالمفتاح وغسلت وجهي بالماء، عبثاً. تواصل شهيقي كطفلٍ صغير. تهاويت على سريري، دفنت وجهي في الوسادة لأخنق بكائي، ثم استسلمت للحزن. لا بدّ أنّني غفوت. أفقت بعد ساعتين، وكنت أشبه بملاكم بعد معركة غير متكافئة، متورّم الأجفان، محمّر العينين. إلا أنّني شعرتني أفضل حالاً: سآخذ حمّاماً ويزول هذا كلّه.

كان غلاف الرسالة المفتوح مرميّاً أرضاً إلى جانب سريري. رسالة بسّام القديمة التي تسلّمتها من والدته عن طريق الخطأ على الأرجح، المكتوبة على ورقة دفتر بمربّعات، مستهلّةً بالعبارة التالية: هذه رسالة لك يا أخي إنّا لله وإنّا إليه راجعون بسم الله الرحمن الرحيم. وطيّها رسالة مريم التي كتبتها لأجلي واحتفظ بها بسّام طيلة هذا الوقت. لا بدّ أنّه تردّد في تمزيقها. عرفت لماذا لم

يسلّمني إياها؛ لئلا أدرك الحقيقة، لكي أظلّ جاهلاً حتّى نهاية الأزمنة ما حدّثني به قلبي عن مفارقتها الحياة، لا أجرؤ على القول إنّها ماتت، هاكم الحقيقة أمام عينيّ كاملة لا شائبة فيها. لقد حطّمْتُ الكون؛ غضبُ الله انصبّ عليّ، وسخطه الجبّار، سخطه الأعمى والعادل معاً، دمّر كلّ شيءٍ من حولي. وشعرتني ضئيلاً في غرفتي في الفندق، تائهاً في صميم هذا العالم. وعاودت البكاء على الشرفة ناظراً إلى المراكب البلهاء تعبر المضيق.

لا نتذكّر تماماً ما حصل لنا، ما حصل لنا حقّاً؛ نعيد، على مرّ الزمن، تشكيل ذكرياتنا. أنا اليوم شديد البعد عن ذاك الذي كنته بحيث بات مستحيلاً عليّ أن أستعيد بشكلٍ كامل الأحاسيس قوّتها أو الانفعالات عنفها. اليوم، يبدو لي أنّني لن أستطيع التصدّي لنوازل مماثلة، وأنني سأتحطّم إرباً إرباً إذ لا أحد بوسعه النجاة من ضربات قاضية كتلك.

كنت أكيداً من موت مريم لكن لم يسبق لها أن كانت نابضة بالحياة كما هي الآن وأنا أكشف عن صوتها في كتابتها، في رسالتها التي تشبه نداء استغاثة مدوّياً عبر ظلمات الصحراء، أو صرخة خارجة توّاً من مغاور هرقل[٢٢]، التي تفضي فوّهتها إلى الجحيم على الأرجح؛ يا لدناءة القدر. كانت تقول لي إنّها تحبّني، وتسمّيني حبّها، وإنّه يجب أن نتزوّج، وإلاّ فإنّها مضطرّة للتخلّي عن الطفل وإيداعه الميتم. كان يأسها أكبر من أن أستطيع تحمّله. أحرقت الرسالة داخل المغسلة في الغرفة. إنا لله وإنّا إليه راجعون، وأحرقت رسّالة بسّام. لن أعرف أبداً ما حصل هناك بين الحسيمة

(٢٢) مغاور هرقل: أكبر مغاور أفريقيا في طنجة. تمتد سراديبها ثلاثين كيلومتراً ونسجت حولها الأساطير.

والناظور. لن يعرف أحد ما حصل. شرح بسّام لي التفاصيل بخطّه الطفولي بكلماتٍ طبيّة غريبة. لم يقل شيئاً عن نفسه، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّه لكتابة مثل هذه الرسالة فلا بدّ أنّه كان مقتنعاً باختفائه هوَ أيضاً. وإلا فلماذا يقول لي الآن ما كان باستطاعته قوله البارحة مباشرةً وبصوتٍ عالٍ.

رحت أذرع أرض غرفتي. هبط الليل بهدوء. لففت سيجارة كيْفٍ ودخّنتها على الشرفة. أشعلت الحاسوب. وبحثت على الإنترنت مستطلعاً الأخبار عن اعتداء مراكش، وجماعة نشر الفكر القرآني؛ لا شيء جديد. ثمة تفاصيل، ومعلومات دقيقة عن القنبلة، ونوع المتفجّرات المستخدمة ولكن لم يجرِ توقيف أحد. كما وجدت خبراً صغيراً من سطرين عن حريق مفتعل في مكتبة دينيّة وتلف مئات الكتب. حريق مفتعل... كان أولى بالشرطة أن تتساءل إذاً عن سبب عدم ظهور أيّ عضوٍ من هذه الجمعيّة ثانية.

كان المؤذّن يدعو لصلاة العشاء.

وصلتني رسالة من جوديت تعتذر فيها عن سوء مزاجها منذ قليل بسبب التعب. إذا كنت راغباً في الذهاب إلى المقهى في السهرة واحتساء فنجان شاي، فبإمكاني المرور لاصطحابها من الفندق. الغريب في الأمر هو أنّه لم تعد لديّ رغبة. لم أعد أرغب في شيء.

ذهبت إلى المغسلة وغسلت طويلاً يديّ ووجهي وذراعيّ حتى المرفق وقدميّ. وضعت غطائي على السجاد، أدرتُه نحو القبلة وصلّيت. قمت بأربع ركعات دون أن أفكّر في شيء آخر سوى الله.

كان الليل هنا، وكان الليل يتأمّل الخطوط الناريّة التي تخلّفها المعدّيات الذاهبة إلى طريفا.

وأنا أتلو الفاتحة وأنطق بالآيات مجرّداً ذهني من كلّ فكرة، وأنا أردّد الكلمات المقدّسة، استعدت الهدوء.

كانت هناك قوّة حميمة في الصمت، غناء نفيس.

وانطوى ذلك في داخلي.

تلألأ الشاطئ الإسباني بأنواره على يسار قبلتي المرتجلة.

تساءلت عمّا إذا في حوزتي ما يكفي من المال لأتدبّر أمر عبوري خفية إلى إسبانيا. بتّ مقتنعاً أكثر فأكثر أنّ الشيخ نور الدين ترك هذا المال لي. وإلا يتعذّر تفسير الأمر بطريقة أخرى. لا شكّ أنّه أشفق عليّ. كان يعرف قصّة مريم المحزنة وقصّة امرأة عمي. وكان دوماً عادلاً وطيّباً معي. رجوت حقّاً ألا يكون الشيخ نور الدين أو بسّام على علاقة بانفجار مراكش. ولكن، لسوء الحظ، ما أمكنني رؤيته أنا نفسي من هراوات وسماعه من عظات لا يترك لي إلا أملاً قليلاً.

تُرى ماذا سأفعل في إسبانيا؟ هنالك عمّي الذي يعمل في أرياف ألميريا، لكنّ الأمر لا يستحقّ عناء الذهاب لرؤيته. ثم إنّ البلاد تشهد أزمة اقتصاديّة حادّة، وبطالة. على أيّة حال، لا أملك أوراقاً ثبوتية. هل أسافر إليها مغامراً على غير هدى؟

فكّرت أنّ باريس ستكون أكثر رأفة بي. باريس أو مارسيليا، مدينتا الكتب والروايات البوليسيّة. تخيّلتهما متشابهتيْن، مليئتيْن بإيطاليّين متأفّفين وجزائريّين مشاكسين وأشرار يتكلّمون لغة العامة. كنت متأخراً عن أجواء قراءاتي خمسين عاماً. لكن لا بأس، لا بدّ أن يتبقّى شيء ما ممّا قرأته. على كلّ حال، إيزو كتب **معمعة كاملة** ليس منذ زمن بعيْد، على ما أعتقد. تخيّلتني أقوم بزيارة له أو أبعث له برسالة تقول: «سيّدي العزيز، أنا شابّ مغربيّ معجب بك وأودّ

كثيراً أن ألتقيك». ألقيت نظرة على ويكيبيديا وعلمت أنّه توفّي. أمّا مانشيت فتوفّي منذ زمنٍ طويل. وبغضّ النظر عن بعض فروع الأقارب والسخفاء، لم أكن أعرف أحداً في فرنسا.

يجب أن أهتمّ بالأمور الملحّة في أسرع وقتٍ ممكن بدءاً بالعثور على مأوى قليل الكلفة بخلاف هذه الغرفة، وشراء ملابس جديدة، ومباشرة العمل. إنّ مسألة نسخ النصوص هذه تحيّرني. سأطلب جواز مرورٍ في حال اقتضت الظروف. وفي هذه الأثناء أجتسّ أخبار الشرطة التي سينتهي الأمر بها إلى القبض عليّ؛ وأقرأ قدر المستطاع بغية تأهيل نفسي. وأنسى مريم وبسّام والشيخ نور الدين.

وأضع برنامج عمل.

وأضع خطة.

أعمل لأجل المستقبل.

على كلّ حال، العشرون أجمل سنوات الحياة.

تلقّيت رسالة جديدة من جوديت على الفايسبوك، بُعِثتْ منذ بضع دقائق. تقول فيها: ألن تأتي لاصطحابي؟ فأجبت: أنا آتٍ.

لخضر، قالت لي جوديت وسط الليل. لخضر، وأحببت طريقتها في مناداتي، بنبرتها الإسبانيّة، وتشديدها على «الضاد» هذا الحرف الذي لا يوجد إلا في العربيّة.

- لخضر، ليس اسماً شائعاً، أليس كذلك؟

أدخلت رأسي بين كتفي وقلت:

- لا، إنه نادر في المغرب. لكنّه شائع في الجزائر. كان والدي يحبّ هذا الاسم، لا أعرف كثيراً لماذا.

- ماذا يعني عدا أنّه اللون الأخضر؟

- في الواقع الأخضر له معنيان، اللون الأخضر، دون شك، وأيضاً «المزدهر». الأخضر لون الإسلام. ربّما لهذا السبب اختاره والدي. كذلك الخضر هو نبيّ مهمّ للمتصوّفين وَيَرِد في سورة الكهف.

- لخضر، سأدعوك الزنبور الأخضر.

- أنتِ أجمل من كاميرون دياز.

وبنعومة أمسكت بيدي لِتُنزِلها إلى أسفل بطنِها.

سراعاً مرّت الأسابيع والأشهر التي أعقبتها حتى شهر نوفمبر أي بداية عملي كخادمٍ على معدّيات شركة الملاحة «كوماريت»، وكانت الذكريات على قياسها وجيزة وسريعة. ألفيت العمل لدى جان فرنسوا شاقّاً، وجافّاً، ومخبلاً. أمّا غرفتي الواقعة عند منتصف الطريق بين وسط المدينة والمنطقة الحرّة، فباردة مقفرة. كنت أتقاسم الشقّة مع ثلاثة عمّال أكبر منّي سنّاً بقليل، لكنّي شعرت أنّهم لم يمرّوا قطّ بسنّي، وبدوا لي مصابين باختلالٍ عقليّ خطير. ما إن تتوفر لهم دراهم قليلة حتّى يشتروا بها ملابس وأحذية رياضيّة، وحشيشة الكيف. كانت ذروة الحياة السعيدة بالنسبة لهم تتمثّل في شراء سرير مزدوج من عند تاجر الأثاث في الحيّ، وسيّارة من عند وكيل سيّارات نيسان أو تويوتا؛ لا يمرّ يوم إلا ويتصفّحون موقع Voitureaumaroc.com حالمين بسيّارات فخمة لن يقدروا على شرائها أبداً: انظروا إلى هذه الجاغوار موديل عام ١٩٩٢ وثمنها مئة ألف درهم. كانوا يضعون نظّارات شمسيّة عريضة جدّاً تلتهم وجوههم، وسمّاعة هاتفهم الحر اليدين تلبس على الرأس موضوعة دوماً في مكانها. كانوا مملّين، معدمي الشخصيّة، وكثيري الصخب. لكنهم كانوا صحبة، وحركة إنسانيّة إلى جانبي. كانوا

يهوون أيضاً مغازلة عاملات الملابس الجاهزة، ذوات الأيدي الناعمة التي يضنيها أزيز آلات الخياطة، أو في حال عدم توفّرهنّ، بائعات الأسماك المثلّجة اللواتي تنبعث منهنّ روائح سمك المارو أو القريدس من الذقن حتّى أعماق الفرج. وكلّهنّ كنّ يستجبن للمساعي المبتذلة لمساكنيّ في الغرفة مرتدي نظّارات «راي بن» المزيّفة الذين يصطحبونهنّ بفخفخة وكأنّهنّ أميرات لالتهام شطيرة همبرغر في أحد المطاعم الكبيرة للوجبات الأميركيّة السريعة. كانوا يعطون الانطباع بعيشِ الحياة، الحياة الحقيقيّة، وليس حياة المغفّلين والريفيّين الذين لا حظّ لديهم بالعمل في المنطقة الحرّة، الذين يكسبون مالاً أقلّ بكثير وليس لديهم ما يميّزهم، لا نظّارات شمسيّة ولا هواتف آخر طراز. بدت لي كلّ هذه المهزلة الكبيرة التي تدور أمام ناظري، بعيدة أشدّ البعد، عن الأحياء التي ربيت فيها، وأبعد ما تكون أيضاً عن الأحياء التي أرغب في العيش فيها.

مهما يكن من أمر، لم يكن لديّ متّسع من الوقت للتواصل مع زملائي في المسكن. فالعمل كان يستأثرني ويشابه أعمال الأشغال الشاقّة في الخياطة، أو تقشير الجمبريّات هذا إذا استثنينا الرائحة. محنيّ الظهر كقاطف قرون اللوبياء الخضراء، مستخدماً أربعة أو ستّة من أصابعي، كنت أقضي بين اثنتي عشرة وست عشرة ساعة يوميّاً أمام الشاشة ناسخاً بكلّ أمانة الكتب، وموسوعات الطبخ، والرسائل المكتوبة بخطّ اليد، والأرشيفات، وكلّ ما كان السيد بوريلييه يمرّره لي. كان العمل يليق جدّاً باسمه: إدخال البيانات وبصورة أدقّ «تحصيل مزدوج»، لأنّ هذا العمل المُخبل يُنفّذ مرّتين، على يد مخبوليْن مختلفيْن، ومن ثمّ تقارن النتائج ليصار إلى إنجاز ملفّ موثوق به وجاهز التسليم للشريك الموصي. كان زبائن السيد

بوريلييه متشعّبين، سواء دور نشر تريد رقمنة مجموعة كتب قديمة أو إعادة طباعتها، أم وزارات لديها أطنان وأطنان من الكتابات تريد تحميلها، أو مدن، أو بلديّات تفيض أرشيفاتها بالمعلومات، أو جامعات ترسل أشرطة مغناطيسيّة قديمة للمحاضرات والندوات الجامعيّة ليعاد نسخها- كان لديّ الانطباع بأنّ فرنسا كلّها، هذر فرنسا كلّه يحطّ هنا، في أفريقيا. كان البلد كلّه يتقيّأ لغة على السيّد بوريلييه ومساعديه. كانت طباعة النصوص تستوجب السرعة بالتأكيد، لكنّها سرعة يعترضها دفع ثمن التصحيحات من جيوبنا إذ في كلّ مرّة تكشف مقارنة التحصيل المزدوج عن خطأ في الكلمة أو الجملة الموضوعة على بساط البحث، يُقتطع الخطأ المطبعي من أجري. كان أوّل كتاب نسخته يتحدّث عن رحلة إلى شواطئ أفريقيا في أواخر القرن الثامن عشر حافلة بالقراصنة والعبيد؛ لا شكّ أنّ أدب الرحلات منجم ثمين من المعلومات. أمّا رحلتي الثانية فكانت إلى روسيا مع نسخي كتاب فرنسي في سيبيريا الذي يعود للعام ١٨٧٢. ربّما يتبادر للذهن أنّ هذا العمل ممتع، لكنّه منهك قبل أيّ شيء آخر. يجب الانتباه إلى كتابة الكلمات وأسماء الأعلام. كنت أتوه في جسد الكلمات، والحروف، والجمل، ملتصقاً قدر الإمكان بالنص. وأحياناً أعجز عن قول فحوى هذه الصفحة التي أعيد نسخها أو تلك. رحت أفكّر، وهذا عن حقّ، أنّ لغتي الفرنسيّة ستصبح على الأقل دون شائبة بعد مرور بضعة أشهر على مباشرتي بهذا العمل. لكنّه كان عملاً محبطاً بالفعل- لم يكن لديّ الوقت بالطبع للتفتيش عن الكلمات التي أجهل معناها في القاموس فأعيد نسخها كما هي دون أن أفهمها. وكان العديد من الأخطاء المطبعية متأتّياً من عدم فهمي وجَهْلي لهذه الكلمة أو تلك.

كان السيّد بوريلييه ودوداً معي ويطيّب خاطري قائلاً: « آهٍ ليتهم يرسلون لنا قصصاً بوليسيّة، لا تبدو متوفّرة في المدى المنظور، لكنّي أعدك ما إن تتوفّر حتى تكون من نصيبك». كنت عنصراً جيّداً على ما أظنّ وحاولت أن أظهر جديّة في عملي، ثم إنّه لم يكن لديّ عمل آخر هامّ أقوم به.

ذات يوم، كلّفني حماسي في العمل هديّة ملغومة. وصلت ذات صباحٍ إلى العمل، فاستدعاني السيد بوريلييه إلى مكتبه. بدا سعيداً، ومِمازحاً كطفلٍ صغير. قال لي: وصلني خبر رائع. ثمة طلبيّة ضخمة من قبل وزارة المحاربين القدامى وتتعلّق برقمنة السجلات الفردية للمقاتلين إبّان الحرب العالميّة الأولى. إنّه عقد ضخم جداً. جاوبنا على العرض وتمّت الصفقة. إنّها بطاقات مكتوبة بخطّ اليد ويستحيل التعامل معها بطريقة آليّة. يجب طبعها باليد. البداية ستكون مع الموتى.

قلت بسذاجة:

- ألم يموتوا جميعهم، هل ثمة أحياء؟

- بالطبع ماتوا جميعهم. ليس هنالك جندي من الحرب العالميّة الأولى على قيد الحياة. أقصد القول إنّنا سنبدأ مع «الذين ماتوا لأجل فرنسا»، وبطاقاتهم منفصلة عن الجنود الآخرين.

- وكم عددها؟

- مليون وثلاثمئة ألف بطاقة في المجموع. ومن بعدها يأتي دور الجرحى ثم الناجين من الحرب، وهذا أقلّ حزناً.

اللعنة! مليون وثلاثمئة ألف قتيل، لا أحد يستطيع أن يقدّر ماذا يمثل هذا الرقم فعلاً، لكنّي أستطيع أن أؤكد لكم أنّ هذا عمل ضخم بالنسبة للتحصيل الكيلومتري الذي يتطلّب آلاف

«الجيغابايتات» للبطاقات الممسوحة ضوئياً، وبرنامجاً خاصّاً لإدخال البيانات: الاسم، تاريخ ومكان الولادة، القيد، تاريخ الوفاة ومكانها ونوعها، «نوع الوفاة»، هكذا وردت العبارة. كما ترَون، كانوا غير عابئين بالمحسّنات اللفظيّة في ذلك الوقت، كان هنالك مئات آلاف البطاقات التي يجب ملؤها. وجميعها مكتوب بخطٍّ جميل بالريشة: آشيل برون، جندي، فوج المشاة ١٣٨، مات لأجل فرنسا في ٣ ديسمبر ١٩١٤ في مستشفى «شالون سور مارن»، نوع الوفاة: متأثّراً بجراحه (عبارة مشطوبة)، حمى التيفوئيد (عبارة مضافة)، ولد في ٢٥ يناير ١٨٩١ في مون برون في شارنت. بن مولوب، بلقاسم بن محمد بن عمر، جندي في الفيلق الثاني للرماة الجزائريّين، مات لأجل فرنسا في ٦ نوفمبر عام ١٩١٤ في سوبير في أين(٢٣)، نوع الوفاة: قتله العدو، ولد عام ١٨٨٤ في (الاسم تتعذّر قراءته)، إقليم قسنطينة... وهكذا دواليك، مليون وثلاثمئة ألف مرة؛ حتى مع استعمال البرنامج الخاص يجب إيلاء دقيقة أو دقيقتين للبطاقة بالإضافة إلى صعوبة تهجئة أسماء الأرياف البعيدة الجزائريّة والقرى السنغالية والدساكر الفرنسيّة التي كنت أجهل كلّ شيءٍ عنها. بعض الجنود بقوا في ذاكرتي كالجندي آشيل برون، وهذا البلقاسم بن مولوب، وكان غريباً التفكير أنّ أشباح الشعرانيّين(٢٤) كانوا يقومون برحلتهم ما بعد الموت إلى المغرب وطنجة في حاسوبي.

كنّا نتوزّع المهام أنا وزملائي (وكانوا في معظمهم طالبات في

---

(٢٣) أين Aisne: إقليم في فرنسا ينتمي لمنطقة بيكاردي.

(٢٤) الشعرانيّون أو الشجعان: لقب أطلق على الجنود الفرنسيّين خلال الحرب العالميّة الأولى.

الأدب الفرنسي أو شبّاناً ضاربين على الآلة الكاتبة)؛ نعمل على تعبئة مئة وخمسين أو مئتي بطاقة في الصباح، ونسخ ستين صفحة من الكتب على الأقلّ بعد الظهر. كنت أجد صعوبة حقيقيّة في ترك ورشة ما للبدء بأخرى فيما كنت مرغماً على تنفيذ كلّ شيء في الوقت نفسه: يجب طباعة «مذكّرات كازانوفا» لدار نشر في الكيبك، وكان هذا الأمر ملحّاً مثله مثل الذين قتلهم العدو. وكانت مجلّدات «قصّة حياتي» لكازانوفا هائلة، لا نهاية لها. وأعترف أنّني استمتعت كثيراً، برغم ليالي السهر حتى الفجر، في رقمنتها. ألفيْتُ كازانوفا ذاك مضحكاً وودوداً، حسّاساً وماكراً، يمضي وقته في الاستيقاظ على عضوه المحرور، والمسارعة إلى معالجة أمراضه الزهريّة التي لا تسبّب له، على ما يبدو، أيّ شعورٍ بالخجل، فبالنسبة إليه ليس هناك ما هو معيب في الجسد والنساء والشباب. كان يتمتّع بذاك الذكاء الساخر المتهكّم الذي ذكّرني بعيسى بن هشام وأبي الفتح الاسكندري بطلَيْ مقامات بديع الزمان الهمذاني- ولكنّه أوسع تفكيراً وأوفر إنتاجاً، هذا أكيد. . إنه أحد الكتب القليلة التي «قرأتها» حقّاً وأنا أعمل على نسخها الذي استغرق أكثر من ثلاثة أشهر عمل، دون انقطاع.

تساءلت دوماً كم كان جان فرنسوا بوريلييه يحتسب خدماتنا وكم يبلغ بالتالي مقدار ربحه. لم أجرؤ يوماً على طرح السؤال عليه. المؤكّد أنّ «الذين قتلهم العدو»، أو السيّد كازانوفا لم يتقاضوا سنتيماً واحداً، وأنّني أنا نفسي نادراً ما استطعت، بعد مراجعة الحسابات (واقتطاع ثمن التصحيحات، إلخ)، تقاضي أكثر من خمسمئة أورو في الشهر لقاء ستّين ساعة عمل كحدّ أدنى. لا شكّ أنّ هذا كان أجراً عظيماً لشابٍ بليد مثلي، لكن هيهات

العشرات الآلاف من الدراهم الموعودة. وعندما يأتي يوم تحصيل الأجر، كان فريدريك يتّخذ دوماً هيئة آسفة: آهٍ من التصحيحات، أو: أحسنْتَ لم ترتكب أخطاء كثيرة هذا الشهر، على أمل أن تبلي بشكل أفضل في الشهر المقبل. يجب أن تعتاد على بطاقات الجنود القتلى هذه وتحسن الوتيرة.

كنت أروي كلّ ما يحصل معي لجوديت في رسائل لا تنتهي، وأعتبر ترسّلي هذا مروّحاً للنفس. كلّ مساء، وفيما كان حريّاً بي أن أمقت الحاسوب ولوحة مفاتيحه قبل كلّ شيء، كنت أنصرف للكتابة مطوّلاً إلى جوديت لأروي لها ما فعلناه خلال النهار: أنا وكازانوفا والجنود الفرنسيّون الشجعان. كنت أحدّثها عن آشيل برون المصاب بحمّى التيفوئيد، وبلقاسم بن مولوب الذي قُتل في سوبير، وكازانوفا والكونت تيريتا وهما يشهدان من النافذة حكماً بالإعدام في ساحة غريف[٢٥] برِفقة سيّدتين دون أن أذهب إلى حدّ إخبارها التفاصيل الماجنة ولكن المضحكة لمضاجعة تيريتا المرأةَ غيرَ المناسبة.

بدأت أكتب لها أيضاً قصائد بالفرنسيّة في معظمها ومسروقة من نزار قباني. بدا لي الشعر الفرنسي أو الإسباني جافّاً وخافت البريق. كنت أنهي دوماً رسائلي ببيت شعر: «الحبّ يا حبيبتي قصيدة جميلة منقوشة على القمر»، وهكذا دواليك. بدت جوديت أكثر تحفّظاً بالنسبة لمشاعرها، لكنّي شعرت من خلال رسائلها المكتوبة تارة بالفرنسيّة وطوراً بالعربيّة، أنّها تستحسن تراسلنا. كانت تحدّثني عن حياتها في برشلونة، حياتها اليوميّة، واستيائها من تفاهة دروسها،

---

(٢٥) ساحة غريف Grève في باريس وهيَ حالياً place de L'Hôtel- de- Ville.

وسأمها في الجامعة حيث الأساتذة أنفسهم يمقتون النّصوص التي يعلّمونها وكأنّها مكتوبة بلاتينيّة سيّئة. وبدأت بتأثيرٍ من جوديت أكره هؤلاء المستعربين المستائين المتسربلين بذهنيّة الاستعمار المتحسّرين في كلّ يوم على أنّ إسبانيا كانت عربيّة لبضعة قرون، المتذمّرين من مشقّة ترجمة نصوص أندلسيّة لا يعرفون منها إلاّ صعوبة كلماتها. كانت تقول لي: اسمع، درسنا اليوم تلك القصيدة لابن زيدون، أو ذاك المقطع من ابن حزم، فأهرَع لِتوّي إلى إحدى المكتبات للعثور على الكتاب المذكور؛ وفي معظم الأحيان كنت أعثر على تحفة أدبيّة، على رائعةٍ من زمنٍ غابرٍ، عربيّتها تملأ فمي وأذنيّ بلذّة غير مسبوقة. برغم شعرانيّي الحرب العالميّة القتلى، وكازانوفا، كنت أشعر أنّني عربيّ أصيل بفضل جوديت. تابعْتُ شؤون دراستها يوماً بيوم: ما إن تطرح عليّ أسئلة نحويّة حتى أفتح كتب علماء النّحو والشارحين الكلاسيكيّين لأجِدَ لها جواباً. ما إن تسمعهم يتحدّثون عن كاتب إلا وأرسل لها في اليوم التالي بطاقة موثّقة عنه مع مقتطفات وشروح.

وبالطبع، كانت هذه النشاطات غير متلائمة مع نمط حياة مساكنيّ في الشقّة، الذين تلقّفتهم شركات فرنسيّة متضامنة تحاول قدر المستطاع تسهيل حيازة المسكن لموظّفيها. كان عادل وياسين ووليد قادمين ثلاثتهم من الدار البيضاء، ويعملون بصفتهم «مختصين تقنيّين»، في معمل لقطع الغيار وفق نظام العمل المسلسل. كانوا يرونني كلّ يومٍ مستغرقاً في تعبئة بطاقات جنودي القتلى أو في كتبي فيحسبونني مجنوناً. أحياناً كانوا يصرخون بي أخوي لخضر، ستصبح أصمّ وأعمى، ما تفعله أسوأ من الاستمناء، تعال قم بجولة معنا في الهواء الطلق وسنلتقي بالفتيات! لا دعْه، هو

لا يحبّ إلا رؤية البحر فقط، لكن لا بأس فهذا أيضاً سيعود عليه بالفائدة! مولاي لخضر، أنت شاحب مثل السروال الداخليّ لمن لم يحتلم بعد. تعال تنشّق دخان سيّارتنا! وفي آخر الأمر يذهبون وسمّاعة الهاتف على آذانهم إلى طنجة وملذّاتها في جولة بالسيّارة وسط الموسيقى الصادحة لساعات، وينهون الجولة في منتصف الليل بالتهام شطيرة همبرغر ثم يعودون إلى المنزل مهتاجين مثل البراغيث، ويتسمّرون أمام التلفزيون مدخّنين لفافة حشيشة تلوَ لفافة بانتظار العودة إلى المعمل في اليوم التالي.

منذ حصول الاعتداء وأنا أجهل كلّ شيء عن بسّام والشيخ نور الدين. لم يعاودا الظهور إطلاقاً. وشيئاً فشيئاً بدأت مخاوفي من مداهمة رجال الشرطة لي تتلاشى. بدت لي جماعة نشر الفكر القرآني قابعة هناك في تلك الضواحي النائية اللامتناهية المسكونة بسذّج مثلي والقريبة جداً مع ذلك. لا شكّ أنّني كنت أتابع الأخبار على التلفزيون، وقد علمت بتوقيف ثلاثة من المشبوهين الذين لم أعرف أيّاً منهم. كانت وجوههم غريبة لا تشي بأيّ ذكاء، لكنّ صورَ المجرمينَ نادراً ما تكون جميلة. كنت أنتظر كلّ يومٍ خبر اعتقال الشيخ نور الدين وبسّام دون جدوى.

بُعيد أيّام قليلة على رحيل جوديت، حصل اعتداء آخر رهيب ترك فيّ تأثيراً عميقاً، وكأنّني كنت حاضراً أنا نفسي، ربّما لأنّنا ذهبنا إليه قبل حصوله بوقتٍ قليل. كان مقهى «الحافة» يقع على كتف الجرف، معلّقاً فوق البحر المتوسّط، ضائعاً بين شجرات الجهنميّة والياسمين المحيطة بالدارات المترفة من حوله. ربّما كان المقهى الأشهر في طنجة وأحد الأمكنة الأعذب في أيّام الطقس الجميل (أذكر جلسنا أمام طاولة منزوِيَة قليلاً، أمسكت جوديت

بيدي ثمّ قبّلتني، أستذكر ذلك دوماً، وخجلت عندئذٍ، خجلت كثيراً، وخشيت أن يرانا أحد، فالتقبيل علناً يُعدّ جنحَة)، وخاصة في نهاية الصبيحة حين لا يكون المكان مزدحماً، ونشعر أنّ البحر والمضيق كلّه أصبحا ملكنا. قرأت في الجريدة أنّ رجلاً دخل إلى المقهى وأخرج خنجراً كبيراً أو سيفاً وهاجم به جماعة من الشباب المجتمعين أمام طاولته، لأنّ بينهم أجانب على الأرجح. قُتل مغربيّ في مثل سنّي وأصيب آخر بجروح في فخذه وهو فرنسيّ. كان هنالك فتاتان إسبانيّتان برفقتهما. وجميعهم طلّاب في معهد الترجمة في طنجة. ولّى المجرم هارباً عبر الجرف، وبرغم مطاردَة روّاد المقهى والنادلين له استطاع الفرار. كانت المقالة مشفوعة برسمه الذي عمّمته الشرطة: رأسه مستدير ووجهه طفوليّ كوجه بسّام، كان بالإمكان أن يكون هوَ. ربّما جنّ بسّام فجأةً. بدايةً التقت جوديت به في مراكش بُعيْدَ الانفجار بوقتٍ قصير، ومن ثم يظهر وجه شبيه بوجهه في «جريدة طنجة». لم أتخيّله قادراً على طعن طلّاب شباب جالسين أمام طاولتهم باطمئنان في الشمس. من المستحيل أن يكون قد تغيّر بهذه السرعة، ومع ذلك لم أكن أستطيع الامتناع عن تذكّر السهولة التي انهال فيها ضرباً على صاحب المكتبة. يبدو لي أنّ السؤال لماذا؟ سيبقى معلّقاً إلى الأبد دون جواب حتى لو كان بسّام شارك فعلاً في وضع القنبلة في مقهى أركانة، وأغرز ساطوراً في ظهر مغربيّ من عمرنا، حتّى لو رأيت ذلك بأمّ عينيّ، وإذا سألته لماذا؟ لماذا فعلت ذلك، لهزّ كتفيه وأجابني لأجل الله، كرْهاً بالمسيحيّين، فدى الإسلام، فدى الشيخ نور الدين، وما أدراني، لكنّه كاذب في ما سيقوله، أعرف أنّه كاذب وجاهل جهلاً تامّاً سبب فعلته التي لا سبب لها في

الواقع، تماماً كما لم يكن هناك من سبب لضرب تاجر الكتب. كان العنف متنقّلاً في الهواء، وريحه تصفر، تصفر في كلّ مكان تقريباً وتجرف معها بسّام في دوّامة البلاهة والحماقة. فكّرت في أنّني كنت ربّما مسبباً الشقاء والموت رغماً عنّي. أرى بسّام ممسكاً بهراوته وربّما بسيفه، لكنّ الأسباب العقائدية الكامنة خلف أعماله والتي تسنّى لي أن أدركها من علياء سنواتي العشرين لم تكن تقنعني؛ كنت أعرف بسّام جيّداً، وأعرف أنّ حقده على الغرب أو شغفه بالإسلام نسْبِيّان، وأنّ الذهاب إلى المسجد للصلاة برفقة أبيه، قبل بضعة أشهر من تعرّفه على الشيخ نور الدين، كان يزعجه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لم يكلّف نفسه مرّة واحدة النهوض باكراً لتأدية صلاة الفجر، وكان يحلم بالذهاب للعيش في إسبانيا أو في فرنسا. ولكنّي إذ أمعن في التفكير أدرك أيضاً، أنّه إذا كان يحبّ الفتيات أو يحلم بالذهاب إلى ألمانيا والولايات المتّحدة فهذا لم يكن حائلاً دون الذي حصل. كنت أعلم أنّ الشيخ نور الدين ترعرع في فرنسا وعندما كنت أتحدّث معه عن نشأته تلك، اعترف لي بأنّه معجب ببعض نواحي هذا البلد، وأنّه لو أجبِرَ على العيش وسط الكفّار لاختار العيش في فرنسا بدلاً من إسبانيا أو إيطاليا حيث الإسلام، فيهما، على حدّ قوله، محتقر، ومسحوق ومهمّش.

جعلتني كلّ هذه الأشهر التي أمضيتها مع جماعة نشر الفكر القرآني مقرّباً من الشيخ نور الدين. كان خلوقاً معي وكنت أعرف (أو يحلو لي الاعتقاد) أنّه احتضنني دون خلفيّة تُذكر. صحيح أنّه كان يعطيني دروساً أخلاقيّة، بالطبع، ولكن كأبٍ أو كأخٍ كبير ليس أكثر. غالباً ما كان يردّد مازحاً أنّ رواياتي البوليسيّة تفسد فكري،

وأنّها كتب شيطانيّة تدفع بي إلى الهلاك، لكنّه لم يفعل شيئاً ليحول دون قراءتي لها، ولو لم أرَه بأمّ عينيّ يقود بنفسه جماعة حملة الهراوات في تلك الليلة لكنت عجِزت عن التصوّر لحظة واحدة أنّه على صلة، من قريبٍ أو من بعيدٍ، بأيّ عملٍ عنيف.

أفادت الشرطة أنّ الوحوش الثلاثة المسؤولين عن اعتداء مراكش قاموا بتنفيذه بمفردهم، بعد أن تعلّموا على الإنترنت كيفية صنع قنبلة وتفجيرها. لكنّ وجود بسّام في مراكش آنذاك، والذي أكّدته جوديت، جعلني أشكّ بوجود شبكاتٍ واتّصالاتٍ ومؤامرات يحوكها مهووسون بالعنف. لا بل إنّني تصوّرت للحظة أنّ الشيخ نور الدين يعمل في خدمة السلطة، وأنّه كان محرّضاً على الفتنة، وعميلاً مزدوجاً مهمّته إخفاق محاولات الإصلاح وعرقلة سبل التقدّم نحو الديمقراطيّة. وهذا ما يفسّر حريق مقرّ الجماعة الذي يهدف إلى محو كلّ أثر، ويبرّر أيضاً أنّ أحداً لم يأتِ لإزعاجي.

بدت لي عمليّة القتل عمداً في مقهى الحافة جبانة وباعثة على القلق. ربّما لأنّه كان بإمكاني أنا أن أكون الضحيّة، أو أنا وجوديت؛ أو ربّما لأنّها حصلت في عقر داري. لم تكن فقط انفجاراً سمعْتُ به، مدويّاً بلا أدنى شكّ، لكنّه بعيد. عليّ الاعتراف: لوقتٍ طويلٍ ساورني الخوف لدى ارتيادي مقهى في طنجة، الخوف من أن يظهر بسام حاملاً سيفاً في يده.

وجب عليّ تجنّب استغراق التفكير في هذه المسائل لئلا أصيرَ مهووساً تماماً ومصاباً بعقدة الاضطهاد.

لحسن الحظّ أنّني كنت منشغلاً معظم الوقت بجنودي القتلى، وكازانوفا، وأشعاري لجوديت. «عيناك آخر مركبين يسافران فهل هناك من مكان؟ إنّني تعبت من التسكع في محطات الجنون ظَلّي

معي، لكي يحتفظ البحر بلونه». . . وهكذا دواليك، دوماً أشعار نزار قباني. وكنت أرمي بالطبع إلى تأليف أشعاري بنفسي دون معونة هؤلاء الكبار الذين سبقوني، لكنّ مضاهاتهم لأمرٌ في منتهى الصعوبة. وكانت قصيدتي رقم واحد، القصيدة التي كانت فعلاً من تأليفي هيَ التالية:

ها أنا ذا

في مطلع الفصل الحار

أستكشف حائراً تحت المروحة

أمامي هاتفاً

حاسوباً

وحبّاً من شمع أراه يذوب قطرة قطرة

كيما يختم رسائلي

هذا المساء سأقرأ كازانوفا

وأنا أفكّر فيك

سأسبح في عينيك، في كلّ صفحة امرأة

تشبهك

كلّ مساء

أقيم حفلاً تنكّريّاً في أقصى العالم

للأشباح الشريرة مثلك.

ربّما كانت جوديت تفضّل أن أكتبَ لها القصائد بالعربيّة. تقول لي: هذه لغتك الأم، اللغة التي تعرفها بالشكل الأمثل، وكانت

محقّقة بالطّبع. لكنّ الشعر العربي تتعذّر عليّ كتابته فهو يبزّ الشعر الفرنسيّ جمالاً وتعقيداً أضعافاً أضعافاً. حين أكتب باللغة العربيّة، يتولّد لديّ الانطباع بأنّني أقلّد بشكلٍ رديء نزار قبّاني أو السيّاب أو ابن زيدون. أمّا حين أكتب بالفرنسيّة أشعر بحريّة أكبر لا سيّما وأنّني لم يسبق لي أن قرأت لأيّ شاعر فرنسي عدا أشعار موريس كاريم وجاك بريفير في المدرسة. ليتني أستطيع الكتابة بالإسبانيّة، أنا على يقين من أنّ هذا الأمر سيكون الأمثل بالنسبة لي. كنت أرى نفسي صاحب ديوان عنوانه «كتاب جوديت» *El libro de Judit*، لكنّ الأمر بعيد الاحتمال.

ولكي أروّح عن نفسي قليلاً، أذهب كلّ صباحٍ إلى المدينة قاصداً المكتبة التابعة لمركز سرفنتس، وبعد الظهر إلى المعهد الفرنسي، أو العكس، وبين الاثنين أطيل المكوث في المقاهي منصرفاً إلى مراقبة الناس دون أن أشعر بالوحدة بل فقط بأنّني لم أعد أنتمي إلى المدينة، وأنّ طنجة تغادرني آذنة بالرحيل. كانت جوديت تعطيني الأمل. وكنت أشعر أنّني سأرحل عن المغرب، سأصبح شخصاً آخر، سأخلّف ورائي بعضاً من شقاء الماضي وبؤسه، سأنسى القنابل والسيوف وموتاي، وأشباح الجنود الذين قتلهم العدو، والساعات الطويلة الطويلة التي قضيتها أعيد إلى ما لا نهاية كتابة أسماء غادرت أجسادها. كنت أفكر في الرحيل إلى بلادٍ لا تتآكلها الضغينة ولا الفقر ولا الخوف.

في الثاني من مايو، غداة عيد العمال، قامت فرقة كومندوس أميركيّة بقتل أسامة بن لادن ليلاً، وأُلقيَتْ جثته من الطائرة فوق المحيط الهندي: تصدّر الخبر جميع الصحف: الرجل النحيل ذو اللحية الطويلة والنظرة الثاقبة سُحِق وكأنّه مجرّد حشرة ضارّة وسط

نسائه وأدويته بعد أن سقط في فخ دارته الغريبة المزدانة بالأسوار مثل قلعة- هذا على الأقلّ ما أوحى به الصحفيّون. كان أكثر إرهابي مطلوباً في العالم موجوداً على بُعد خمسين كيلومتراً من إسلام أباد ولعدّة أعوام خلت، حسب ما ورد في المقالة. لكنّ الأمر الذي يدعو للتساؤل هو لماذا استُهدف اليوم وليس البارحة أو لماذا لم يرجأ مقتله إلى الغد. لمَ لم يَجرِ توقيفه، لمَ رمِيَت جثّته طعاماً للأسماك. على أيّة حالٍ لا يبدو مقتله ذا أهميّة حقاً، لأنّ ابن لادن فقدَ جسدَه وحضورَه المادي منذ وقتٍ طويل- بعد أن أمسى مجرّد صوت يتكلّم بين الفينة والأخرى من كهفٍ خيالي، مستترٍ خلف عصور سحيقة. بدا وجوده بالذات مشكوكاً فيه باطّراد وحوّله غرقه في الماء شخصاً من شخوص الروايات، أو شيطاناً، أو قدّيساً. ذاك الذي أوحى لي في طفولتي المشوّشة بالرعب والإعجاب في آنٍ معاً، وأيضاً بالأمل والذعر. ذاك الذي تحدّى بطريقة ظافرة الولايات المتّحدة وزرع فيها الدمار بات اليوم أسطورة لا تزعج أحداً، رمزاً أعرج يتأرجح بين العظمة والوضاعة. تذكّرت، كان ابن لادن أحد أبطال بسّام حين كنّا في المدرسة. كنّا آنذاك نلهو في الملعب مقلّدين المقاتلين الأفغان. اليوم بسّام اختفى، وابن لادن وافته المنيّة في هيئة قوّات البحريّة المقلنسين بالأسود، أو ما يسمّى بـ«الفقمات»، الذين رموه في أعماق الهاوية. لم يكن لهذا بحدّ ذاته أيّ معنى، ما عدا أنّه وداع آخر جديد لعالم الأمس.

عندما أعلمتني جوديت أنّها ستشارك في دورة تدرّج على العربيّة في معهد بورقيبة في تونس طيلة شهر يوليو، واقترحت عليّ موافاتها، قلت في نفسي سيكون ذلك أوّل سفرٍ لي، على غرار ابن

بطوطة حين غادر طنجة باتّجاه الشرق، متوقّفاً في تونس. كنت متلهّفاً لأن أرى بأمّ عينيّ الثورة المندلعة هناك. بدا لي أنّني بلغت سنّ التمرّد وأحسستني في الحقيقة أقرب إلى تونسيّ شابّ في سنّ العشرين منه إلى أيّ شخصٍ آخر- افترضت أنّ تونس تشبه طنجة قليلاً، وأنّني لن أشعر هناك أنّني غريب: فالتونسيون مغاربة وعرب ومسلمون، وفوق ذلك استطاع كلّ هؤلاء الشباب، وهم بمثابة إخوتي وأقاربي، الإطاحة بالديكتاتور- أن أرى ذلك عن كثب أمر يبهجني. سارعت إذاً للتفاوض مع السيد بوريلييه بغية الحصول على إجازة - افترضت لسذاجتي أنّه يحقّ لنا بمثل هذه العطل، وبالفعل، كان ظنّي صحيحاً، لكن لا يحقّ لي أخذها (إلا في حالات محدّدة تتعلّق بالوضع المدني، سواء الزواج، أو الولادة، أو الوفاة، وهذه أمور لا أستطيع ادّعاءها) إلا بعد سنة من العمل. أبدى جان فرنسوا انزعاجه قائلاً إنّه لا يستطيع أن يقوم بإجراء استثنائي من شأنه أن يخلق سابقة قانونيّة، لكنّه عاد واستدرك قائلاً إنّه يمكنه بالمقابل تدبير الأمر شرط ألا يتعدّى أسبوعاً واحداً فقط؛ عليك التعهّد بتعبئة بطاقاتك ونسخ صفحاتك، فنغضّ النظر عن ضرورة حضورك لمدّة خمسة أيّام. وإذا سأل أحد زملائك عن سبب غيابك، فسأقول له إنّك مريض وإنّك تعمل في البيت، وينتهي الأمر. ولكن المهمّ ألاّ يحول شيء هناك دون رجوعك فتفوّت عليك طائرة العودة، مفهوم؟ وإلاّ اضطررنا إلى صرفك.

كان يتعيّن عليّ إذاً السفر مع الشجعان الموتى وكازانوفا، يا للصحبة الغريبة، لكن لا بأس، ستكون جوديت منشغلة بدراستها طيلة النهار، وأنا سأعمل بالتوازي معها، وينقضي الوقت. ثم إنّ قضاء أسبوع برفقتها أفضل من عدمه. أضف إلى أنّ الذهاب إلى

تونس لا يستوجب، بحكم الأخوّة المغربيّة، الحصول على تأشيرة مرور بل فقط على جواز سفر. ويوم الجمعة، في الخامس عشر من يوليو ٢٠١١، عصراً، وبعد أن جمعت كلّ مدّخراتي، ركبتُ الطائرة للمرّة الأولى. كان مطار ابن بطوطة مجاوراً للمنطقة الحرّة، فذهبت إليه سيراً على الأقدام عند خروجي من العمل. تأنّقتُ: ارتديت سترة وقميصاً برغم الحرّ، وسرّحت شعري، ولمّعت حذائي. كنت منفعلاً بعض الشيء. لا بدّ أنّه كانت تنبعث منّي رائحة المنضمّ حديثاً إلى حزب المطارات. سعيت لأن أبدو كأنّني من روّاد المطارات، أو كأنّ المطار حانة ليليّة أو خمّارة حيث بإمكانهم أن يمنعوك من الدخول، وتظاهرت بالسأم والتأفّف حيال الإجراءات القانونيّة، لا سيّما أثناء خلع الملابس الإجباري، فيما كان القلق يعتمل في قلبي- كنت خائفاً من أن يحصل سوء ما: أن يبلّغني الجمركيّ وهو يدخل اسمي في حاسوبه، أنّني مطلوب من الشرطة، فتبدأ شاشته بالوميض، وعندئذٍ تنطلق صفّارة الإنذار وتهاجمني فرقة من رجال الشرطة الأشدّاء المعتمرين قبّعات رماديّة. لكنّ شيئاً من هذا كلّه لم يحصل. أعاد إليّ الجمركيّ جواز سفري من دون أن ينظر إليّ تقريباً. وبعد انتظار بدا لي طويلاً قبالة الواجهات الزجاجيّة التي تشرف على المدرج، ركبت الطائرة. كنت خائفاً لكن ليس إلى حدّ الذعر، علينا عدم المبالغة، لكنّي لا أستطيع القول أيضاً إنّي كنت خليّ البال. رأيت عبر كوّة الطائرة رجلاً واضعاً سمّاعة رأسيّة على أذنيه يمشي إلى جانب الطائرة المتراجعة، وكأنّه يقود كلباً، كان مرآه غريباً تماماً. دُهشت من قوّة هدير المحرّكات والسرعة الفائقة التي سارت وفقها طائرة الركّاب على المدرج، قلت في نفسي إنّ هذه المركبة لن تتمكّن أبداً من

الطيران؛ وشعرت بغثيانٍ عندما ارتفعت الطائرة أخيراً عن الأرض، ثم بحماسةٍ فائقة حين انعطفت الطائرة فملت مع جناحها ملتصقاً بالكوّة، وبدَت لي طنجة والمضيق تحتي، وكأنّني أراهما للمرّة الأولى.

عادت جوديت إلى طنجة لثلاثة أيّام مطلع يونيو، ثلاثة أيّام من السعادة والمتعة والتفاهم المتبادل، تركتني بعدها حزيناً لا بل أكثر وحدة من أيّ وقتٍ مضى، خاصّة بعد عودتي للسكن في الشقّة مع زملائي- على أيّة حال لم أكن أرغب في استقبالها عندي. أوّلاً لأنّه لم يكن لديّ إلا سرير مفرد، وثانياً لأنّني كنت غيوراً ولا أريد أن يقترب منها أيّ مغربيّ آخر، وخصوصاً الرعناء الثلاثة الذين يشاركونني حياتي اليوميّة. كان مجرّد أن أتخيّلهم يرَون جوديت في لباس النوم، أو يتلصّصون عليها في غرفة الاستحمام يثير فيّ رغباتٍ إجراميّة. إلى ذلك كانت تسعرني فكرة ألا أكون العربيّ الأوّل والأخير في نظر جوديت. أعرف جيّداً أنّها عاشرت من قبل أصحاباً على حدّ قولها، وأنّه كان لديها أصدقاء في الجامعة، رفاق بالطبع، لكنّ هؤلاء الكتالونيّين يشكّلون فئة خاصّة في نظري. أمّا أنا فشيء آخر. أنا عربيّها، وأريد أن أكون العربيّ الوحيد في حياتها. (يجدر بي الاعتراف أنّني كنت متوجّساً أيضاً من إقامتها في تونس؛ أتخيّلها محاطة بعصابات من الشبّان التونسيّين المكبوتين يمهّدون بلا كلل لمصادقتها، وأعرف أكثر من أيّ كان المشاعر التي تحرّكهم).

كافحت إذاً لإيجاد غرفتين مجاورتين في فندقٍ صغير- القانون المغربي، الذي يذوْد عن العادات الحسنة، يمنعنا من استئجار غرفة واحدة إذا كنّا غير متزوّجين. كانت شرفاتنا متّصلة، ولا نحتاج

بالتالي حتّى للمرور عبر الرواق للتلاقي. بدا الأمر في غاية الإمتاع واتّصف بجانب من المغامرة. ومع ذلك اعتراني بعض الخجل عندما سألتني جوديت لماذا لا نستطيع أن نحظى بغرفة مزدوجة؛ لم أقل لها إنّ السبب هو لأنّي مغربيّ: لو كنت أجنبياً لما أزعجنا أحد.

لم نخرج كثيراً من الفندق خلال هذه الأيّام الثلاثة، ما خلا بعض النزهات، إلى رأس سبارتل، وكهوف هرقل، ومتحف القصبة، وجبانة مرشان حيث مدفن محمد شكري. لم تكن ملاحظات صبية المقاهي وموظّفي المتحف أو حتّى العابرين، عندما يرونني وحيداً برفقة جوديت، تشجّعني على الخروج؛ وجدت الأمر ممتعاً مثل رفسة في المؤخّرة. اعتراني شعور اختلط بين الاحتقار والغيرة من جهة وميلي إلى الابتذال الغثّ من جهة أخرى؛ ما كان يدفعني للردّ على المتطفّلين بإشهاري إصبعي الوسطى مرفقاً إيّاه بجملة مطنطنة تشتم أخواتهم وأمّهاتهم. بات تنزّهي مع جوديت يعني أن أُواجَه عند كلّ زاوية شارع بنظرات المارّة المزدرية، والسبب أنّني شابّ مغربيّ يتجوّل برفقة أوروبيّة من دون أن يبدو على مظهره الانتماء إلى الطبقة الاجتماعيّة التي تتردّد إلى المسابح الخاصّة أو حانات الفنادق الفخمة، والتي، هي وحدها تستطيع أن تفعل كلّ ما يحلو لها. انتبهت جوديت لذلك، وشعرْتُ أنّها آسفة لأجلي، ممّا زادني حزناً. وحين ذهبنا لزيارة قبر محمد شكري أتى أبله في مثل سنّي لإزعاجنا؛ سألني بالعربيّة ماذا جئنا نفعل هنا، واستغربت مثل هذا السؤال في جبّانة. أجبته بأنّنا جئنا ندفن أنفسنا فيما عنّ على بالي، بالطبع، أن أقول له: «أتينا نشهد جنازتك أيّها الأهبل»، لكنّني لم أجرؤ: ربّما كان صادقاً ويريد مساعدتنا.

الحقيقة أنّني غدوت متوحّشاً بعض الشيء على ما أظنّ. وحيداً

منزوياً مع كتبي، أو وجهاً لوجه مع جوديت، فقدت كلّ صلة بالعالم الخارجي، ما عدا صلتي بالشبّان الثلاثة الساكنين معي في الشقة، لكنّها لا تشكّل ما يمكن تسميته «عالماً خارجيّاً».

في هذه الأثناء كنت قد قرأت **الخبز الحافي** وأيضاً الجزء الثاني **زمن الأخطاء**. ألفيتني مضطرّاً للاعتذار من جوديت لأنّ محمد شكري هذا كان روائيّاً استثنائيّاً. كانت لغته العربيّة قاسية مثل ضربات العصا التي تلقّاها من والده، ومضنية كالجوع. لغة جديدة، وطريقة في الكتابة بدت لي ثوريّة تروي بلا خوف أو تستّر الجنس والعنف والبؤس. كان تسكّعه يذكّرني أحياناً بأشهر التشرّد التي أمضيتها وكان هذا الإحساس من القوّة بحيث اضطرّني إلى إغلاق الكتاب كمن يبتعد عن مرآة لا يروق له انعكاسها. سرّت جوديت لاقتناعي بأهمّيّة الكتاب، كذلك روت لي قصّة **الخبز الحافي** الفريدة: نشر الكتاب أوّلاً مترجماً، ومُنِعت نسخته العربيّة لمدّة ما يقارب العشرين عاماً. لم يكن صعباً تصوّر السبب: البؤس، والجنس، والمخدّرات، كلّ هذه الأشياء لم تستسغها الرقابة آنذاك. الحسنة هي أنّ الكتب اليوم لا قيمة فعليّة لها، وهيَ قلّما تُباع وتُقرأ، ولا تستحقّ عناء أن تُحظر. لدى وفاته منذ عشرين عاماً أُقيمت في طنجة جنازة مهيبة لمحمد شكري بحضور وزراء السلطة وممثّليها - كما لو أنّ كلّ هؤلاء الوجهاء كانوا يحتفلون بموته عبر مرافقته إلى القبر.

أغرقني رحيل جوديت بعد ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ قضيناها معاً في الحزن والوحدَة. وكنت أحاربهما كالعادة من خلال العمل والقراءة لحدّ أنّ عينيّ كانتا تحرقانني لشدّة الحرارة، وأيضاً بكتابة شعر الحب. كنت أفكّر في الأيّام الخمسة والأربعين التي تفصِلني

عن سفري. طالعت الكثير من الصفحات للاستعلام عن تونس وعن الثورة. كرّس ابن بطوطة فقط بضعة أسطر لتونس ونوّه بوجود علماء عديدين نافذين فيها. صادف وجوده فيها زمن انتهاء شهر رمضان، وحلول عيد الفطر الذي أمضاه هناك. سأكون أنا أيضاً في تونس بالضبط قبل بداية الصوم، أي بفارق شهر تقريباً بيني وبين زيارة سلفي الشهير.

كمثل ملابَسة مؤسفة، ونائبة جديدة من نوائب الدهر، تلقّيت الرسالة الإلكترونيّة الأولى لبسّام قبل يومين من سفري جوّاً. وذات صباح، وأنا ألقي نظرة كعادَتي لدى استيقاظي أعترف أنّني بتّ أفكّر فيه وفي الشيخ نور الدين أقلّ بكثير من ذي قبل؛ لم أعد إلى الحيّ منذ حريق مركز الجماعة لنشر الفكر القرآني، وكنت أعيش وكأنّني شبه منفيّ. ألقيت نظرة على صندوق الرسائل لأرى ما إذا كان وصلني جواب من جوديت على رسالتي البارحة، لاحظت رسالة غريبة اعتقدتها لأوّل وهْلة من تلك الرسائل التي تقترح عليك أن تُطيل قضيبك خمس سنتمترات من دون جهد، أو أن تشتري بسعرٍ مغرٍ الفياغرا لتقويته، ومرسلها يحمل اسم «شيريل بانغ» أو شيئاً من هذا القبيل. لكنّ الأمر الذي حيّرَني هو موضوع الرسالة: «أخبار»، فتحتها وطالعني نصّ من ثلاثة أسطر فقط:

«أخي الأعزّ، كيف حالك؟ أنا هنا في مكان بعيد ويصعب عليّ البعاد ولكن إن شاء الله نلتقي عمّا قريب على هذه الأرض أو في الجنّة. اهتمّ بنفسك يا خويا، فكّر فيَّ وكلّ شيء سيكون على ما يُرام».

لم تكن الرسالة موقّعة، وتساءلت لِوَهلة إذا لم تكن من البريد

المزعج. لكنّي لا أعرف، شعرت أنّني أسمع بسّام عبر هذه الأسطر. كنت واثقاً من أنّه كان هو. لمَ قد يبعث لي رسالة مماثلة؟ هل لطمأنتي؟ كان في مكان بعيد، ويصعب عليه البعاد؛ تُرى في أيّ مكانٍ يختبئ؟ في أفغانستان؟ أم في مالي؟ لا، لا يعقل أن يكون هناك لأنّه لا وجود قطعاً للإنترنت. أو مَن يَدري ربّما كان مقاتلو القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي يملكون واي فاي في خيمهم. أم تُراه يكتب لي من سجن سريّ؟ أو ربّما وبكلّ بساطة كنت مخطئاً في كلّ تخميناتي، ولم يكن هو مرسل هذه الكلمات القليلة بل نتجت عشوائيّاً بطريقة الصدفة.

أعترف أنّني تردّدت في الردّ على هذه الرسالة التي تشبه رسائل «شيريل بانغ»، لكنّي لم أفعل. كنت خائفاً. إذا كان بعث لي رسالته من علبة الرسائل الغريبة هذه دون توقيع فهذا على الأرجح بسبب أمرٍ ما. تخيّلته في الجحيم، والخضر يوصل رسائله إليّ، في بلاد الظلمات تلك حيث كان يستخدم السيف أو البندقيّة أو القنبلة، وقد أخذته الحماسة بعد الصلاة مع مقاتلين آخرين معصوبي الرأس مثله، كهؤلاء الذين نراهم في أفلام الفيديو على الإنترنت. أمّا الجبال الصحراويّة لأفغانستان أو الأصقاع الموغلة البعد في الصحراء، فتلك قصّة مختلفة تماماً.

«اهتمّ بنفسك يا خويا، فكّر فيّ وكلّ شيءٍ سيكون على ما يرام»، غادرت إلى تونس وهذه الجملة يتردّد صداها في رأسي.

٥

لم أخبر جوديت بشيء.

ومع ذلك أخبرتها كلّ شيء في الليل، في الليالي الأولى، عن مريم وبسّام والشيخ نور الدين، وعن أشهر تسكّعي وقارعي صاحب المكتبة بالعصا. أشفقت عليّ، وواستني في الظلمة بلمساتها كمن يبلسم آلام طفلٍ باكٍ بقبلةٍ سحريّة. أسررتُ لها بمخاوفي بالنسبة لاعتداء مراكش. اعترفت لي أنّ الفكرة نفسها خطرت لها هي أيضاً. كانت التقت بسّام مباشرة لدى خروجها من الفندق الذي نزلت فيه. قالت لي: اعتقدت أنّه كان برفقتك، وأنك حضّرت لي هذه المفاجأة، فأتيتما إلى مراكش معاً. ومن ثمّ خفت بعض الشيء، أخافني مرآه، بدا عليه أنّه متوتّر إلى أبعد حدّ، ومضطرب بشكلٍ محموم كما لو أنّه كان مريضاً. كان يتلفّت طيلة الوقت من حوله. ثم أضافت: تساءلت كثيراً عمّا إذا كنّا ذكرنا عرضاً اسم الفندق الذي سننزل فيه أثناء حواراتنا في طنجة. هذا محتمل، لكنّي لا أتذكّر. على أيّة حال أفضّل عدم التفكير في الأمر لأنّه يرعبني.

كنت موافقاً على ما تقوله. كلّ هذا مرعب. تحدّثت إليها عبر البريد الإلكتروني، عن الاعتداء الذي حصل في مقهى الحافة، وأظهرت لها الرسم الذي عمّمته الشرطة عندما عادت إلى طنجة.

قالت لي بكلّ بساطة إنّه هو، هذا مرعب، يجب القيام بشيء ما.

إنه هوَ، أمرٌ فظيع، إنّه بسّام، أصبح مجنوناً، يجب أن تذهب لإبلاغ الشرطة بما تعرفه.

حاولت إقناعها أنّه لم يكن هوَ. قلت لها لو كان في طنجة لعرفت ولاتّصل بي بطريقة أو بأخرى، فهدأ روعها قليلاً.

قلت نحن الآن نحرّض الخوف داخلنا.

لم أكن أريد أن أشغل بالها أكثر بأن أقول لها إنّني تلقّيت هذه الرسالة الغامضة. أردت أن تكون تونس كاملة، وساحرة، تماماً كما كانت طنجة ساحرة لستّة أسابيع خلت. كنت أريد أن أكون هنا لأجلها، لأساعدها في دروسها، وأحدّثها لساعات عن النحو والأدب العربيّين، لأضاجعها غالباً، لأضاجعها قدر الإمكان وأرى ماذا صار بحال الثورة.

حقّاً وفعلاً.

أتت جوديت لتصطحبني من المطار. كان الجمركيّون التونسيّون يشبهون نظراءهم المغاربة، بلباسهم الرمادي وبدانتهم. صرخوا في وجهي لأنّني لم أملأ بطاقة النزول من الطائرة التي كنت أجهل وجودها حتى لكنّهم عادوا ورحموني وأذنوا لي باسترجاع دوري دون أن أضطرّ للوقوف في الصف من جديد.

كانت جوديت في انتظاري عند المخرج. تردّدت لحظة في احتضانها بين ذراعيّ- ثم حسمت تردّدي فنحن في مطار بلدٍ ثوريّ. وضعت حقيبتي الصغيرة، أمسكت جوديت من خصرِها، عانقتني وتبادلنا القبلات حتى أبدت بعض الانزعاج من اندفاعة عواطفي.

كنت لأوّل مرّة أركب الطائرة، ولأوّل مرّة خارج بلادي. ثم

سرعان ما أخذت جوديت تستفيض بالكلام عن تونس، ودروسها، والمدينة، ومسكنها، وأصدقائها. كنت أنظر إليها، إلى شعرها الطويل الذي جعله الصيف أكثر إشراقاً، وملامحها الرقيقة المرسومة بإتقان، واستدارة خدّيها، وشفتيها المغويتين اللتين تخرج منهما كلّ هذه الأصوات ولا تتركان الناظر هانئ البال.

أخذ الليل بالهبوط.

قرّرت جوديت أن تقدّم لي تاكسي وتزوّرني المدينة. على يسارنا رأينا بحيرة تونس والسماء المصطبغة بالحُمْرَة قليلاً عند الغروب.

كانت تسكن في شقّة صغيرة ظريفة جدّاً على مسافة عشر دقائق سيراً على القدمين من معهد دراستها. الشقّة في الطابق الأرضي، مؤلّفة من غرفتين مطليّتين بالأبيض تطلّان على فناءٍ داخليّ مطليّ بالأبيض هوَ أيضاً، ومفترش بمربّعات من الخزف الأزرق، غرفة نوم مع فرشة كبيرة تُحاذي الأرض ومكتب صغير، وقاعة أخرى هي مطبخ وصالون وغرفة طعام في الوقت نفسه. والمجموع لا تتعدّى مساحته الثلاثين متراً مربّعاً. لكنّ تقسيم المساحة كان ممتازاً. أعترف أنّني استمتعت كثيراً بالعمل على جنودي الشجعان القتلى كلّ صباح وأنا أنظر إلى الظلّ يتقلّص في الباحة، ثمّ إلى شمس الصيف تنبجس على المربّعات الزرقاء؛ وفي المساء، عند عودة جوديت، كنّا نبلّل الأرض ونتمدّد عاريين حتى هبوط الليل على الأرض التي جعلناها رطبة منعشة.

السبت، أخذتني جوديت في زيارة لوسط تونس والمدينة القديمة. كان الحرّ أخفّ وطأة ممّا تصوّرت، أقرب إلى مناخ طنجة، وهبّ نسيم خفيف من البحر. كان التماع الضوء فوق

البحيرة من السطوع بحيث بدت البحيرة معه منبسطاً هائلاً من الملح باهر البياض. وجدت اللهجة التونسيّة رائعة، وأكثر عذوبة من اللهجة المغربيّة أو الجزائريّة يشوبها شيء ما مشرقي، على ما بدا لي. كانت المدينة متاهة رحبة تضلّل السيّاح، واضطررنا إلى التوغّل في أزقّة ضيّقة تجنّباً لأن ينادينا أحد كلّ دقيقتين:

«صديقي، صديقي، أتريد شاياً يا صديقي؟ هل تريد تذكاراً؟ سجّادة ؟». شعرت بفخرٍ كبيرٍ لأنّ جوديت ترافقني، وغالباً ما وُجّه إليّ الكلام بالفرنسيّة.

البارحة، عشيّة وصولي، حصلت مواجهات عنيفة بين المتظاهرين ورجال الشرطة أمام القصر الحكومي، في ساحة القصبة. ضُرِبَ حصار حول الحيّ كلّه، والشبّان المعتصمون الذين كانوا يطالبون، من بين مطالب أخرى، باستقالة وزير الداخلية، جرى تفريقهم بالهراوات والغازات المسيّلة للدموع. كانت مواقع الإنترنت تدعو إلى إعادة إحياء جذوة الثورة لئلا تخمد أو تنطفئ. فالانتخابات التي جرت في أكتوبر أدّت، كما كان متوقّعاً، إلى وصول إسلاميّي حزب النهضة إلى سدّة السلطة. كان الشبان يشعرون حقاً أنّ ثمرة تمرّدهم تسرق منهم، وأنّ الانتفاضة ستفضي إلى تأليف حكومة من المحافظين الأكثر تشدّداً، لكي لا نقول رجعيّة- وهي ديمقراطيّة بالطبع لكن لن يكون في المستطاع توجيه النقد كما كانت هيَ الحال أيام حكم زين العابدين بن علي. خُيّل إلي، لدى وصولي إلى ساحة القصبة التي لا تزال محاصرة وممتلئة بسيّارات الشرطة والجنود اللابسين خوذاً، أنني أشتمّ الرائحة القارصة للقنابل المسيّلة للدموع- دموع الثوريين الحارقة. امتدّت معارك الأمس إلى قسم كبير من البلاد، وفي سيدي بو زيد، معقل

المعارضة، استخدمت الشرطة الرصاص الحيّ لترويع الحشد على ما زعموا، لكن صبيّاً في الرابعة عشرة من عمره قُتل بشظيّة. ووفقاً لما قرأته على الإنترنت، فإنّ الكثير من المناضلين كانوا يعتبرون أن تجمّع نهار الجمعة كان من تنظيم الإسلاميّين.

وفي حرارة الصيف، اشتكى التونسيّون من غياب السيّاح (النسبي) أكثر من الحكومة المؤقّتة. كانوا يعلّقون آمالهم على تاريخ ٢٣ أكتوبر الذي سيضع حدّاً ديمقراطيّاً، على ما يبدو، للغازات المسيّلة للدموع وضربات الهراوات.

اعتراني، ربّما لأنني كنت غريباً عن البلاد، حزن ما جرّاء هذا الانتقال من حكم إلى حكم، فترة ما بعد الثورة، وبدت تونس مقعدة مجمّدة وسط دخان القنابل وحرّ الصيف.

لم أكن ابن بطوطة: لم ألتقِ بالعلماء النافذين ولم أسمع الخطب في المساجد، وإن كان ذلك لا يزعجني إطلاقاً، لكنّي كنت مضطرّاً والحالة هذه للذهاب إليها وحيداً لأنّ المساجد في تونس، كما في المغرب، محظورة على غير المسلمين. ألفَتْ جوديت هذا الإجراء عنصريّاً - أكّدت لي أنّ الحال مختلفة تماماً في القاهرة أو في دمشق- تحرّيت عن السبب فعلمت أنّ الفرنسيّين وتحديداً المندوب السامي الأوّل في المغرب، الجنرال ليوتي، هم الذين أرسوا هذا القانون ليشمل فيما بعد كافة أنحاء المغرب العربي تحت الهيمنة الفرنسيّة، وذلك بهدف توطيد الاحترام بين مختلف الطوائف الدينيّة. أجهل إذا كان هذا الإجراء جيّداً أو سيّئاً ولكن يبدو لي غريباً أن تتمكّن جماعات السيّاح من الدخول بحريّة إلى المسجد الأموي أو إلى مسجد الأزهر ولا تستطيع الدخول إلى مسجدَي القيروان أو الزيتونة، بصرف النظر عن جوديت التي، وإن لم تكن مسلمة، كانت تحفظ عن ظهر قلب أجزاء عديدة من القرآن وتُظهر احتراماً شديداً للدين الإسلامي. تضامناً معها، لم أدخل لرؤية الباحة الشهيرة المزدانة بالأعمدة القديمة وقاعات الصلاة في المسجد الأشهر في المغرب العربي، ولا عجبَ في ذلك. في الحقيقة لم

أسافر إلى تونس إلا طمعاً برفقة جوديت. مرّ الأسبوع بسرعة لكنّي شعرت أنّ الأواصر التي تربطنا كانت تزداد في كلّ يوم قوّة وحميميّة ما سيجعل فراقنا القريب شاقّاً وعسيراً. كنّا نتحدّث بلغة خاصّة بنا، وهي مزيج من العربيّة الفصحى واللهجة المغربيّة والفرنسيّة. كانت جوديت تحرز تقدّماً هائلاً في العربيّة مع كلّ يوم يمرّ. وعندما تعيَّن عليّ مغادرة تونس، بعد سبعة أيّام من العمل على الجنود القتلى وكازانوفا- كانت جوديت تراقبني أعمل، وتنظر إليّ شزراً ساخرة من جنودي الشجعان وناظرة بعين الغرابة إلى لغة البندقي كازانوفا - وجلسات التمدّد على البلاط الرطب في الباحة الداخلية، بركتنا الفقيرة المرتجلة، والنزهات في لاغوليت وقرطاجة ومرسا. آذنت ساعة الرحيل فزاد إحساسي بالإحباط حيال رجوعي إلى طنجة، لا سيّما أنّنا هذه المرّة نفترق دون أمل يلوح في الأفق، أو أيّ مشروع بلقاءٍ قريب. وعدتني جوديت بأنّها ستعود في الخريف، لكنّها كانت تجهل التوقيت والكيفيّة لعدم توفّر المال لديها.

وفي النهاية آن وقت الرحيل.

قلت لها وأنا أعانقها في مطار تونس:

- جاء دوري لآتي إليك.

- فكرة حسنة.

- سأجد طريقة للذهاب إلى برشلونة. الله كريم.

- صحيح. أنا في انتظارك إذاً.

- إن شاء الله.

- إن شاء الله.

وانطلقت مجدّداً واليأس يعتصر قلبي.

كانت العودة قاسية، ووَجَب عليّ الإسراع في العمل لأنّني لم أنجح في التزام الإيقاع الذي كنت أعمل وفقه على الجنود الموتى. لم يعد لديّ مال. وكان مشاركيّ في الإيجار يغيظونني ويرهقونني بتفاهاتهم. كنت أعتمد على شهر رمضان ليرفع معنويّاتي، لكنّ الصوم في الحرّ ونهارات الصيف الطويلة بدا شاقاً، وأنا نفسي، بصرف النّظر عن الظروف المحيطة بي، صعب عليّ في الوحدة التي أقاسيها أن أستعيد الجانب الاحتفالي والروحي للصيام الذي كان يجعل الجوع والعطش محتملين. أفكّر باستمرار في رمضان الماضي، مع بسّام، والشيخ نور الدين، ورفاق الفكر القرآني، وإفطاراتنا في مطعم صغير مجاور، وترتيل القرآن حتّى وقت متأخّر في الليل، وطعم الطفولة، الطعم الأليف والعائلي الذي اتّصف به شهر الصوم فيما مضى ويعود إلى ذاكرتي الآن، بالطبع، لكن ليمعن في مضاعفة كآبتي وحزني. وحيداً، كان الإفطار وقتاً للحزن. وعندما كنا نبذل جهدنا، أنا ورفاقي الذين لا يحتملون، أن نفطر سويّة، فإنّ الحساءات الجاهزة، وعلب السّردين أو المعكرونة الشريطيّة (هذا بغضّ النظر عن تعليقاتهم) زادت على الحزن حزناً. ثم أستغرق وحدي في قراءة القرآن، وابن كثير، لكن دون قدرة

على التركيز. كانت أسماء المجنّدين القتلى ومذكّرات كازانوفا تتراقص أمام عينيّ- حاولت مراراً أن أتناول الإفطار في المطعم وأذهب إلى المسجد لأستمع إلى التلاوة، لكن دون جدوى.

وما انقضى أسبوعان حتى توقّفت عن الصوم برغم نقمتي على نفسي، لكن بئس الأمر، الأفضل عدم التظاهر بما لا أريده. رحت أقضي وقتاً أطول في المكتب، لأنّ هواء المكيّف يجعل العمل أكثر احتمالاً: في المنزل أمكث عاري الجذع ومع ذلك أتصبّب عرقاً أمام لوحة مفاتيح الحاسوب. وأروح أتخيّل محاربيّ يقاسون العطش في الصيف، في الخنادق، والوحل الجاف المتشقّق. كان يأسرني عدد هؤلاء القتلى. لكلّ منهم اسم ومكان؛ أحياناً كنت أستطلع قاعدة البيانات[٢٦] لأتحقّق من هؤلاء الذين ماتوا في المكان نفسه، وعلى مرّ إدخال البيانات إلى الحاسوب، يظهر حجم الكارثة في فردان، ولاسوم، والشومان دي دام[٢٧]، وهي المناطق التي شهدت أولى المجازر. وعلى الفور، بعد العمل، كنت أشاهد أفلاماً وثائقيّة بخصوص الحرب العالميّة الأولى على الإنترنت: جحيم القذائف، حياة الخنادق، القرارات العسكريّة بتخابثها المريع. واستناداً إلى الوثائق التي نعمل على رقمنتها، كنت أعيد تركيب المعارك التي خاضها بلقاسم بن مولوب والكثيرون أمثاله: يوميّات مسيرة الفيلق الثالث للرماة الجزائريّين والعمليّات التي قام بها، نوفمبر ١٩١٤. في ٥ نوفمبر ١٩١٤: عند الساعة الواحدة شنّ

---

(٢٦) قاعدة البيانات: مجموعة بيانات منظّمة على شكل ملفّ أساسي بموضوع معيّن يجري تعديلها والإضافة إليها وفقاً للحاجة.

(٢٧) Verdun, La Somme, Le chemin des dames: مناطق فرنسيّة شهدَت معارك عنيفة إبّان الحرب العالميّة الأولى.

الألمان هجوماً على جبهة الفصائل الأكثر تقدّماً. تصدّينا لهذا الهجوم بنيران أسلحتنا. في الساعة السادسة، استأنف الألمان هجومهم العنيف على طول الجبهة للكتيبة الثانية التي استنفدت تقريباً كلّ ذخيرتها، انسحبت لكنّها تمركزت في الخنادق القديمة على طول الطريق، التي كانت احتلّتها في الثالث من نوفمبر. الكتيبة الثالثة في خنادقها قبالة الشمال. أرسِلت السريّة الثانية عشرة للدعم لكنّها لم تستطع أن تحدّ تماماً من حركة الانسحاب. تواصل القتال طيلة النهار. والدعم الذي أرسِل وصل متأخّراً جداً: عاين العدو نقطة الضعف وهاجم بقوّاته المجهّزة بشكلٍ فائق. لكنّ الألمان لم يستطيعوا اجتياز قناة «إيزير»[٢٨]. في السادس من نوفمبر ١٩١٤: عند الساعة الخامسة سُجّل إطلاق نار على طول الخطّ مصحوباً بقصفٍ مدفعيّ عنيف. لا تحرّكات للفرق. السريّة التاسعة تكبّدت ثلاثة قتلى تحت نيران القصف المتواصلة، ومن بينهم بلقاسم، لن يشهد نهاية الحرب ولن يعود إلى قسنطينة.

تلقّيت رسالة أخرى من بسّام. الآن كنت واثقاً بشكلٍ لا يقبل الجدل أنّه هوَ مرسلها:

«رمضان كريم، لخضر خويا! هنا نقاسي العذاب لكنّنا صامدون».

الرسالة مبعوثة من صندوق بريد غريبٍ هو أيضاً لكنّه مختلف والمرسل يُدعى روبرت سميث أو شيئاً من هذا القبيل.

ودوماً مكتنفة بالغموض.

---

(٢٨) إيزير: نهر منشؤه فرنسا يدخل إلى بلجيكا ويصبّ في نهر الشمال كان واديه مسرحاً لمعركة شرِسة استطاعت فيها الفرق البلجيكيّة الحليفة أن تصدّ الألمان في أكتوبر ونوفمبر ١٩١٤.

أحياناً، ولكي أحرّر أفكاري من كبوتها، كنت أذهب، في وقتٍ متأخّر من الأمسية للسباحة على أحد شواطئ الجهة الأخرى من المطار. كان المحيط الأطلسي بارداً مضطرباً لكنّ السباحة فيه ممتعة. تخطر جوديت في بالي باستمرار؛ أحلم أنّها ستأتي لِموافاتي بغتة أو أنّني سأذهب لِموّافاتها. أخبرتني أنّها تمضي عطلة في مكان ما في إسبانيا برفقة والديها. لم تعد تكاتبني كثيراً، فقط رسالة صغيرة من وقتٍ لآخر عبر هاتفها. كنت أخاف من أن تهجرَني أو تتعب، أو تلتقي رجلاً آخر.

كان يجب أن أرحل. باتت طنجة تسئمني.

قرّرت أن أتكلّم بالموضوع مع السيد بوريلييه، لربّما كانت لديه فكرة لمساعدتي- على أيّة حال، يجب على هواة القصص البوليسيّة أن يتساعدوا فيما بينهم. سألته ما إذا كان يستطيع عن طريق الصدفة أن يجد لي عملاً في شركته في فرنسا. جحظ عينيه قائلاً: فرنسا! ولكن إذا كنا قد تمركزنا هنا فهذا بالضبط لأنّ الكلفة أقلّ لا لنرسل عمّالنا إلى فرنسا! ثم أليست صديقتك في إسبانيا؟ (عاد يُحدّثني دون كلفة كما لو كنّا وحدَنا). قلت نعم لكنّي لا أتكلّم الإسبانيّة جيّداً، وإذا حصلنا على تأشيرة مرور «شينغن»، فبإمكاننا الذهاب إلى كلّ مكان.

قال لي:

- حظّكم قليل. لو أنكم صنعتم الثورة في المغرب لأمكنكم النزول بالآلاف على شواطئ سوتا أو طريفا كما فعل التونسيّون في لامبيدوزا. ولكان زاباتيرو أعطاكم تصاريح لإرسالكم إلى الشمال بمثابة هديّة إلى ساركوزي، على غرار برلسكوني... أمر مؤسف حقّاً.

كان يسخر منّا ذاك النذل!

- بالفعل، كان هذا سيشكّل مخرجاً جيّداً. لكنّ الثورة انتهت هنا. وإصلاح الدستور تمّ تبنّيه، والانتخابات ستجري لتشكيل حكومة جديدة.

- وهل أنت مسرور؟

قلت:

- لا أعرف. كلّ ما أريده هو أن أكون حرّاً في السفر وكسب المال والتنزّه باطمئنان مع صديقتي والمضاجعة إذا راق الأمر لي، والصلاة ساعة أشاء، وارتكاب الخطيئة ساعة أشاء، وقراءة الروايات البوليسيّة كما يحلو لي دون أن يتدخّل أحد في شؤوني ما عدا الله نفسه. ومطلبي هذا، لا يبدو أنّه سيتحقّق في المدى المنظور.

نظر إليّ بطريقةٍ صارِمة. وفجأة شعرت أنّه يأخذني على محمَل الجدّ.

ثمّ أضفت وقد أخذتني فجأة الحميّة:

- كلّ الشبّان مثلي. الإسلاميّون محافظون قدامى يسرقون منّا ديننا فيما يُفترض أن يكون ملك الجميع. لا يقترحون علينا إلاّ العقاب والمحظور. واليسار العربي مجموعة من النقابيّين القدامى يفصلهم عن الواقع مدى إضراب يدعون إليه. فمَن سيمثّلني؟

فجأةً بدا جان فرنسوا ساهِماً.

- هل تعرف، لست واثقاً من أنّنا في فرنسا أكثر حظّاً على الصعيد السياسي... أضف إلى أنّه مع هذه الأزمة...

وبدا عليه أنّه ممعن في التفكير...

- اسمع، بالنسبة لمشروع سفرك، خطرت لديّ فكرة. لا

أعدك بشيء، لكنّي أعرف بامتياز أحد مديري شركة كوماريت. لديهم خطوط إلى إسبانيا، وإلى فرنسا أيضاً. على الأقلّ بإمكانك أن تسافر. يزعجني أنّني سأخسرك، لكنّك ما دمت تريد الترحال، ليكن لك ما تريده فهنا، بغضّ النظر عن الكتب، فلن تترحّل كثيراً.

كان كلّ الطنجاويينّ يعرفون شركة كوماريت، شركة الملاحة، لأنّ اسمها مكتوب بأحرف كبيرة على العبّارات التي تدخل إلى المرفأ آتية من طريفا أو من ألجزيراس. لا أعرف كثيراً ما الذي يمكنني فعله على متن المعدّيات. ليست لديّ أيّة خبرة بحريّة، لكنّ هذا الحوار مدّني بالأمل من جديد. وأبان لي هذا الحديث الصريح مع السيّد بوريلييه حقيقة كياني: أنا مغربيّ من طنجة في العشرين من عمره لا يرغب إلاّ في الحريّة. كتبت مطوّلاً لجوديت لأستعرض لها خطّتي الجديدة والإمكانات المتماشية معها، فأجابتني في الحال: «نعـــــــم»؛ وشعرت بقلبي يرقص ببهجة في صدري.

في تلك الليلة، طاردتني كوابيسي، حلمت أنّني كنت أصفع جوديت بقوّة كبيرة، ثم أوسعها ضرباً لأنّها كانت تغار من مريم. أضرِبها بكلّ قواي فيتعالى صراخها وتتخبّط بين ضربة وأخرى دون أن تحاول الهرب- بعد وقتٍ قليل وافيْتُ مريم إلى غرفتها. بدأت بمداعبتها وجرّدتها من ملابسها، ووضعْتُ يدي بين فخذيها اللتين كانتا دافئتين، ثم التفتت إلى شيخٍ عجوزٍ كان جالساً بجوار السرير أخذ يقول لي: لخضر هذا طبيعي الموت يدفئ الجثث لبعض الوقت، هكذا هو الأمر، وقلت له بِدَوري إنّه مزعج منظر كلّ هذا الدم المتدفّق من هنا وكان يجيبني لكنّ هذا الدم هوَ منك، ونظرت إلى قضيبي، كان السائل الأحمر يتدفّق من مجرى البول، دون توقّف: كلّما تهيّجت عند احتكاكي بجسد مريم الحارق وبجثّتها التي غدت متوهّجة بفعل الموت الطويل، زاد انبجاس الدم. ولجت مريم، راح عضوي يُستنفد في عضوها فيما عيناها لا تزالان مغمضتين. حلّت جوديت مكان الشيخ على جانب السرير: كانت تقول نعم استمرّ في الإيلاج، ما تفعله جيّد، أرأيت، أنت تملأها، هذا حسن، انظر. وبالفعل كان الدم يخرج من شفتي مريم الجامدتين ويفيض من منخريها على أسنانها البيضاء. ذعرت لكنّي

لم أستطع إيقاف نفسي، وظللت أروح وأجيء داخل فرجها الدافئ الدبق.

استيقظت وأسفل بطني دبق من المنيّ وقلبي يخفق بسرعة مُروِّعَة.

قلت لنفسي إنّني لا بدّ مجنون، ومصاب بمرض عقليّ مرعب. تكوّمت في الليل على نفسي مثل كلبٍ وأنا أنتحب ضائقاً بألمي.

القسم الثاني

البرزخ

•

الصورتان اللتان احتفظت بهما دوماً في محفظة نقودي هما الأثر المادي الوحيد المتبقّي من طفولتي: صورة لِمريم وهي صغيرة أثناء عطلة في القرية جالسة تستند إلى شجرة، وصورة لوالدتي تحمل بين ذراعيها نور أختي الصغرى. ولا شيء آخر. تساءلت مراراً ماذا كان حصل لو أنّي، بدلاً من أن أهرب إلى الأمام دوماً، بدلاً من أن أحاول الفِرار من تبعات أفعالي، عدت إلى منزل أهلي، ساعياً بإصرارٍ إلى فرض نفسي مهما كلّف الأمر، وإظهار توبتي راضياً بكلّ العقوبات والإهانات. تساءلت مراراً هل كانوا سيتقبّلونني في آخر الأمر فأجد لي مكاناً بينهم. بالتأكيد هذا السؤال لا يُطرح، ويجب تقبّل الأسفار التي هيَ الوجه الآخر للقدر. وكمثل هؤلاء الجنود الذين رحلوا عام ١٩١٤ عن قريتهم أو عن دوارهم دون أن يعرفوا ماذا ينتظرهم، تسلّقت في ٢١ سبتمبر ٢٠١١ المعدّية «ابن بطوطة» *Ibn Batouta* التابعة لشركة كوماناف-كوماريت *Comanav Comarit* في مرفأ طنجة المتوسط في أوّل رحلة لي لاجتياز المضيق باتجاه ألجزيراس، بصفتي خادماً وبخاصّة رجلاً يتقن فعل كلّ شيء، أو نوتيّاً حدثاً، الأمر سواء ما بالكم. بدا لي اسم السفينة «ابن بطوطة» إشارة من الغيب، وفألاً حسناً. ورغم

أنّ الطاقم راح ينظر باستهزاء إلى هذا الأبله الذي لم يطأ أرض سفينة من قبل، قلت في نفسي لا عليك المهمّ أن تجعلهم يتقبّلونك تدريجاً. سعيت لأكون خدوماً وأردّ بِلطف على نظرات الاحتقار، ما كان يحملهم على الاعتقاد بأنّني ضعيف الشخصيّة أو مغفّل، لكن هذا أيضاً لا يهمّ ما دمت أعبر البحر في طريقي إلى إسبانيا. لم أكن أملك بالطبع تأشيرة مرور للخروج من مرفأ ألجزيراس؛ كلّ ما يمكنني فعله حتّى الآن هوَ عبور المضيق ذهاباً وإياباً والدوران في حلقته، لكن لا بدّ لهذا التجوال المتواصل أن يُتيح لي يوماً النزول في أرض إسبانيا.

لم أكن أملك أيّ خطّة.

وافق صديق جان فرنسوا على توظيفي لِقاء أجرٍ زهيد يؤمّن لي ثمن الإيجار في طنجة. قال لي لا تقلق هناك الإكراميّات والعلاوات والأعطيات. كان السيّد بوريلييه حزيناً لِسماحه لي بالرحيل، إذ لا تزال هنالك لوائح من الجنود القتلى الذين يجب منحهم حياة رقميّة، ومن الكتب التي تنتظر حياة إلكترونيّة جديدة، لكنّه كان في الواقع سعيداً لأجلي، على ما أعتقد. قال لي وهوَ يُصافحني أتمنّى لك إبحاراً موفّقاً وتذكّرْ دوماً إذا أردت العودة فعلى الرّحب والسّعة.

لم تكن «ابن بطوطة» سفينة Pequod[٢٩]، ما من صارية فيها، ولا وجود لزيت الحوت: كانت عمارة بحريّة بريطانيّة قديمة صُنعت عام ١٩٨١ يبلغ طولها مئة وثلاثين متراً ويمكنها نقل ألف راكب

---

(٢٩) Pequod: إشارة إلى سفينة «بيكود» في رواية «موبي ديك» لهيرمان ملفيل، وفيها يبحث البحّارة عن الحيتان البيضاء الغنيّة بالعنبر والزيت.

وشحن مئتين وخمسين سيّارة بسرعة تسع عشرة عقدة بحريّة[٣٠]، برغم طبقات الطلاء التي أضيفت إليها تباعاً لتصل سماكتها إلى متر والتي من شأنها أن تبطئ سيرها قليلاً. كان يلزمُنا بين ساعة ونصف وساعتين للوصول إلى الأندلس. وكنّا نقوم بِنوبتين في النهار؛ إمّا أن أبدأ في المساعدة على تحميل الشاحنات والسيّارات عند الساعة السادسة صباحاً فأعود عند الساعة السادسة، وإمّا في الساعة الحادية عشرة صباحاً لأكون في المنزل والحالة هذه عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.

أذكر جولتي البحريّة الأولى. البحر، رأيته كلّ يوم منذ ولادتي: وهذه العبّارات راقبتها لساعاتٍ طِوال تجتاز المضيق، وها أنا الآن على متن إحداها. كنّا في شهر سبتمبر، وفصل الهجرة إلى الشمال لم ينتهِ بعد. امتلأت السفينة بالمغاربة العائدين إلى ديارهم في إسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا. كان هناك صناديق محمّلة بإحكام، ومقطورات، وعائلات بكامل أفرادها (الجدّ والجدّة والأب والأم والابن والابنة، وحتّى أحياناً العم والعمّة والأقارب) متكدّسة غالباً في سيّارتين أو حتّى في ثلاث سيّارات، ورغبتهم في العودة تبدو متناسبة عكس سنّهم: الشبّان نفد صبرهم فيما العجائز يتنهّدون. كانت النزهة في المعدّية بالنسبة لكلّ هؤلاء الناس استراحة صغيرة قبل سلوك الطريق الطويلة التي تنتظرهم، والتي تستغرق اثنتي عشرة أو عشرين أو ربّما ثلاثين ساعة في السيّارة.

كان ذلك أوّل يوم عملٍ عندي ولم أحسن القيام بشيء؛ أوكلت إليّ مهمّة المساعدة في قيادة المركبات، لكن بما أنّني لم

---

(٣٠) عقدة بحريّة: سرعة ميل بحري واحد في الساعة.

أكن أحسِن توجيه السائقين ليركنوا مركباتهم، فقد طردني المسؤول عن الشحن بسرعة قائلاً لي: انقلع من أمامي، لا بل كلمات أكثر ابتذالاً من هذه، عندئذٍ صعدت إلى الجسر الأعلى، هناك حيث توجد الكافيتريا، وساعدت البارمان في تنضيد بعض صناديق البيبسي في الثلاجات حتى قال لي بدوره أن أغرب عن وجهه لأنني كسرت قنينة بسبب رعونتي. وذهبت لأتّكئ إلى حاجز السفينة منتظراً عمليّة الإقلاع. انبعثت من جسر السفينة رائحة هيَ مزيج من السمك الطازج والغازول[٣١]. اهتزّ المعدن بنعومة تحت ذراعيّ على إيقاع محرّكات الديزل. اختفى صفّ السيّارات والشاحنات تدريجاً في أحشاء المعدّية. أعجبتني رؤية كميّة المادّة الجامدة والحيّة التي تستطيع هذه الدابّة العملاقة، التي حملنا عليها، نقلها.

استقبلني ضابط البحريّة المعاون على متن السفينة مرحّباً بي. كان في الأربعين من عمره. كنت أجهل تماماً كلّ شيء عن المراكب، وهذا يبعث على الضحك، وخصوصاً أسماء الأشياء. فالملاحة هيَ قبل كلّ شيء مصطلحات: الجؤجؤ، الكوثل، الميسرة، الميمنة. تلقّيت منَ الرفسات في المؤخّرة، الحقيقيّة منها والمجازيّة في هذه الأشهر الأربعة أكثر ممّا تلقّيت في حياتي كلّها. لكنّي تعلّمت شيئاً ما في نهاية المطاف. عرفت كيف أركن المركبات كفروخ السردين في العلبة. وتعلّمت أن أقود، في السفينة الرديئة الهائلة، الآلات حتّى العبّارة، وتعلّمت شيئاً فشيئاً كيف أحمل البحّارة إن لم يكن على تقديري فعلى تقبّلي أقلّه.

---

(٣١) غازول: نفط سائل يميل لونه إلى الصفرة ويُستعمل في توليد الحرارة والمحرّكات.

كان هناك القليل منَ الشبّان على متن «ابن بطوطة». فمعظم أفراد الطاقم تخطّوا الأربعين. ويجدر القول إنّ عديدنا لم يكن كبيراً بالنسبة لسفينةٍ من هذا الحجم. كما أنّ غياب الخدمة في الحجرات وفي تقديم الطعام (كنتُ أبيع سندويشات وتشيبس في الكافيتريا)، سمح بتقليص عدد العاملين. على أيّة حال كانت الجولة في المعدّية أقصر من أن تسمح بالاهتمام بهكذا تفاصيل.

لم أكن سندباد، هذا أكيد. برغم هدوء البحر، أثارت اهتزازات المركب فيّ إحساساً غريباً وكأنّني دخّنت الكثير من لفافات الحشيش- لم يكن ما أحسّ به توعّكاً فعليّاً، لكنّي أشعر أنّني لست على ما يرام. بدا لي جسدي، وساقاي خصوصاً، وكأنّه لا يستجيب للقوانين التي تسيّره على اليابسة، بل يعتريه تموّج خفيف أو تأرجح بالأحرى. إنّه إيقاع جديد يجعل أتفه الحركات- كتسلّق السلّم أو عبور الجسر- تخرج عن مسارها : فجأة لا يعود التنقّل سليقة نستطيع القيام بها تلقائيّاً ودون تفكير. كان كلّ شيءٍ يذكّرك بخلاف ذلك بضرورة أن تكون منتبهاً لكلّ حركة تقوم بها أيّما انتباه، وإلا تعرّجت أو انزلقت بخفّة أو وجدت نفسك كما حدث لي، خلال العاصفتين أو الثلاث التي واجهتهما في نوفمبر، ساقطاً صراحة على مؤخّرتك ومتزحلقاً على أرضيّة المركب بسبب حازوقة أصابته.

لكنّ الإبحار على متن السفينة أمر رائع، والمناظر تبعث على النشوة. في الصباح، عندما تكون الشمس خفيضة، تتراءى تلال المغرب في البعيد متلألئة لتصبح بقعاً خضراء وبيضاء، شواهق جديرة بالعمالقة، بهرقل، ويبدو النور وكأنّه يتراقص على الأعمدة، لجهة رأس سبارتل. ثمّ لدى اقتراب الساحل الأندلسي تعود إلى

الذاكرة حملة طارق بن زياد فاتح إسبانيا، وهجمات هؤلاء البربر الذين هزموا القوطيّين الغربيين. أمّا أنا فكنت قائد جيشي الخاصّ من الشاحنات وسيّارات رينو القديمة والمرسيدس؛ معاً كنّا سنستعيد غرناطة، ولن تعيقنا في سعينا شرطة مرفأ ألجزيراس. لكن لبلوغ هذا الهدف، يجب قبل كلّ شيء أن تُخدّر البلاد كلّها ببضعة أطنان من الكيف الريفي الجيّد المتساقط مجاناً فوق المدن الكبيرة على شكل غارة جويّة؛ وأن تدكّ فيالق من الغنّاوة[٣٢] أسوار المدن الأخيرة المعاديَة بآلاتهم الموسيقيّة، فتغادر عندئذٍ شاحناتي وسيّاراتي المليئة بالمهاجرين أحشاء «ابن بطوطة» أخيراً وتسير في موكب مجيد متوجّهة إلى الحمراء لتعيد إسبانيا مغربيّة، وهذا ما كان يجب أن تتوقّف أبداً عن أن تكونه.

لا بدّ أنّ رجال الشرطة في مرفأ ألجزيراس كانوا يقرأون أفكاري لأنّهم كانوا ينفرون منّا وكأنّنا الطاعون ويرتابون بأنّنا نحاول خداعهم ونقوم بالتهريب أو نسهّل عبور المهاجرين خفية. وأخيراً، أقول نحن، فيما يفترض بي أن أتكلّم بالأحرى عن بحّارة المركب القدامى. أمّا أنا، فكانوا يستخفّون بي. ولدى الوصول إلى رصيف المرفأ، يبدأ الإنزال؛ حين وطئت أرض أوروبا انتابني شعور غريب، في البداية- ثم أفهمتني قضبان الحديد وتخشيبات الجمارك خلفي أنّني في الحقيقة كنت في اللامحدود.

في نهاية شهر أكتوبر، وفيما كان التونسيّون يوصلون بطريقة ديمقراطيّة إسلاميّي حزب النهضة إلى السلطة، ويتحضّر الإسبان

---

(٣٢) الغناوة أو الكنّاوة يتحدّرون من سلالة العبيد الذين تمّ استيرادهم خلال العصر الذهبي للإمبراطوريّة المغربيّة ويتميّزون بغنى إرثهم الموسيقي.

لانتخاب الكاثوليكيّين في الحزب الشعبي، ومثلهم يستعدّ المغاربة، وفي الوقت نفسه تقريباً، للذهاب إلى صناديق الاقتراع، حينئذٍ بدأت أملّ هذه الرحلات العقيمة في المضيق ذهاباً وإياباً. كان راتبي يتأخر، ولا من يدفع لي، وتقلّصت مدّخراتي إلى حدّ كبير؛ غدا العمل متعباً ورتيباً. إلا أنّني اتّخذت لي صديقاً في قلب الطاقم، وهو سعدي، بحّار قديم في الستّين من عمره كان طاف أنحاء الأرض كلّها، ويمضي فترة تقاعده غير النظامي في المضيق. روى لي قصصاً غير مسبوقة ما سهّل مرور الوقت.

لم يعد يتسنّى لي الوقت كثيراً لمتابعة مهنتي كشاعر. أعود منهكاً تماماً إلى البيت فأعجز عن الانصراف إلى الكتابة، وحتى القراءة باتت نشاطاً أزاوله نهار الأحد، عند انقطاعي عن العمل. كانت شقتي بعيدة جداً عن مرفأ طنجة المتوسّط ويلزمني ثلاثة أرباع الساعة في الباص لكي أذهب إلى العمل أو أعود منه. وأخيراً رحت أتساءل عمّا إذا كنت ارتكبت حماقة كبيرة بتركي السيد بوريلييه والجنود الموتى. لم تكن جوديت تغيب عن بالي لكنّ مراسلتي معها لم تعد متواصلة. في أوّل عهدٍ لي في العمل، كنت أفيد من محطاتي المتكرّرة في ألجزيراس لكي أبعث لها برسالة مكتوبة بخطّ اليد إلى برشلونة- أكتب لك من الأندلس- لكن سرعان ما أدركنا أنّ هذه الرسائل وهذه البطاقات البريديّة تستغرق على الأقلّ الوقت نفسه لتصل إليها ممّا لو كنت أرسلتها من طنجة. كانت جوديت تنخرط أكثر فأكثر في مناهضة النظام القائم، على حدّ قولها. التحقت بجماعة مفكّرين تابعين لتيار «المستائين» الذين كانوا يحضّرون لتحرّكات عديدة على نطاق واسع استعداداً لمرحلة ما بعد الانتخابات. كان وصفها للوضع في كتالونيا مرعباً، فاليمين القومي

المستحوذ على السلطة يدمّر بطريقة شاملة جميع المرافق العامّة، وعلى رأسها الجامعة حيث يجري إلغاء مواد، وتتقلّص أجور الأساتذة من فصلٍ لآخر. كما أعربت عن قلقها على مصير التعليم الجامعي حسب قولها لا سيّما وأنّ نوعيّة الأساتذة لم تكن بالأصل جيّدة. كانت تشعر أنّها عند مفترق طرقٍ، في السنة الأخيرة قبل نيلها الدبلوم، ويتعيَّن عليها، بالإضافة إلى تردّدها في أن تصبح مترجمة فوريّة، أن تختار اختصاصاً، أو إقامة طويلة في العالم العربي. أي أنّها، باختصار، كانت حائرة بعض الشيء ومستاءة إذاً أكثر فأكثر.

تلقّيت رسالتين أو ثلاثاً من بسّام وكانت كلّ واحدة أشدّ غموضاً من الأخرى، ومبعوثة في كلّ مرّة من صندوق بريد مختلف. لم يكن يسأل عن أخباري ولا يزوّدني بأخباره، بل يشتكي فقط من صعوبة العيش مستشهداً بآياتٍ قرآنيّة: «إذا جاء نصر الله والفتح»، إلخ؛ وبسورة أخرى، سورة الأنفال «إذ يوحي ربّك للملائكة أنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان».

لم يتبنّ أحد الاعتداء على مقهى الحافة وانقطع الحديث عنه في الصحف. وحدها الانتخابات كانت تستحوذ على اهتمام الصحافة، الانتخابات في تونس، والمغرب، وإسبانيا. كنت تشعر موجة من الديمقراطية تتدفّق على عالمنا.

أمّا أنا فكنت معلّقاً، أسكن المضيق. لم أكن هنا ولا هناك، على أهبة الرحيل بشكلٍ أبدي، في البرزخ، بين الحياة والموت.

كانت كوابيسي المتواترة تفسد عليّ حياتي، إمّا كنت أحلم

بمريم وبأنهار الدم، وإما ببسّام والشيخ نور الدين. وأرى اعتداءات، وانفجارات، ومعارك، ومجازر بالسلاح الأبيض. أذكر، ذات ليلة مرعبة بشكلٍ خاص، حلمت أنّني رأيت بسّام شاخص النظرات يضع عصابة على جبينه، ويذبح جوديت ممسكاً شعرها وكأنّها خروف. طاردني هذا المشهد الفظيع لعدّة أيام.

عندما كان يتسنّى لي الوقت، كنت أحاول أن أصلّي في أوقاتٍ منتظمة لأشعر بالراحة النفسيّة. فأستعيد القليل من هدوئي من خلال الركعات الطقسيّة والصلاة المفروضة والنوافل. كان الله رحيماً، ويحمل لي بعض العزاء.

وجب عليّ إيجاد وسيلة لتعزيز مخزوني من القصص البوليسيّة. القصّة الوحيدة التي بقيت معي كانت هديّة الرحيل من جان فرنسوا: نسخة من المشرحة المليئة لمانشيت، وقد أهداني إيّاها لأنّه كان يملك منها نسختين. رواية شيّقة، لا بل شيّقة جدّاً، مكتوبة بضمير المتكلّم، عن قصّة جنديّ سابق في قوى الأمن يُدعى أوجين تاربون أصبح فيما بعد تحرّياً خاصاً عاطلاً من العمل، يحتسي شراب الريكارد وهدفه الوحيد الرجوع عند أمه في أقاصي فرنسا والعيش معها. كانت الرواية مسلّية ومضحكة إلى حدّ اليأس.

ليس لدى جوديت المال لكي تأتي لزيارتي. وليس لديّ تأشيرة مرور لأستقلّ الباص من ألجزيراس وأصعد لرؤيتها في برشلونة. لا أستطيع رؤية إسبانيا إلاّ من خلف قضبان الجمارك كمئات الشبّان مثلي الذين ينظرون إلى الأسلاك الشائكة حول سبتة ومليلية ولا حيلة لديهم. الفرق الوحيد هو أنّني كنت على اليابسة. تخيّلتني طويلاً مختبئاً في شاحنة أو محاولاً أن أتسلّل خفية عبر صفّ

السيارات. وكان بإمكاني فعل ذلك ولكن ما النفع. بدأت طاقتي تنضب. والقوة التي أمَدّني بها حضور جوديت وجسد جوديت في تونس أخذت في التلاشي تدريجاً. وكلّ ما فعلته الاستسلام لمرور الأيّام والإبحار دون كبير أمل، مستعدّاً لعبور الأبديّة بين ضفّتي المتوسّط.

حصل ذاك في يناير. كانت ضربة أخرى من ضربات القدر. لم نكن قد قبضنا سنتيماً واحداً من أجورنا منذ سبتمبر، وآل بي الأمر إلى اليأس، والتخطيط الجديّ لتجديد التطوّع في خدمة جنودي الشجعان. حينذاك لم تكن جوديت تزوّدني بأيّ شيء عن أخبارها تقريباً وتجيب باقتضابٍ شديدٍ على رسائلي ما جعلني أبدأ في الارتياب بأنّها تعرّفت على رجلٍ آخر. كنّا وصلنا إلى ألجزيراس في الصباح كما هيَ العادة، وانتظرنا طيلة النهار الأمر بالإقلاع دون أن نفهم لماذا لم يصلنا. إلى أن استدعانا القبطان في المساء. كنّا اثنين وثلاثين عاملاً في الكافيتيريا. بدا القبطان غريب السحنة، مندهشاً أو ربّما محبطاً أو ربّما هما معاً. صارَحَنا بالأمر: قال يا شباب، أصدر القضاء الإسباني حجزاً على المراكب. لا يمكننا التحرّك من هنا حتى إشعارٍ آخر. فالشركة تَدين بملايين الأورو ثمن المحروقات، والحقوق المرفئيّة. تلك هي الحال. رفع نظره باتّجاه الصالة. بدأ الجميع في الكلام في الوقت نفسه. ردّ على الأسئلة التي طرحها أقرب العمّال مسافة إليه. قال: نعم، بإمكانكم العودة إلى طنجة على عبّارة تابعة للشركة المنافسة؛ سيقلّونكم معهم بالطبع، لكنّ هذا التصرّف سيُعتبر بمثابة تخلٍّ عن الوظيفة، ونقضٍ للعقد تفقدون معه مستحقّاتكم غير المدفوعة في حال بيعَت السفن.

هذا موجز ما فهمته. وبدا لي عبثيّاً بشكلٍ تام. كنّا عالقين في مرفأ ألجزيراس. قلت في نفسي حسناً، أنا سأعود. سأعود إلى السيّد بوريلييه وإلى حرب ١٩١٤ وما كان عليّ أن أتركهما أبداً.

تابع القبطان ردوده على الأسئلة قائلاً:

- لحسن الحظّ، الخزّانات مليئة، ولدينا ما يكفي من الوقود لأجل الكهرباء والتدفئة لوقتٍ طويل نسبيّاً. علينا أن نتدبّر أمرنا أيضاً لكي لا نموت جوعاً. وفي أسوأ الأحوال سنطلب من زملائنا أن يمدّونا بالمؤن من طنجة.

- أنا مجبر على البقاء، نعم، أمّا أنتم... فكما تشاؤون.

- ربّما بقينا أسبوعين، ربّما أقلّ. يكفي أن تدفع الشركة جزءاً من دين البضائع لكي يُرفع الحجز.

- ليس المأوى ما ينقصكم، مفهوم؟ جميع الحجرات في تصرّفكم... ولا بدّ أنّ هناك شراشف وأغطية إضافية.

- لا أعرف كيف ستمضون الوقت يمكنكم أن تتسلّوا بلعبة الألغاز. لو كنّا في قوّات البحريّة لاستفدنا من هذا الوقت بإعادة طلاء هيكل السفينة.

بدأ بالمزاح. وجاراه أشخاص عديدون فيما وجد آخرون الأمر أقلّ إضحاكاً لا سيّما هؤلاء الذين تركوا خلفهم زوجة وأولاداً في طنجة.

غريبٌ أن نكون عالقين هنا على بعد عشرة أميال من ديارنا: أي على مسافة أقلّ من ساعة على الدرّاجة في طريق مستوية.

في اليوم التالي، انتشر الخبر في الجريدة المحليّة التي جلبها لنا عمّال إسبان يعملون في الأحواض:

«مأساة عماليّة جديدة تدور رحاها في قطاع الملاحة في مرفأ

ألجزيراس. إنّ مئة وأربعة بحّارةٍ يشكّلون مجموع طاقم الأسطول المكوّن من أربع سفنٍ «ابن بطوطة»، «باناسا»، «المنصور»، «البخعاز»، هم في وضعٍ لا يُحسدون عليه بعد أن تخلّت عنهم شركة الملاحة المغربيّة كوماريت، التي تواجه مشاكل ماديّة خطيرة، وتركتهم لمصيرهم. إنّها مأساة اجتماعيّة لا تقتصر فقط على مرفأ ألجزيراس بل تتعدّاه إلى مرافئ متوسطيّة أخرى». (٣٣)

في الصحيفة صورة لسفينة «ابن بطوطة» يظهر فيها بضعة بحّارة، أنا أحدهم. هذه هي المرّة الأولى التي تظهر صورتي في الجريدة، أردت أن أرسل الرابط إلى جوديت عبر الإنترنت، لكن بالطبع لم يكن هناك اتّصال. أرسلت لها «أس. أم. أس.» لأحيطَها علماً بالأمر فأجابتني على الفور تقريباً: «هكذا إذاً! غير معقول! أعلمني بكلّ ما يجري!»

لِوَهلة تصوّرت أنّها ستركب باصاً وتأتي لرؤيتي فهي بوسعها الدّخول إلى المنطقة الجمركيّة دون أيّ مشقّة. حلمت بأنّني آخر بحّارٍ على متن «ابن بطوطة»؛ كان المركب كلّه لنا؛ جهّزت حجرة جميلة وأمضينا عطلة ولا في الأحلام؛ رحلة بحريّة رائعة في سفينة متوقّفة ناظرين إلى الحاويات وهي تترنّح تحت الرافعات ورواح السفن ومجيئها.

---

(٣٣) بالإسبانية في النص:
Un nuevo drama laboral en el sector maritimo recala en el puerto de Algeciras. Un total de 104 marineros, los que componen la tripulacion de los buques Ibn batouta Banasa, Al Mansour y Boughaz, afrontan una situacion muy precaria, abandonados a su suerte por la naviera marroqui Comarit, que se encuentra en graves problemas economicos que están motivando un drama social que salpica tambien a otros puertos del Mediterráneo.

لكن مهلاً، كان هناك ثلاثون بحّاراً على الأقلّ بيني وبين أحلامي. لم أكن أتخيّل نفسي أقول إلى القبطان أو إلى سعدي: «يلزمني حجرة مزدوجة. دعوت صديقتي لقضاء بضعة أيّام معنا»، وكأن معدّيتنا بيت في الريف. كنّا نتلقّى بعض الزيارات- من صحفيّين أو عاملين في المرفأ خصوصاً- لكن لا أحد بالطّبع كان يبقى لقضاء الليلة.

مرّ الوقت ببطء شديد. في الصباح، أذهب للتنزّه قليلاً على رصيف المرفأ. كنت أحيّي العمّال الإسبان هناك، وغالباً ما كانوا يقدّمون لي القهوة وندردش بضع دقائق. يسألونني ما الأخبار، وأجيبهم دوماً لا جديد فيقولون لي، يا للبلاهة! *qué locura*، يمكنهم أن يمنحوك تأشيرة مرور لتقوم بجولة في المدينة. وكنت أجيبهم دوماً: نعم ليس هذا سيّئاً *no estaria mal*، وأنا آمل، رغم ارتيابي التامّ، أنّ يبادر أحدهم ويذهب للتحدّث إلى رجال الشرطة. قال أحدهم مازحاً وهو يفرغ خليطة[٣٤] من الحمضيّات، فليرسلوا لكم برتقالاً من عندكم، فهذا موسمه، ولم يلبث أن زجره آخر أكثر تضامناً معنا قائلاً له ليس في الأمر ما يُضحك، ضع نفسك مكانهم، تصوّر أنّنا عالقون في مرفأ طنجة، ليس الأمر مضحكاً صراحة.

بعد القهوة كنت أقوم بجولتي على أحواض السفن. وكنت أسجّل ذهنيّاً حركات السفن؛ كان هنالك مراكب لكلّ شيء، من أشكال مختلفة وفقاً لمحتوياتها؛ مراكب تحوي أقفاص دواجن وفيها آلاف الدجاجات المقوقئة؛ عمارات بحريّة محمّلة بالموز والأناناس وتنبعث منها رائحة نفّاذة لدرجة تشعر معها أنّ رأسك

---

(٣٤) خليطة: سفينة تُشحَن فيها بضائع بلا توضيب.

غارق في عصير الفواكه؛ برّادات تفيض بالمنتوجات المثلجة في حاوياتٍ خاصّة؛ بارجاتٍ هائلة تنوء بثقل خطوط سكك الحديد، والرمل، والإسمنت؛ صوامع للحبوب كأنّها إهراءات عائمة؛ وحاملات حاويات حديثة أشبه بمبانٍ حقيقيّة متعدّدة الألوان تصل إلى عشرة طوابق. بعض هذه السفن كانت تأتي من مكان بعيد جداً، من قناة السويس أو المحيط الأطلسي، وأخرى من مرسيليا أو هافر أو أوروبا الشماليّة. ونادراً ما كانت تبقى على الرصيف أكثر من بضع ساعات. بعضها جديد أو حديث الطلاء، وبعضها يجرّ وراءه، بالإضافة إلى حمولته أطناناً من الصدأ، وللناظر أن يتساءل ما المعجزة التي تصونها فلا تتحطّم عند أوّل موجة تصطدم بها.

ثم كنت أعود إلى «ابن بطوطة»، كان هنالك دوماً عمل سخرَة يجب القيام به، من تنظيف جسر السفينة وسواه وغسيل ثياب وتقشير بطاطا. لم يعيدوا طلاء السفينة كما لمّح القبطان مازحاً، لكنّنا كنّا نسأم لِدرجة أنّه لو أنّ فاعل خيرٍ أعطانا الطلاء، لكنّا شرعنا في العمل فوراً، حسب اعتقادي. كنت أكتشف الحياة على متن السفينة، وعلى الرصيف، أو على كليهما بالأحرى.

لكنّ طامة الملاحة الكبرى هيَ الصراصير. إنّها المالكة الحقيقيّة للمركب. تنتشر في كلّ مكان، بالآلاف، في جميع الطبقات؛ تخرج في الليل، ويستحسن بك ألاّ تستفيق أبداً عند الساعة الثالثة صباحاً، وتشعل الضوء لئلا تجد دوماً ثلاثة أو أربعة منها، واحداً أو اثنين على غطائك، وثالثاً على الجدار، وآخر متمركزاً بكلّ اطمْئنان على جبين صديقك، الراقد على الفرشة قبالتك. وبإمكانك أن تتخيّل أنّها تتصرّف بالمثل تماماً معك عندما

تنام، وأنّها تتنزّه بكلّ رفقٍ على أجفانك المغلقة. أرعبني هذا في البداية وارتجفت هوْلاً- ولكنّي في نهاية المطاف اعتدت على الأمر. تأتي بنات وردان من الجسور السفلى، من حرارة الآلات. هناك عديدها هو الأكثر، وتتعايش محرّكات الديزل معها. أجهل ممّ تقتات، أفترض أنها تتزوّد بلوازِمها من مدّخراتنا وتتغذّى من صحوننا. وكلّ محاولة لاستئصالها تبوء بالفشل على ما يبدو: ما إن تغزو الصراصير مركباً حتى تحتلّه نهائيّاً، وليس هناك ما يمكن فعله. عبثاً غسلنا ظهر السفينة والممرّات بماء الجافيل، عبثاً نصبنا فخاخاً في حجراتنا، كنّا نجد منها دوماً. كان سعدي يخبرني أنّه بإمكاننا تدجينها مثل العصافير. وباح لي بأنّه فيما مضى كان يتحدّث إليها خلال الساعات الطويلة لخدمته على سفينته الشاحِنة.

يمكن القول إنّ سعدي تبنّاني: كنّا نتقاسم الحجرة نفسها، كانت رفقته ساحرة في السهرات الطويلة المضجرة على متن السفينة. كان ميكانيكي ديزل وهو الذي أوكل إليه الاعتناء بمحرّكَي السفينة الكروسلي. كان الاستماع إليه كمن يتصفّح كتاباً لامتناهياً لا يُسئم أبداً، لأنّ محتواه رحِب ومختلف قليلاً في كلّ مرّة. حدّثني عن بحار الجنوب، عن جزر «ليوارد»[٣٥]، وهي، أستغفر الله العظيم كما كان يقول، النسخة الأرضيّة للجنّة- الناس الذين رأوها يحتفظون دوماً في قلبهم بذلك الحنين المجروح لها ولا يكفّون عن الرجوع إليها. كان يعرف أيضاً المرافئ الكبيرة لبحر الصين، وهونغ كونغ، وماكاو، ومانيلا. كانت سنغافورة، حسب رأيه، المدينة الأنظف في العالم، وبانكوك الأكثر صخباً وغواية. حكى لي عن

---

(٣٥) جزر ليوارد تقع في جزر الهند الغربيّة وتشكل جزءاً من الأنتيل الصغرى.

الصفوف اللامتناهية للمواخير وعلب الليل التي تقدّم رقصاً متعرّياً في باتبونغ(٣٦) حيث يذهب الأميركيّون بالمئات؛ ويتقصّد الكثيرون منهم السفر إليه، حتّى ليخال المرء أنّه ليس هنالك عاهرات في الولايات المتّحدة.

زار سعدي سيليبس(٣٧) أيضاً التي على شكل هرّة، وجافا، وبورنيو(٣٨)، وماليزيا الممتدّة ومضيق ملقة(٣٩) حيث المراكب هي من الكثرة بحيث تصطفّ كالسيّارات في الازدحام.

حدّثني كذلك عن بقرات بومباي التي يستطيع أيّ كان أن يحلبها في الشارع واضعاً الحليب مباشرة في كوبه، وعن مرفأ كراتشي، أخطر مدينة على الكوكب، على حدّ قوله، لن تستطيع العيش فيها يوماً واحداً، إنّها مملكة التهريب، والمخدّرات، والأسلحة إذ لا وجود للجمارك هناك. وكلّ شيءٍ يُدفع ثمنه بزجاجات الويسكي. أمّا عاهرات كراتشي فتُساء معاملتهنّ حتّى أنّك تجدهنّ جميعاً مصابات بجروح وكدَمات وحروق سجائر.

عبر سعدي لا أعرف كم من المرّات قناة السويس، واجتاز خطّ الاستواء للذّهاب إلى البرازيل، والأرجنتين وأفريقيا الجنوبيّة. جابه عواصف هي من العتوّ بحيث ترقّص سفينة حمولةٍ هائلة وسط الموج وكأنّها قارب صيد، وحيث أصيب جميع أفراد الطاقم بتوعّك، جميعهم بمن فيهم القبطان الذي راح يقود السفينة وهو يضع دلْواً تحت فمه لكي يستطيع أن يتقيّأ دون أن يفلت الدفّة.

---

(٣٦) باتبونغ Patpong: سوق ليلي في بانكوك، تايلندا.

(٣٧) سيليبس Célèbes: جزيرة في أندونيسيا مؤلفة من أربعة أشباه جزر.

(٣٨) بورنيو Bornéo: ثالث أكبر جزر العالم بين أندونيسيا وماليزيا وبروناي.

(٣٩) مضيق ملقة في ماليزيا.

كذلك رأى بحّارة يموتون في البحر، ويسقطون في الماء ليختفوا في زوبعة الأعماق، أو يقضون جرّاء حمى، أو من حزنٍ مفاجئ دون أن يستطيع البحّارة أن يصلوا بهم إلى اليابسة في الوقت المناسب لإنقاذهم: عندئذٍ تُرمى الجثّة في الماء أو تثنى لحشرها في أحد البرّادات، بحسب مشيئة القبطان. رأى سعدي بحّارة سكارى لا يستطيعون الإبحار إلاّ والقنينة في يدهم، وملاحين يطعنون زملاءهم بالسكاكين من أجل فتاةٍ أو بسبب عبارة منحرفة، وقراصنة حتّى في خليج عدن يفتّشون سفينته ثمّ يغادرونها بعد معركةٍ منظمّة ضد فرقاطة عسكريّة، فيما كان الطاقم كلّه محتجزاً في عنبر السفينة. لكنّ الغريب هو أنّ الأماكن التي يتحدّث عنها بشديد الانفعال هي أنفير[٤٠]، وروتردام[٤١]، وهامبورغ[٤٢]؛ كان يحبّ مرافئ الشمال الهائلة، الحيّة، المجاورة للمدن الكبيرة حيث تستطيع أن تنعم بكلّ أساليب الراحة العصريّة: المترو، والمواخير المترفة، والواجهات، والمخازن الكبرى، والحانات من جميع الفئات، حيث البيرة رخيصة، ويمكنك التجوّل دون أن تخشى طعنة سكين في الظهر كما في كراتشي.

قال لي تخيّل أرصفة مرافئ تمتدّ على عشرات الكيلومترات، وأحواضاً يبلغ عمقها عشرين متراً حيث تستطيع أكبر مراكب في العالم أن ترسو: سفن أعالي البحار التي لا تبلغ عادة أبداً أيّ مرفأ. عندما نلتقي بهذه الماستودونات[٤٣] في مداخل المرافئ كنّا نبدو إلى

---

(٤٠) أنفير: مدينة في بلجيكا ومرفأها يمثل المرتبة الثالثة في أوروبا.

(٤١) روتردام: مدينة في هولندا، مرفأها هو الأكبر في العالم.

(٤٢) هامبورغ: مدينة في ألمانيا والمرفأ الرئيسي في البلاد.

(٤٣) ماستودون: حيوان هائل الحجم منقرض يشبه الفيل.

جانبها مع حاوياتنا مجرّد قوارب، أو ممارسي نزهات بحريّة. أمّا المدن، آهِ يا بني للأسفِ لم نكن نبقى فيها وقتاً طويلاً، فلن يتسنّى لك أن ترى أبراجاً بهذا العدد، ومباني من جميع الأنواع والألوان كتلك التي في روتردام، مثلاً. لم أرَ مثل هذا التنوّع المدهش من الجنسيّات بين أعداد المهاجرين، الأمر بسيط، لست أكيداً من أنّني التقيت بأكثر من هولنديّ أو هولندِيَّين. الماخور الذي ذهبت إليه كان مليئاً بالتايلنديّات فقط على سبيل المثال. لا بل علمت مؤخّراً أن عُمْدَة روتردام مغربيّ. هذا لأقول لك إلى أيّ حدّ يحترمون الأجانب هناك في تلك المناطق العالية. قلت له، كما في الخليج. ما جعله يضحك. أيّها الأبله. أرى أنّك تستمع إليّ حقّاً! روتردام والدوحة، لا شيء يجمع بينهما، لا تتغابَ! وهامبورغ! في هامبورغ مخازن كبرى للعاهرات، وبحيرات في وسط المدينة. في أنفير، تشعر أنّك في القرون الوسطى، في وسط المدينة. لكن ليس القرون الوسطى القذرة كما في المدينة العتيقة في مراكش أو في طنجة، لا إنّها قرون وسطى أنيقة، منظّمة تتخلّلها ساحات رائعة ومبانٍ يقطع جمالها الأنفاس.

قلت لكي أتذاكى وأبرهِن أنّني أنا أيضاً على شيء من العلم والمعرفة:

- عصر النهضة تقصد القول؟

- وما همّ! أؤكّد لك أنّك لم ترَ قطّ مرافئ كمرافئ أنفير أو روتردام أو هامبورغ. روتردام دُمّرَت تماماً خلال الحرب وانظر إليها اليوم كم هي مزدهرة. أمّا في بلادنا، فيلزمنا سنتان لكي نسدّ ثغرة في إحدى الجادات. تخيّل أيضاً كم يلزمنا من عصور لإعادة بناء طنجة فيما لو تعرضت للقصف لا سمح الله.

أمضى سعدي ثلاثين سنة في البحر، متنقّلاً على متن عشر سفنٍ مختلفة. ومنذ أربع سنوات، كان يجوب المضيق على سفينة «ابن بطوطة». طلّق سعدي زوجته ثمّ تزوّج من جديد بامرأة شابة أنجبت له مؤخّراً ابناً كان مصدر اعتزازه.

- ألهذا السبب لم تبق في أوروبا؟ بسبب العائلة؟

- لا يا بُنَي، لا. هذا لأنّك بعد أن تمضي أشهراً عديدة على مُرفِئة من فولاذ، لا تطمح عندئذٍ إلا إلى العودة إلى كنبتك، ومنزلك. أوروبا بلاد جيّدة وجميلة، والنزول فيها أمر ممتع. لكنّ طنجة شيء آخر. إنّها مدينتي.

وبالكلام عن تجربتي أنا في البحريّة فقد جنحت بي السفينة إلى مرفأ ألجزيراس، وليس في هذا مدعاة اعتزاز- سألت سعدي ما إذا كان شاهد من قبل حادثة مماثلة، مراكب عالقة في المرافئ. أخبرني أنّه في برشلونة، تخلّى مجهِّز سفينة شحن أوكرانيّة عنها بعدما عجز عن دَفع نفقات ترميمها. غادرها كلّ أفراد الطاقم ما عدا بحّاراً لازم السفينة بغية تحصيل إيراد بيعها لتوزيع المال على أصدقائه. قال سعدي إنّ الأوكرانيّ بقي أكثر من عامَين وحيداً على متن السفينة، معتاشاً من أعمال الإحسان ومن بعض المال الذي كان يُرسله له زملاؤه في الطاقم من أوديسا. كان الجميع على المرفأ يعرفونه ويعتبرونه بطلاً حقيقياً. في ذاك الوقت كنّا نتنقّل على خطّ بيرايوس- بيروت- لارنكا- الإسكندريّة- تونس- جنوى- برشلونة، وندعو ذلك «الأوتوبيس». كنت ألتقي الأوكراني كلّ أسبوعين. كان رجلاً رائعاً، وذا إرادةٍ عجيبة. كلّ يوم، يتردّد على مكاتب أصحاب السفن وسلطات المرفأ ويلحف عليها في الطلب كيما تساعده على إيجاد مشترٍ لكَوْمَة الصدأ متحاشياً بيعها بالمزاد

العلني لئلا يفقد كلّ شيء- وصدّقني يا لخضر، إنّ سفينة شحنٍ قديمة، حتى لو أعيد ترميمها كما يجب، فإنّها لا تُباع مثل بيجو ٢٠٥. ساعدته في تشغيل محرّكات الديزل؛ أذكر كانت من تلك السفن السوفياتيّة الرائعة، أشبه بساعة حائط حقيقيّة لدقّتها. حتى مع عشرات آلاف الساعات من الإبحار في عدّادها، كان بإمكانها أن تقوم بجولة حول العالم. كانت السفينة في حالة يُرثى لها، هذا أكيد، ووَجَب تغيير محور المروحة وإعادة إصلاح جزء من النظام الكهربائي لكنّ أحداً لم يتقدّم لشرائها، كانت مسألة وقت فقط. وما على الأوكراني سوى الانتظار والقيام بحيلٍ كثيرة لكيما يستمر. وبما أنّه تواجد هناك طيلة الوقت فإنّه كان يعرف جميع العاملين في الحوض، وجميع نماذج القبطانيّة[٤٤]. يلعب الورق معهم، ويُجري صفقات صغيرة مع المراكب العابرة، متاجراً بالسجائر، والكحول وحتى بعلب الكافيار الروسي يبيعها من جديد لسمّانٍ فاخر في أعلى المدينة. كان رجلاً بهيّ الطلعة يتردّد دوماً على الماخور نفسه إلى أن اقترن في نهاية المطاف بعاهرة كولومبيّة- ذات يوم عندما رسَونا كالعادة في برشلونة، لم نجد السفينة: بيعَت إلى شركة يونانيّة. على أيّة حال، لا تزال هذه الباخرة الرديئة تبحر، والتقيت بها منذ زمنٍ ليس ببعيد. احتفالاً برحيله أقام الأوكرانيّ حفلة جنونيّة في حانةٍ قديمة داعياً إليها العشرات من معارفه. أقام عرساً مذهلاً، صدّقني، عرساً أسطوريّاً. رقصت صديقات العروس نصف عاريات، وفقد الجميع وعيهم في نهاية الاحتفال لفرط ما شربوا- وفي نهاية السهرة، أعلن لنا بلهجة مهيبة وقد تعتعه السّكر أنّه سيرحل

---

(٤٤) القبطانيّة: مكتب رئيس المرفأ.

للاستقرار مع زوجته في بوغوتا[٤٥] بفضل بضعة ملايين من البيزيتا التي جلبتها له عمليّة بَيع المركب. ترك في أوديسا الخطيبة والرفاق، وغادر إلى أميركا، إلى مزرعة بعيدة، برفقة خلاسيّته الجميلة.

كانت ألسنة السوء تقول إنّه ينوي توظيف هذا المال في أعمال التهريب.

علمنا لاحقاً أنّه مات مقتولاً برصاصة في رأسه وسط الشارع في بارانكيلا دون أن تذكر الشائعات ما إذا كان مقتله عملاً انتقاميّاً من تدبير بحّارة أوديسا، أم أنّه قضى على يدِ تاجرِ كولومبي أو أنّه ببساطة ذهب ضحيّة حظّه السيّئ.

يا بنيّ، هذه هي القصّة الوحيدة التي أعرفها عن أحدِ ظلّ عالقاً لوقت طويل في مرفأ ما عدانا نحن.

كان قوله هذا مشجّعاً حقّاً!

اتّصفت قصص سعدي دوماً بجانب سوداوي، ومأساوي، دون أن أتمكّن من معرفة ما إذا كان مردّ ذلك إلى جانب مظلم في شخصيّته أم ما إذا كانت حياة البحّارة تحوي فعلاً هذا الوجه القاتم. كنّا، نحن، مئة بحّار مجمّدين في ألجزيراس، على أربع عبّارات. وكنت أشكّ في أن يتمكّن أحدنا من الحصول على قرشٍ واحد والهرب إلى كولومبيا أو فنزويلا. كانت الأخبار التي تفدنا سيّئة: لدى شركة الملاحة دَين هائل، في إسبانيا، وفي فرنسا، وفي المغرب. على الأرجح لن نستطيع أبداً تحصيل أجورنا الضائعة. وبعد مرور شهرٍ منَ الانتظار كنّا مُحْبَطين، نقاسي البرد الفظيع والسأم، فيما لا يبدو أنّ أحداً يأبه لمصيرنا نحن البحّارة المفلسين

---

(٤٥) بوغوتا: عاصمة كولومبيا.

تماماً، خطرت لنا فكرة التوجّه إلى الصحافة، لكي نجتذب اهتمام الرأي العام. وساعدتنا نقابة عمّال المرفأ. وصدرت عدّة مقالات في الصحف:

«على غرار زملائهم المحاصَرين في سيتا[٤٦]، يواجه البحّارة التابعون لشركة كوماناف- كوماريت في ألجزيراس أوقاتاً صعبة. لم تعد الشركة تؤمّن خطّ طنجة- ألجزيراس منذ بداية شهر يناير. يرى البحّارة العالقون في المرفأ أنّ وضعهم على مرّ الأيّام يسوء باطّراد فهم يفتقرون إلى المؤونة والوقود، ولم يقبضوا أجورهم منذ بضعة أشهر، ولا وصلتهم أيّة مساعدات اجتماعيّة.

ومع ذلك، وبخلاف البحّارة الموجودين حاليّاً في المرفأ الفرنسي، فإنّ بحّارة ألجزيراس توجّهوا إلى وسائل الإعلام، وأقاموا مؤخّراً مؤتمراً صحافيّاً بدَعمٍ من الإسبان. لقد ضاقوا ذرعاً بوضعهم ويرغبون في العودة إلى ديارهم لا سيّما أنّ معظمهم ترك خلفه زوجاتٍ وأولاداً في المغرب وهؤلاء يعيشون أحياناً في ظروف بائسة.

إنّ مئة بحّار هم على هذه الحال في مرفأ ألجزيراس حيث أربع معدّيات في المجموع متوقّفة: «باناسا»، و«بخعاز»، و«المنصور»، و«ابن بطوطة»، وقد تمّ الحجز الاحتياطي عليها في يناير الماضي لأسبابٍ تتعلّق بديون لم تسدّد».

لا شيء أفلح. كلّ ما استطعنا الحصول عليه هو زيارة إضافيّة للسيّدة القنصل.

لكنّ الأمر الذي أحزنني أكثر من أيّ شيء آخر افتقادي إلى

(٤٦) سيتا: مرفأ فرنسي على المتوسّط.

الإنترنت. تركت حاسوبي في غرفتي في طنجة. كان هناك في المرفأ «لوكوتوريو»[٤٧] يحوي حجرات هاتف وحاسوبين، لكن كان يتعيَّن الدفع، ولا مال لديّ. وفوق ذلك لم أستطع أن أسحب مالاً من الخارج من حسابي في طنجة. رصيد بطاقتي الهاتفيّة اسهتلكته وأنا أبعث برسائل عاجلة إلى جوديت. كنت في وضع بائس. قدّمت لنا جمعية خيرية إسبانيّة بعض الثياب؛ وحصلت على سروالَيْ جينز مرقّعين، وقمصان فضفاضة وكنزة مخطّطة ومعطف رياضي مبطّن بصوف اصطناعي.

بدا على جوديت أنّها غير مهتمّة بأمري. وإذ أمعن التفكير، أجد أنّ الأشهر الأخيرة الستّة أوهنت علاقتنا. بتنا نتراسل أقلّ في الغالب ونتخابر أقلّ. والآن، وسط هذا الحصار في مرفأ ألجزيراس، لم تعد تفدني تقريباً أيّة أخبار عنها، ما جعلني أغرق في الكآبة والحزن. كنت أروي فشلي المرير لسعدي الذي تعاطف معي مشجّعاً إيايَ على نسيانها قائلاً لي: ما زلت في العشرين من عمرك، وستغرم بفتياتٍ أخريات. حَدّثَني عن العاهرات، ومواخير العالم أجمع، حيث حظي بالمتعة والصحبة، وبعائلة هائلة منتشرة في أربعة أقطار الأرض. كان يتذكّر أسماء جميع الفتيات اللواتي عاشرهن قائلاً لي أتعرف عندما تسلك الخطوط نفسها، وتعاود المرور بانتظام في المرافئ نفسها، لا بدّ وأنّ تلتقي مجدّداً ببيوت الدعارة نفسها، والعواهر أنفسهنّ، والزبائن أنفسهم. وتستقصي أخبار فلان أو علتان خلال الأسبوع الفائت. وتحتسي مع

(٤٧) لوكوتوريو: *locutorio* بالإسبانية: قاعة فيها حجرات للتخابر الهاتفي ومقهى إنترنت.

الأصحاب كؤوساً صغيرة، وتلعب بالورق. لا ينحصر الوقت بالمضاجعة فقط بل هو وقت تسلية ولهو.

أعترف أنّه في وحدتي المعدمَة، حلمت، لدى استماعي إليه، بأنّي من روّاد أحد المواخير الأليفة، وأنّ فتيات هناك يقعن في حبّي فيما تعتني بي أم قوّادة طيّبة القلب. ثمّ عاودتني ذكرى زهرة، عاهرة طنجة النحيلة التي لم أجرؤ على لمسِها، ثم لا تلبث هذه الأحلام أن تتلاشى على غرار سابقاتها. يظهر أنّ حبّ المواخير منعدم كَوبرٍ في فرج عاهرة مغربيّة.

كان سعدي أشبه بأخٍ كبيرٍ أو أبٍ يهتمّ بأمري مستفسراً عن حياتي فأروي له كلّ ما حصل معي، وكان يتعجّب قائلاً ارفقْ بنفسك يا لخضر يا بني! يبدو أنّك قاسيت كثيراً. كان يرثي لحال أبي، لأنّه عديم الشفقة، على حدّ قوله، ويتقاسم شكوكي بالنسبة لبسّام والشيخ نور الدين قائلاً بصوتٍ خفيض إذا أردت رأيي، كلّ هذا يقع على عاتق الدين أستغفر الله العظيم. لو لم يكن هناك الدين لكان الناس أكثر سعادة.

كان يتفهّم رغبتي في الهجرة ومغادرة طنجة قائلاً لي إنّ اختياري السفر على هذه الباخرة الرديئة لم يكن موفّقاً.

وعلى مرّ الأيام أخذت أقول لنفسي بئس الأمر، سأرحل إلى برشلونة ومهما حدث فسأجد وسيلة لمغادرة المرفأ. وبعد ساعاتٍ قليلة أعود وأقول ليكن ما يكون سأعود إلى طنجة، والسيّد بوريلييه.

والأصعب من ذلك كلّه هو أنّه لم يكن لديّ ما أقرأه، ما عدا الصحيفة في كافيتيريا المرفأ. سئمت من معاودة قراءة رواية «مشرحة ملأى». كنت استحصلت على قرآنٍ صغير أعطاني إيّاه

فاعل خيرٍ. أرهقت نظري وأنا أحفظ بعض السور عن ظهر قلب، سورة يوسف، وسورة الكهف. كان ذلك تمريناً حسناً.

أشبه بتدرّج في سجن.

لم نرتكب أيّ جريمة. صاحب السفينة ارتكبها بدلاً منّا، ومع ذلك أُودعنا السجن. عمّا قريب سيكون قد مضى شهران على عدم تسديدي بدل الإيجار. تُرى هل سأجد حقائبي أمام الباب أو مرميّة بين النفايات لدى عودتي إلى طنجة. هذا إذا عدت.

كان صمت جوديت يُفقدني صوابي. كان البرد في شهر فبراير قارساً بريحه المتجلّدة المتغلغلة في المضيق، والبحر مزبداً ومكتسياً دوماً بِلونِ الزنجار. أُصيب جميع أصدقائي بالإحباط. حتّى سعدي أضحى متجهّماً معكّر المزاج. غزا البياض لحيته وامتنع عن حلاقتها. وأمضى معظم وقته في النوم.

قلت:

- لا يمكننا أن نظلّ على هذه الحال حتّى يوم القيامة.

انتفض على فراشه واستوى جالساً.

- هذا صحيح يا صغيري، خصوصاً أنت. أمّا أنا، فكما تعرف، يمكنني أن أبقى هكذا حتّى سنّ التقاعد. سينتهي بهم الأمر إلى إيجاد حلّ. مئة بحّار عالقون في مرفأ مع أربع معدّيات، هذا أمر مربك حقّاً.

- ألا تفتقد إلى زوجتك؟ ألا ترغب في العودة إلى منزلك؟

- تعرف، أمضيت تسعة أعشار حياتي بعيداً عن منزلي. هذا لا يغيّر الشيء الكثير. اعتدت على الأمر.

- أشعر أنّني في سجن. لم يعد بمقدوري الاحتمال. سأجنّ هنا، أدور بين المراكب وأعمل في التنظيف.

نظر إليّ بشيء من العطف قائلاً:

- نعم، أرى أنّك على طريق الجنون. هذا احتمال يجب عدم إهماله. أذكر، عندما كنت أبحر منذ زمن على متن «القيروان»، جنّ أحد بحّارتي. لم يعد بإمكانه مغادرة العبّارة أو جسر السفينة، واستحال إدخاله إلى الممرّات أو إنزاله حيث المكنات. مستحيل. أُصيب فجأة وبشكلٍ بالغ الخطورة برهاب الأمكنة المغلقة. أخذنا القرار بالتصرّف وكأنّ شيئاً لم يكن، أو كأنّنا لا نبالي به، وقمنا بعمله بدلاً منه ريثما يشفى، ثم ازدادت حالته سوءاً: تكوّم على نفسه كالطابة في إحدى زوايا الجسر. رفض الدخول وظلّ في الخارج قابعاً طيلة الوقت تحت الرذاذ والمطر. وضعنا غصباً عنه واقياً من المطر على كتفيه. بدأ القبطان يقلق لأمره. قال هذا الرجل جنّ تماماً، سيصاب بذات الرئة. يجب فعل شيء ما، أنزلوه إلى غرفة التمريض. قيل له إنّ الإغلاق عليه قد لا يكون فكرة جيّدة لأنّه مصاب برهاب الأماكن المغلقة المفاجئ، لكن ضبّاط السفينة لم يأبهوا للأمر. استلزم تضافر جهود خمسة رجالٍ أقوياء لنقله إذ راح يقاومهم ويتكوّم على نفسه ملتصقاً بالأنابيب متشبّثاً بالأبواب بكلّ قواه. وأخيراً نجحوا في إدخاله. عندما أغلق الباب عليه أخذ يصرخ مرتعباً قارعاً بقبضته طوال ساعات متوسّلاً أن يُفتح له؛ كان سماعه يُدْمي القلب. رأيت عدّة رجالٍ تدمع أعينهم وهم يسمعون صراخه. وأخيراً أمرَ القبطان بإخراجه في الحال. عندما دخلنا وجدناه كتلة أعصاب واحدة متأوّهَة، وقد بالَ في ثيابه. كان يرتجف مثل مصابٍ بالصرع. حملناه على مهل لاصطحابه إلى الخارج، ولكن بعد فوات الأوان. كان مُحطّماً تماماً، ما إن أفلت من قبضتنا، حتّى تسلّق الحاجز وارتمى في الماء- دون أن نتمكّن من الإمساك به.

- يا لها من قصّة مرعبة! آمل ألاّ أجنّ على هذا النّحو. ثم إنني إذا رميت بنفسي في المرفأ هنا فلن أتنشّق إلا رائحة المازوت حتّى آخر أيّامي. ولا شيء غير ذلك.

كان ينظر إليّ ضاحكاً من أعلى سريره.

- يا بنيّ، أعتقد أنّه آن الأوان فعلاً لكي ترحل.

•

تطلّب الأمر وقتاً أكثر ممّا توقّعت كيما أدبّر «فراري» حسب قول سعدي. ولكن مرّة أخرى، ابتسم لي الحظ، أو القدر، أو الشيطان. وبعد أسبوعين، في منتصف فبراير، كنت أسير للمرّة الأولى على أرض أوروبا، وليس فقط بين الحاويات؛ أذكر أنّني ذهبت سيراً على القدمين، دون أمتعة حتى وسط المدينة في ألجزيراس. وهناك في إحدى الحانات أنفقت أولى الأوروات التي كانت في حوزتي ثمناً لبيرة وسندويش بلحم التونا. لا أحد انتبه أو نظر إليّ فأنا مجرّد مغربيّ بائس كالكثيرين أمثالي. حاولت أن أقرأ الجريدة لكنّي لم أستطع التركيز لشدّة اضطرابي. كان للبيرة طعم السعادة، أستغفر الله العظيم. كان لديّ على جواز سفري تأشيرة مرور لمدّة شهر أعطيت لي «لدَواعٍ إنسانيّة»، أي لأمضي في سبيلي. لم يكن بِوسعي العمل ولا الذهاب إلى بلدٍ أوروبي آخر بل لديّ فقط إمكانيّة الزحف حتّى طريفا والصعود على متن عبّارة مبحرة باتّجاه طنجة. لكنّي أردت قبل ذلك الذهاب إلى برشلونة لرؤية جوديت.

عند خروجي من الحانة، سألت المسؤول هناك عن مقهى إنترنت قريب. دلّني على مكتب للاتّصالات ذاتيّ الخدمة. كان

المكتب بإدارة مغاربة- لا أعرف لماذا اعتراني بعض الخجل منهم. كنت أفضّل أن يكون مالكوه من الإسبان. أرسلت «مايل» إلى جوديت: «يا حبيبتي، أنا آتٍ إليك إذا كنت بحاجة إليّ. لديّ تأشيرة مرور. استطعت مغادرة المرفأ. أستطيع أن أركب باصاً من ألجزيراس، وغداً أكون في برشلونة. إذا شئتِ». لم أطرح عليها كلّ الأسئلة التي كانت تعذّبني بخصوص صمتها، لكنّي اعتقدت أنّ صياغة رسالتي المطعّمة باليأس تفي بالغرض. ثمّ قمت بجولة في الجزيرة لتزجية الوقت في مراقبة المحلات، والمارّة. ابتعت بيرة أخرى في حانة بدت لي مترفة. من حولي نساء في المقهى، كلّ أنواع النساء: جماعة من الفتيات في مقتبل العمر يتجادلن مع أصدقاء لهنّ. وأخريات أكبر سنّاً بدا عليهنّ أنهنّ مررن بالحانة عند خروجهنّ من العمل لاحتساء كأسٍ من الشراب. وكان هناك نادِلة في مثل سنّي؛ هي التي جلبت لي كوب البيرة المضغوطة. حاولت ألا أثير انتباه أحد وأن أتصرّف وكأن لا شيء جديداً بالنسبة لي- لا اللغة ولا الوجوه. شعرت أنّ أنظار الجميع شاخصة تجاهي، وخُيّل إليّ في الحال، وأنا في هذا المعطف الرياضي الكاكي المسود قليلاً عند المرفقين، أنّهم على علمٍ أنه هِبَة من جمعيّة خيريّة.

بعد ساعتين عدت إلى مقهى الإنترنت لأرى ما إذا كانت جوديت أفادتني بأخبارها. لا جواب منها. قرّرت أن أمنحها وقتاً إضافيّاً. جلت المدينة بحثاً عن الفندق الأقلّ كلفة، ووجدته. كان بائساً لكي لا أقول قذراً. هناك شعرٌ على الوسادة، وزغب عانة في الحمّام، ورائحة المقالي المنبعثة من المطعم في الأسفل تملأ أرجاءه. وجب الدفع مسبقاً، لكنّ التعرفة كانت تُوازي تقريباً الأسعار في المغرب.

كان للحريّة طعم الحزن. فكّرت بسعدي، ورفاق المركب. فكّرت في جان فرنسوا بوريلييه، والشيخ نور الدين، وبسّام، وفي كلّ هؤلاء الذين ساعدوني قبل أن يختفوا، وفي جوديت أيضاً، بالطبع.

ها أنا أقوم مجدّداً بارتكاب حماقة هائلة. كنت وحيداً وبحوزتي المئتا أورو التي أقرضني إيّاها سعدي، ولا شيء آخر إلا القرآن ورواية بوليسيّة ومعطف بالٍ. وَجَب عليّ إعادة بناء كلّ شيء من جديد بفضل تأشيرة مرور مجانيّة، منحتها لي سلطات المرفأ على سبيل المراعاة. بدت لي حياتي هشّة إلى حدّ لا يوصف. رأيتني أتسوّل من جديد في الأسواق، كما كنت أفعل منذ سنتين، عائداً إلى نقطة البداية.

أمضيت السهرة في بار *El Estrecho* الذي كان اسماً على مسمّى، ضيّقاً مثل المضيق نفسه، وتسنّى لي أن أشاهد على التلفزيون مباراة شغلتني طيلة السهرة تعادل فيها فريق ريال مدريد مع موسكو.

أثناء العودة، مررت لألقيَ نظرة على صندوق بريدي، وعلى الفايسبوك، لا خبر عن جوديت. قرّرت أن أخابرها على هاتفها المحمول، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلاً. في الـ «لوكوتوريو» توجد سلسلة من الحجرات الهاتفيّة. طلبت رقمها، فرفعت السمّاعة في الحال.

قلت:

– آلو، أنا لخضر، أكلّمك من ألجزيراس.

حاولت السيطرة على صوتي والتظاهر بالبهجة لكي لا تنتبه إلى قلقي.

- لخضر، كيف الحال؟

قلت:

- كلّ شيءٍ على ما يرام. حصلت على تأشيرة مرور. هل رأيت رسالتي؟

شعرت أنّها كانت محرجة، وأنّ شيئاً ما لا يسير على ما يُرام، وقالت بعد تردّد:

- لا... أو بالأحرى نعم، رأيت رسالتك... لكنّي لم أجد الوقت لأجيبك.

عرفت في الحال أنّها تكذب.

تخلّل حوارنا فترات طويلة من الصمت. كانت كأنّها تجهد نفسها لتسألني عن أحوالي. وفي الحال تحيَّرت في ما أقول.

- هل... هل تريدين أن آتي إلى برشلونة؟

كنت أعرف الجواب مسبقاً، لكنّي انتظرت مثل هاربٍ من الجنديّة في مواجهة فرقة الإعدام.

- إحم... نعم، بالطبع...

كان واحدنا يهين الآخر، تهينني بكذبها، وأهينها بإرغامها على الكذب.

حاولت الابتسام وأنا أتكلّم؛ قلت هذا ليس بالخطير، لا تبالي سأعاود الاتّصال بك خلال بضعة أيّام، وفي هذه الأثناء نتراسل.

كان يلزمنا عادة دقائق طويلة لاتّخاذ القرار بإنهاء المخابرة، لكنّي هذه المرّة شعرْتُ بارتياحها عندما همست إلى القريب العاجل ثم أقفلت السمّاعة.

لم أخرج في الحال من حجرة الهاتف الصغيرة. نظرت إلى السمّاعة طويلاً ورأسي خاوٍ. ثمّ خُيّل إليّ أنّ المغاربة، في

الخارج، يسخرون من هيئتي مقهقهين واصفين إيّاي بالأبله المخدوع. ألهب الخجل عينيّ.

ذهبت إلى «فندقي الفخم» بعد أن اشتريت على طريقي زجاجتَي بيرة من دكّان لا يزال مفتوحاً. شربت البيرة، ثم تمدّدت على السرير وأنا أفكّر أنّني وحيدٌ فعلاً الآن. انتزعت صفحاتٍ من مجلّة سياحيّة قديمة كانت في الغرفة وحاولت أن أكتب قصيدة طويلة أو رسالة إلى جوديت لكنّي لم أقدر.

كانت برفقة رجلٍ آخر، بالإمكان استشعار مثل هذه الأمور. شيئاً فشيئاً أخذ غضبي يتنامى تحت تأثير الكحول، غضب يائس، في هذا الفراغ المهيمن، وسط حفيف أصوات آتية من عالمٍ فقد معناه للتوّ. لم يتبقّ لي إلاّ هذه الغرفة البائسة. أُحيلت الحياةَ كلّها إلى هذه الغرفة القذرة؛ وكنت أنتقل من سجنٍ إلى سجنٍ، ولا شيء يُمكن فعله، لا شيء، لن أستطيع الانعتاق أبداً، سوى الاصطدام بالأشياء والجدران. فكّرت في النيران المشتعلة في غير مكان من هذا العالم، في أوروبا التي قد تشتعل يوماً من جديد على غرار ليبيا، وسوريا. إنّه عالم من الكلاب، والمتسوّلين المتروكين- تصعب حقّاً مقاومة التفاهة في إزاء المهانة المستمرّة التي تلحقها بنا الحياة. وحقدت على جوديت، حقدت على جوديت كرهاً بألم الهجران، والظلمة، والوحدة، والخيانة التي كنت أتخيّلها خلف حرجها في الكلام. كان المستقبل ينذر بسماء عاصفة، سماء بلون الفولاذ والرصاص جهة الشمال. والقدر يتمّم رسومه بفعل ضربات صغيرة، وسيرورة بطيئة، بفعل أخطاء تافهة في توجيه الدفّة لكنّها تراكمت فقذفتك على الصخور بدل أن توصلك إلى الجزر الفردوسيّة المنشودة، جزر ليوارد أو سيليبس الظريفة؛ فكّرت في

سعدي، وابن بطوطة، وكازانوفا، والرحّالة السعداء- فيما كنت وحيداً متشبّثاً بكوب بيرة فاتِرة في غمرة الأحزان، والظلمات الغريبة. ما من منارة في ليل ألجزيراس، ما من منارة واحدة، والأنوار في برشلونة، وباريس كانت مطفأة. لم يتبقّ لي سوى العودة إلى طنجة، نعم طنجة، وتحميل الحاسوب ببطاقات الجنود القتلى؛ لم يتبقَّ لي سوى العودة مهزوماً بعدما غرقت مرّاتٍ عدّة.

لا أعرف تفسيراً لكلّ هذا التسلسل من المصادفات المتطابقة. سمّوه ما شئتم: الله، المصير، القضاء والقدر، الكارما[٤٨]، الحياة، الحظّ، سوء الحظّ. لم أذهب توّاً إلى برشلونة، لم أهرَع لموافاة جوديت، ليس فقط لأنّني كنت مقتنعاً بأنّها كانت برفقة شخصٍ آخر فحسب، بل لأنّني كنت خائفاً أيضاً، خائفاً من العودة إلى التسكّع والفقر، أو لأنّني، وما أدراني، كنت جباناً بعض الشيء، وتعِباً. لا ثورة في الأفق، لا كتب في حوزتي، لا مستقبل أمامي. لا أستطيع العودة إلى طنجة لأنّني أعرف أنّه سيستحيل عليّ، على الأرجح، الرحيل عنها من جديد باتّجاه الشمال، أو حتى سرّاً. سمعت على متن سفينة «ابن بطوطة»، قصصاً كثيرة، قصصاً مرعبة عن المنفى، والغرقى في المضيق أو المقذوفين على شاطئ الأطلسي، بين المغرب وجزر الكناري. كان الأفارقة يفضّلون النزول في جزر الكناري[٤٩] لأنّ مراقبة الأرخبيل أكثر تشدّداً. بما أنّ كلّ هؤلاء الأفارقة والعرب الذين يتسكّعون في

(٤٨) الكارما: اعتقاد بوذي يقول بالعاقبة الأخلاقيّة لأعمال الإنسان في طور من أطوار تناسخ الروح تقدّر قدره.

(٤٩) جزر الكناري: أو الجزر الخالدات، جزر تابعة لإسبانيا في المحيط الأطلسي.

الشوارع دون أن يفعلوا شيئاً غير صالحين للسياحة، فإنّ حكومة جزر الكناري كانت ترسلهم جوّاً على نفقتها ليواجهوا مصيرهم على اليابسة. وكان أفارقة جنوب الصحراء والمغاربة، والنيجيريّون والأوغنديون يذهبون إلى مدريد أو برشلونة لتجربة حظّهم في بلدٍ تصل البطالة فيه إلى أعلى نسبة في أوروبا- وهناك تغدو الفتيات عاهِرات، وينتهي الأمر بالرجال للعيش في مخيّمات سريّة وبائسة في الريف، في أراغون[٥٠] أو لامانشا، محاصرين بين شجرتين وسط النفايات، والقِرَب المبقورة، والبرد. والإصابة بأمراضٍ جلديّة خطيرة، من خرّاجات، وطفيليّات، وتقرّحات بانتظار أن يشغّلهم مزارع في السخرة عنده لقاء خبزٍ بائت وقشور بطاطا يضعونها في الحساء. في الشتاء ينزعون الحصى من الحقول، وفي الصيف يقطفون الكرز والدرّاق - شكراً أنا بغنى عن هذا كلّه. هناك دوماً مَن هوَ أكثر بؤساً منّا. فأنا أعدّ ميسوراً بالمقارنة مع هؤلاء المحكومين بالأشغال الشاقّة، تلقّيت بعض العلم، ولديّ القليل من المال وبلد حيث يمكنني، في أسوأ الأحوال، أن أتدبّر أمري فيه- كنت ابن المدينة، أطالع الكتب، وأتكلّم لغاتٍ أجنبية، وأعرف استخدام الحاسوب. لا بدّ لي في نهاية الأمر من إيجاد عملٍ ما. وبالفعل سرعان ما وجدت عملاً بالقرب من ألجزيراس، والفضل يعود لسعدي بالطّبع. لم تخطر لي قطّ فكرة استكشاف هذا الميدان، هذا على افتراض أنّ مثل هذا الميدان موجود حقاً. فيما كنت أمكث ضجراً في غرفتي النتنة على مسافة بضع مئات الأمتار من سفينة ابن بطوطة متخيّلاً جوديت مع صاحبها الجديد، أرسَلَ لي سعدي رسالة عاجلة يطلب منّي فيها أن أتّصل به، وهذا ما فعلته في

---

(٥٠) أراغون: منطقة تقع في شمال شرق إسبانيا.

الحال. تكلّم على المرفأ مع «متعهّد» في المنطقة يحتاج إلى مغربيّ يساعده في عملٍ بسيطه. وهكذا دخلت إلى مؤسسة السيّد مارسيلو كروز التي تُعنى بشؤون الجنائز. استمرّ قدَري في نصب الفخاخ لي، لم يكتفِ بما فعله حتّى الآن وأراد أن يزيد منها. ضرب لي «السينيور» كروز موعداً في أحد مقاهي ألجزيراس وسط المدينة. ركن سيّارته السوداء الرباعيّة الدفع بالقرب من سيّارة أخرى دون أن يهتمّ. تعرّف إليّ على الفور بفضل المعطف الرياضي الأخضر، قال لي هذا أنت لخضر؟ قلت نعم وأنا أبتسم، هذا أنا لخضر، أنا صديق سعدي، سألني صديق من؟ قلت صديق بحّار «ابن بطوطة»، أجابني صحيح تذكّرت، حسناً، هل تريد أن تعمل عندي؟ أجبته بالطبع، بالطبع، وما هو هذا العمل؟ قال إنّه عمل ولا أسهل، عليك الاهتمام بالموتى.

كان وجه السيّد كروز رصيناً وعرِقاً. قميصه مفتوح حتّى منتصف الصدر، وسترته من الجلد الأسود.

لم أفهم جيّداً ماذا يقصد بقوله الاهتمام بالموتى، بصرف النظر عن تجربتي مع شعرانيّي الحرب العالميّة الأولى، لكنّي وافقت بالطّبع.

كان عمل مارسيلو كروز مزدهراً. على مرّ السنوات، جمع كافة جثث المهاجرين السرّيين الذين لاقوا حتفهم في المضيق وحفظها وأعادها إلى موطنها، وكذلك جثث الذين قضوا غرقاً أو من فتور الحرارة، وتلك التي عثر عليها رجال الدرك على الشواطئ من قادس(٥١) حتى ألميريا. بعد معاينة القاضي والطبيب الشرعي،

---

(٥١) قادس: واحدة من أعرق المدن الإسبانية الساحلية في جنوب الأندلس.

وبعد التأكّد أنّ الرجل أو الرجال المساكين لقوا مصرعهم وقد رمّد البحر وجوههم وانتفخت أجسادهم، كان يتمّ استدعاء مارسيلو كروز، فيضع عندئذٍ الجثّة في غرفته المبرّدة ويحاول أن يخمّن مصدرها، وهذا ما لم يكن بالأمر السهل، على حدّ قوله. «ليس هنالك مهن سهلة»، ردّد السينيور كروز على مسامعي أثناء صعودي إلى جانبه في سيّارته الرباعيّة الدفع التي كانت تقلّني إلى مؤسّسته للشؤون الجنائزيّة، على مسافة بضعة كيلومترات من ألجزيراس باتّجاه طريفا. وفي حال انعدام الدلائل الماديّة أو الشهود الناجين، وإذا استحال وضع اسم على الجثّة، يُصار عندئذٍ إلى دفن الميّت على حساب الدولة في أحد مدافن الشاطئ المجهولة. أمّا في حال تخمين مصدرها، إمّا لوجود جواز سفر بحوزة الميّت أو رسالة بخطّ اليد أو رقم هاتف، فكان يجري الاحتفاظ بها في مكانٍ بارد حتّى إعادتها إلى وطَنها في نعشٍ «جميلٍ» من الزّنك المصفّح بالرّصاص. عندئذٍ يصعد السيّد كروز في سيّارة الموتى ثم يركب المعدّية من ألجزيراس مصطحباً المتوفّى إلى مثواه الأخير. كان يعرف المغرب تمام المعرفة. وأغلبيّة «زبائنه» مغربيّون. كانت قُرىً بأكملها تنتحب لدى وصول سيّارته. واكتسب مارسيلو كروز شهرة مشؤومة في المغرب، على حدّ قوله.

وبطبيعة الحال، في الأيّام الأخيرة، تسبّبت الأزمة الاقتصاديّة والرادارات الأكثر تطوّراً المستخدمة في البحر في عرقلة أعماله بعض الشيء. عندئذٍ كان يعيد المتوفّين بطريقة شرعيّة في إسبانيا إلى موطنهم - بسبب الحوادث أو الأمراض أو الشيخوخة، وكلّ ما كان يحلو للمنيّة أن تعهد به إليه، المنيّة التي كانت تحصد أبناء بلادي كغيرهم، حمداً لله على جميع أقداره. لكنّه كان يأمل دوماً،

في نهاية الشتاء، بحمولة ثقيلة من الجثث غير الشرعيّة إذ تغدو مياه المضيق خطيرَة في هذا الفصل وتنطلق مراكب الصيد[٥٢] بعيداً أكثر فأكثر نحو الشرق لتجنّب الدوريّات، وبذلك تزداد مغامرتها خطورة. كانت تبحر عندما تحول الأمواج العاتِيَة دون سهولة مراقبة الرادار. سيكون عملي بسيطاً، يقوم على نقل الجثّة، وتحميلها وإخراجها من السيّارة، لوضعها في النعش، إلخ. قال لي كروز إنّه يحتاج إلى مسلم لكي تُعامَل الجثث ضمن احترام الدين- وكان إمام مسجد الحيّ يأتي لمعاونته.

سأكون إذاً مسلمه الذي يتولّى كلّ هذه المهمات. سيكون الدفع سرّيّاً غير مصرّح به. والمسكن في مكان العمل. سأحلّ مكان مغربيٍّ شاب تخلّى عنه منذ بعض الوقت، ورحل ليُجرّب حظّه في مدريد.

كنت أفكّر في سعدي اللعين هذا، الذي لم يحطني علماً بطبيعة هذا العمل. المعاش ثلاثمئة أورو مع المسكن والغذاء والثياب النظيفة. ليس هذا بالأمر السيّئ.

إنّ فكرة إعادة جثثٍ حقيقيّة إلى المغرب بعد أن استوردت جنوداً موتى افتراضيّين على الحاسوب كانت لعمري شيّقة للغاية. لم أرَ جثة من قبل. رحت أتساءل كيف سأواجه الأمر. فكّرت في جوديت. لم أكن واثقاً تماماً أنّني راغب بإخبارها عن عملي الجديد. ومن ثمّ لا بدّ أنّ الأمر سيّان لديها.

---

(٥٢) مراكب الصيد أو الباتيراس التي تُقلّ المهاجرين السريّين.

كانت الأسابيع التي أمضيتها لدى السيّد كروز جحيماً. عشت في كنف الموت. أقمت في كوخِ الحديقة خلف المؤسّسة، في غرفة صغيرة مليئة بالمعدّات وعبوات مبيدات الأعشاب الرديئة وسط رائحة البنزين المنبعثة من جزّازة العشب. كان مولّد الغرفة المبرّدة ملتصقاً بحائطي ويوقظني كلّ ليلة جرّاء اهتزازاته. يحتبسني السيّد كروز داخل الحرم برحيله مساءً ثمّ يُحرّرني لدى وصوله صباحاً- ويتعمّد الحدّ من تنقّلاتي قدر الإمكان، تجنّباً لمراقبة رجال الشرطة وقوى الأمن، إلاّ فيما ندر. عندما أحتاج إلى شيء- إلى ثياب أو أدوات حلاقة واستحمام- يشتريها لي بنفسه. لا أحد يزورني. بعد الساعة السادسة، عندما يصعد السيّد كروز إلى سيّارته الرباعيّة الدفع للعودة إلى منزله، أمسي وحيداً بصحبة النعوش.

لم أستطع الاعتياد على ملامسة الجثث، ولحسن الحظّ، لا يصل الكثير منها- كان عليّ فكّ أحزمة الأكياس البلاستيكيّة لإخراج الجثث منها، واضعاً قناعاً على أنفي. في المرّة الأولى، كاد يغمى عليّ، كان الميت غريقاً بائساً، في مقتبل العمر، وفي حالٍ مروّعة. لحسن الحظّ كان كروز هنا- عمد إلى قلب الجثمان برفق على

طاولة الإينوكس[٥٣]، وأودعه صندوق الزنك العازل، ثم شدّ البراغي محكماً إغلاق النعش. فعل كلّ ذلك بصمت. أحسست بالاختناق فالقناع الخاص ضيّق أنفاسي، ورائحة الكافور أو الجافيل امتزجت في حلقي بعفونة المضيق ونتانة الحزن المتجثثة والجيفة المنسيّة. واليوم، أحياناً ورغم انقضاء السنوات، تذكّرني رائحة مساحيق التنظيف بروائح هذه الجيف التعيسة التي كان كروز يعالجها باحترام وتمهّل دون أن يرفّ له جفن، أو يرتعش له وصل.

ثم يأتي الإمام ونصلّي أمام الجثّة أو النعش، وفقاً لحالة الجسد، الواحد تلو الآخر، كما يقتضي العرف. كان كروز حينئذ يتركنا. كان الإمام مغربيّاً من كازابلانكا، رجلاً مخضرماً تضفي عليه مهابة المهمّة التي يتولاها وقار الأشياء الغابرة الملمّعة. لم يكن يبتسم أو يظهر علامة تودّد أو نفور، ليقينه ربّما بأنّ الموت ساوانا جميعاً أمام الله.

تلك الصلاة على موتى مجهولين، على بقايا وجود غامضة، بدت لي شديدة الغرابة والتماساً مجرّداً حزيناً. ثم إنّنا لم نكن واثقين حتّى من أنّ بعض الجثامين تعود لمسلمين. كان هذا افتراضاً؛ من يدري ربّما كنّا نرسلهم إلى الربّ غير المناسب، إلى جنّة سيكونون فيها مرّة أخرى متسلّلين سرّيين.

بعد الصلاة، نضع نعوش الزنك المُحْكَمة الإغلاق في الغرفة المبرّدة لتنضمّ إلى الموتى السابقين الذين هم «على لائحة الانتظار». كانت الجثّة الأقدم هنا تعود لغريق في مضيق جبل طارق ويرقى تاريخها لثلاث سنوات.

---

(٥٣) الإينوكس: معدن مقاوم للصدأ.

كانت الحكومة تدفع على الجثّة ولقاء كلّ يوم إيداع ستين أورو، وهذا كان يشكّل الربح الذي يجنيه السيّد كروز.

عندما يتلقّى السيّد كروز المال لإعادة الجثّة إلى موطنها أو حين يحدّد مصدر الجُثمان المجهول، يقوم بمهمّة «الشحن»، فيضع نعشين أو ثلاثة في الشاحنة ويركب المعدّية إلى ألجزيراس. كانت مراسم الجمارك دقيقة للغاية، ووَجَب تصفيح الصناديق الجنائزيّة بالرصاص، والتصريح عن الحمولة، إلخ.

كانت مؤسّسة دفن الموتى محاطةً بحديقة صغيرة، ومسوّرة بجدران عالية مزروعة في أعلاها بشظايا زجاج القناني؛ على مسافة بضع مئات من الأمتار يقع منزل السيّد كروز. في الليل، كنت محتبساً مع الموتى، في هذه الضاحية المشرفة على الطريق الرئيسيّة، وكان هذا محزِناً، في منتهى الحزن والرعب.

كنت أقوم أيضاً بأعمال التنظيف وصيانة الحديقة؛ أغسل سيّارة السيّد كروز وأطعم كلبَيه القطبيّين الجميلين بأعينهما الزرقاء، الشبيهين بذئاب البوادي- كانت هاتان البهيمتان متوحّشتين وناعمتين في آن، وتبدوان وكأنّهما آتيَتان من عالم آخر. ما حداني للتساؤل عن قدرتهما على تحمّل الحرّ المسعور لأصياف الأندلس بهذا الفرو الذي يكسو جسميهما. أمّا كروز فكان غامضاً، قاتماً، مراوغاً، شاحب الوجه، وتحيط بعينيه هالات زرقاء. حين يأتي إلى مؤسّسة دفن الموتى وتشاء الظروف أن ينعدم وصول الجثث، كان يقضي طيلة النهار قابعاً خلف مكتبه، حاملاً في يده كأساً من ويسكي Cutty Sark المفضّلة لديه على الدوام، ومستمعاً بأذن شاردة إلى موجة الراديو التابعة للشرطة ليكون أوّل الواصلين إلى الميدان في حال العثور على جثّة. وكان مشدوداً إلى الإنترنت، يشاهد بشكلٍ

متواصل مئات أفلام الفيديو، وتقارير الحروب، والكليبات المريعة الخاصّة بالحوادث والميتات العنيفة دون أن يظهر عليه أيّ تأثر. على العكس، كان يُمضي وقته طيلة النهار في ما يشبه السبات العميق، في حالة من الخدر المعلوماتي، منخبلاً تحت تأثير وحشيّة المشاهد والويسكي - وحدها يده على فأرة الحاسوب كانت تتحرّك. وعند هبوط الليل، كان يترنّح قليلاً لدى نهوضه، يرتدي سترته الجلديّة منصرفاً بصمت، ثم يغلق القفل مرّتين. كان يدعوني لخضر الصغير عندما يتوجّه بالكلام إليّ، وصوته الناعم يتناقض مع قامته الكبيرة وبنيته الجسيمة ووجهه المكتنز؛ يتكلّم وكأنّه طفل وهذه النوتة الناشزة في صوته تبثّ في النفس رعباً أشدّ.

ألفيته رجلاً بائساً، ولم أكن أعرف ما إذا كان يثير فيّ الاشمئزاز أم الشفقة. كان يستغلّني ويسجنني كأنّني عبد، ناشراً من حوله الحزن والرعب، وعفن النفس المستغرقة في الوحدة.

وَجَب عليّ الرحيل. في المرّة الأولى التي أذن لي فيها بالتنزّه بعد الظهر في المدينة، أردت الاختفاء دون أن أترك أثراً، الصعود في باصٍ للركاب متّجه إلى الشمال أو في معدّية والعودة إلى المغرب لكنّي تردّدت - لم أكن أملك شيئاً، لا مال لديّ ولا أوراق ثبوتيّة لأنّه احتفظ بجواز سفري لديه، وكنت من البلاهة بحيث أعطيته إيّاه. كما خشيت أن يتمّ توقيفي ورميي في السجن ومن ثمّ طردي إذا كنت مراقباً.

بُحْتُ بأفكاري لإمام المسجد الذي أتى يُصلّي على أرواح موتانا. حدّثته عن غرابة أطوار السيّد كروز فوافقني وهو يهزّ كتفيه بهيئة عاجزة. أخبرني عن ظنّه بأنّ سلفي هرب لهذا السبب بالذات، لغرابة أطوار السيّد كروز، لكن يشفع به أنّه يكِنّ الاحترام للموتى والدين. وهذا يكفي.

عندما أستعيد من سجني هذا الأيّام الطويلة التي أمضيتها على متن «ابن بطوطة»، أشعر أنّ فيها طعم الجنّة.

قرّرت الهروب. هذا ليس صعباً على أيّة حال، لن يذهب الأمر بكروز إلى حدّ اللحاق بي. لكن يجب، قبل كلّ شيء، الحصول على أوراقي الثبوتيّة، وعلى المال.

ذات يوم، غادر السيّد كروز عند الفجر مع عربة الموتى. وعاد بحمولة من المتوفّين- سبعة عشر ميتاً، انقلب قارب الباتيراس بهم في عرض البحر في طريفا وجرف التيّار جثثهم ليذرّيها على الشواطئ. بدا سعيداً بهذه الغنيمة، لكنّها سعادة غريبة، لا سيّما أنّه تقصّد بألا يبدو سعيداً بإثرائه على حساب الموتى التعساء. لكن، خلف سيمائه المتحفّظة، ومن الطريقة التي داعب بها كلبيه، أو قال لي فيها «يا صغيري لخضر»، كنت أستشفّ أنّه برغم خجله كان سعيداً باستئناف أعماله.

سبع عشرة جثّة: رقم صغير وهائل في آن. لا يدرك المرء معناه الحقيقي إذ يستمع إليه على الراديو أو التلفزيون عقب هذه الكارثة أو تلك. ربّ قائلٍ إنّ سبع عشرة جثّة، ليس هذا بالرقم الضخم، حدّثني عن ألف جثّة، أو ألفين، أو ثلاثة آلاف، لكن سبع عشرة، سبع عشرة فقط ليس ذلك بالرقم الفادح. وبرغم ذلك، برغم ذلك حقّاً، إنّها لكميّة لا تعوّض من الحياة المفقودة، واللحم الميّت، تزدحم بها الذاكرة كما الغرفة المبرّدة، سبعة عشر وجهاً وأكثر من طنّ من اللحم والعظم، وعشرات آلاف الساعات من الوجود، ومليارات الذكريات الضائعة، ومئات الأشخاص الذين سيحدّون بين طنجة ومومباسا.

دثّرت هؤلاء الموتى في الأكفان واحداً واحداً وأنا أبكي- كان

معظمهم من الشبّان، في مثل سنّي، لا بل أقلّ، محطّمي الأطراف أو على وجوههم آثار الكدَمات. وبدوا في معظمهم من العرب. بينهم جثّة فتاة وشَمَت بالحنّة رقم هاتف على ذراعها، رقماً مغربيّاً. كان شعرها طويلاً، شديد السواد، ووجهها مرمّداً. شعرت بالانزعاج. لم أكن أريد أن أرى ثدييها ولا عضوها. وبطبيعة الحال لم يكن يفترض بي أن أضعها في النعش بنفسي. كان على امرأة أن تهتمّ بذلك. خفت من نظرتي بالذات إلى هذا الجسد الأنثوي. تخيّلت مريم ميتة- كانت هيَ من أودعها النعش، هي مَن أدفنها أخيراً، وحيداً في ليل كوابيسي؛ تخيّلت الشرطة تتّصل برقم الهاتف هذا الموشوم، فتجيب أم أو أخ. صوت شبه آلي يبلّغهم ما حصل وهو يكرّر قوله معلياً النبرة سعياً لإفهامهم وفاة شقيقتهم أو ابنتهم، تماماً كما صدح الهاتف عند عمّي ذاك اليوم ليبلغهم هذا الخبر الرهيب، وكما سَيصدح رنينه ذات يومٍ من أجلنا أيضاً، الواحد تلو الآخر. خجلاً حذراً وضعت هذه المجهولة في ناووسها المعدني بحنانٍ أخويّ.

ربّما لم أتخيّل الموت حقاً إلا حين رأيت جثّتي بالذات في جثّة الشبّان الآخرين أمثالي، المغربيّين أمثالي، مرشّحي المنفى أمثالي.

في المساء، كنت أكتب قصائد لكلّ هؤلاء المفقودين، قصائد سريّة أدسّها فيما بعد في نعوشهم، رسائل صغيرة ستختفي معهم، على سبيل التكريم، والرثاء. كنت أمنحهم أسماء، وأحاول أن أتخيّلهم أحياء يرزقون، أتخيّل حياتهم وآمالهم ولحظاتهم الأخيرة، وأحياناً أراهم في الحلم.

لم أنسَ قطّ وجوههم.

كان حقدي على كروز يتعاظم، حقد لاعقلانيّ. ما خلا الأسر النسبي الذي كنت أعيشه، لم يكن كروز شريراً. كان يتداعى تحت ثقل جثثه، ويَسِمُه فقط هذا الانحراف الذي يدفعه إلى النظر والتلصّص طيلة النهار على أفلام الفيديو المتمادية في عنفها كالمذابح في أفغانستان، وأحكام الإعدام شنقاً إبّان الحرب العالميّة الثانية، وحوادث السيّارات من كلّ نوع، والأجسام المحروقة جرّاء القصف.

كان عليّ أن أغادر في أسرع وقتٍ ممكن.

كلّ يوم يمرّ أتحسّر فيه على كازانوفا وجنودي القتلى. وأفكّر في جوديت وأبعث إليها رسائل نصيّة قصيرة، أو أتّصل بها أحياناً. وفي معظم الوقت لا تُجيب على الرسائل ولا ترفع سمّاعة الهاتف. شعرت أنّني في اليمبوس، في البرزخ الذي لا يمكن الوصول إليه بين الحياة والعالم الآخر.

لم يكن لديّ كتب إلا القرآن وروايتان بوليسيّتان اشتريتهما صدفة من المدينة. لم تكونا خارقتين، لكنّهما تساعدان في جميع الأحوال على تزجية الوقت. ثم حصلت على ثلاثة أيّام عطلة لأنّ كروز اضطرّ للسفر لأجل تسليم حمولة جثث في الجهة الأخرى من المضيق. لم يكن بإمكانه سجني طيلة هذا الوقت. عندئذٍ أعطاني القليل من مال الجيب (حتى الآن، لم أرَ فلساً من أجري) لكي أذهب وأتسلّى في المدينة، على حدّ قوله. أمضيت نهاراتي على أرصفة المقاهي، أقرأ بهدوء وأنا أحتسي أكواب البيرة على مهلٍ.

ذهبت لتفقّد بريدي الإلكتروني، وكانت المفاجأة: رسالة من الشيخ نور الدين بعثها لي من السعوديّة حيث كان يعمل في مؤسّسة دينيّة. سألني عن أخباري. أجبته بأنّني في إسبانيا دون أن أوضّح له طبيعة عملي المشؤوم. تردّدت في إخباره عن حريق مركز نشر

الفكر القرآني، وتساءلت عمّا إذا كان على علم بذلك. كانت رسالته ودودة، لا بل أخويّة. بدت لي شكوكي بالنسبة لمشاركته المحتملة في اعتداء مراكش مضحكة في ذاك الوقت، وإن بقي لغز اختفائه المفاجئ كاملاً- سألته عمّا إذا كان يعرف مكان بسّام.

طالعني من جديد الحنين إلى جلسات القراءة الطويلة في مركز الجماعة، وأنا ممدّد على السجاجيد. بدت لي طنجة بعيدة، وكأنّها من عالم آخر.

كتبت مطوّلاً إلى جوديت لكي أخبرها قليلاً عن حياتي كمحكوم بالأشغال الشاقة في ألجزيراس. لم أتطرّق إلى ذكر الجثث، بل فقط إلى أعمال الصيانة والتنظيف وغرابة كروز. أعربت لها عن أملي برؤيتها قريباً.

اتّصلت بسعدي ودعوتُه لاحتساء فنجان قهوة في وسط المدينة. كانت لديه تأشيرة مرور ويستطيع الذهاب والمجيء كيفما يشاء. ذاك ما يسمّى بظلم الدوائر الحكوميّة: كلّما تقدّمت بك السنّ وتضاءلت رغبتك في التنقّل، سَهُلَ عليك التنقّل!

بدا سعيداً للقائي، وأنا أيضاً. سألته عن أخبار الشركة- قال لي إنّ الحكومة المغربيّة ستجِد حلاً بين ليلةٍ وضُحاها. قال لي إنّ الفرصة لا تزال سانحة أمامي للعودة إلى المركب.

تردّدت. تلك كانت طريقة في ترك كروز. لكنّها طريقة أيضاً في الافتراق عن جوديت. كنت واثقاً من أنّني إذا عدت إلى طنجة فستكون عودتي إلى إسبانيا شبه مستحيلة.

خمّن سعدي سبب تردّدي، فلم يُصرّ.

حدّثته عن نهاراتي عند كروز، والحزن الهائل الذي يبثّه هذا العمل المرعب في نفسي. استمع إليّ جاحظاً عينيه وهو يهزّ رأسه

الأشيب قائلاً: يا بُنيّ لو عرفت لما أرسلتك إلى هذا المكان القذر- حاولت طمأنته، دون كبير اقتناع، وأنا أقول له إنّ هذا سيسمح لي بتجميع بعض المال لأرحل إلى برشلونة في غضون شهرٍ أو شهرين.

بقينا حتّى المساء جالسين على الرصيف نفسه، ننعم بالنسيم والهدهدة الناعمة لأغصان النخيل التي أرخت بظلّها الخفيف على المكان. ومن ثمّ تأهّب للرحيل من جديد. عانقني قائلاً لي هل أنت واثق من أنّك لا ترغب في العودة معي إلى المركب؟ يحزنني أن أعيدَك إلى ذاك المكان.

تردّدت آونة. أمر مغرٍ البقاء معه والعودة إلى قفص «ابن بطّوطة» العائم حيث لا يمكن لشيء أن يحدث لك سوى أن تسحق صرصوراً على غفلة منك وأنت حافي القدمين.

وأخيراً عدلت عن مرافقته واعداً إيّاه بالاتّصال به في أقرب وقت ممكن. وبعد عناق أخير انطلقت لأركب الباص.

اغتنمت أيضاً فرصة غياب ربّ عملي لأستشرف خطّة. كنت أعرف أنّه كان يحتفظ- على الأقلّ حين يكون هنا- بمبلغٍ من المال الذي يدفعه نقداً في خزنةٍ صغيرة، وأنّ لهذه الخزنة مفتاحاً يحتفظ به في علاّقة مفاتيحه.

خطرت لي فكرة السرقة من الرواية البوليسيّة التي كنت أقرأها، ومن كلّ الروايات البوليسيّة التي قرأتها. وفي نهاية الأمر ألم أكن أنا نفسي أسيرَ روايةٍ سوداء، لا بل شديدة السواد- كان منطقيّاً إذاً أن تلهمني هذه القراءات وسيلة للخروج من المأزق.

يروي ابن بطوطة في رحلاته أنّه خلال زيارته مكّة، التقى شخصاً غريباً، أخرس يعرفه كلّ أهالي مكة ويدعونه حسن المجنون، وقد أصابه الجنون في ظروفٍ غريبة: عندما كان لا يزال سليم العقل، كان حسن كثير الطواف حول الكعبة في الليل، وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذاك الفقير، وسأله عن حاله، وقال: يا حسن إنّ أمّك تبكي عليك، وهي مشتاقة لرؤيتك، أفتحبّ أن تراها قال له نعم، ولكنّي لا قدرة لي على ذلك، فقال له: نجتمع ها هنا الليلة المقبلة. فلما كانت الليلة المقبلة، أمره أن يسدّ عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك. ثم قال له بعد ساعة: أتعرف بلدك؟ قال له نعم. فقال ها هو ذا. ففتح عينيه فإذا به على دار أمه، فدخل عليها، ولم يعلمها بشيء ممّا جرى، وأقام عندها نصف شهر، ثم خرج إلى الجبّانة فوجد الفقير صاحبه، فقال له: كيف أنت؟ فقال: يا سيدي إنّي اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين، وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الأيّام، وأحبّ أن تردني إليه، فقال له نعم ! وواعده الجبّانة ليلاً، فلمّا وافاه بها أمره أن يفعل كفعله في مكة، وأوصاه أن لا يحدّث

نجم الدين بشيء ممّا جرى، ولا يحدّث به غيره. فلمّا دخل على نجم الدين، قال له: أين كنت يا حسن في غيبتك؟ فأبى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية، فقال: أرني الرجل! فأتى معه ليلاً وأتى الرجل على عادته، فلمّا مرّ بهما، قال له: يا سيّدي، هذا هو! فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال: اسكُتْ أسكتك الله فخرس لسانه، وذهب عقله، وبقي بالحرم مولهاً يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة، والناس يتبرّكون به ويكسونه، وإذا جاع خرج إلى السوق فيقصد حانوتاً من الحوانيت فيأكل منه ما أحبّ، ولا يصدّه أحد ولا يمنعه، بل يسرّ كلّ من أكل له شيئاً، وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه.

كان حسن المجنون يطوف، ويطوف حول الحجر الأسود في الصمت الأبدي لأنه أراد رؤية والدته، ولأنّه أفشى سرّاً. وأنا الغارق في ظلماتي، بالقرب من جثث كروز الضئيلة، ووسط كلبيه، كنت أصلّي كي يخرج لي متسوّل ساحر من العتمة لبعض الوقت ويعيدني إلى الوراء، إلى ضوء طنجة، إلى أمّي، إلى ذراعي مريم، وجوديت، قبل أن يتركني أدوّم مثل نيزكٍ هشّ حول الكوكب لسنواتٍ طِوال. أفكّر اليوم أيضاً في هذا الفصل الاعتراضي، في هذا الانزواء في ألجزيراس، في غرفة الانتظار هذه، فيما من حولي يدور الهالكون، ويطوفون، عمياً، ولا كتب تنجدهم. كان كروز في الواقع يستفيد من إمكانات هذا العالم، ومن أبّهات الموت. كان يعيش مثل هذه الجلّالات(٥٤)، هذه الديدان والحشرات التي تتكاثر

---

(٥٤) جلّالات: جمع جلّالة، وهي حشرة تعيش في زبل الحيوانات العاشبة.

على الجثث، وكان له ضميره، بلا شكّ، معتبراً أنّه يفعل الخير ويُسدي الخدمات. كان طفيليَّ البؤس: أنّى لك أن تلوم كلباً على أنّه يعضّ. كان حارس القصر، ملاح المضيق، كان رجلاً ضائعاً، هوَ أيضاً، في متاهات غابته القاتلة، التي كانت تدور، إلى ما لا نهاية، في الظلام.

ربّما كانت هذه العِشرة الطويلة للجثث هي التي سهّلت عليّ الأمور. ربّما كان هذان الشهران اللذان أمضيتهما في كنف الموت هما اللذين جعلا إمكانية سلب «السينيور» كروز أمراً يسيراً تصوّره.

عاد كما كان متوقّعاً بعد ثلاثة أيّام، مرهقاً، على حدّ قوله، جرّاء الرحلة الطويلة التي قطعَها في الشاحنة متّجهاً إلى أقصى المغرب. بدا سعيداً لرؤيتي من جديد.

أخبرني عن رحلته التي مرّت على خير. شاءت الظروف أن تكون الجثث الخمس التي اصطحبها معه من بني ملال[٥٥]، من المدينة نفسها، ما يجعل مهمّة إرجاعها أمراً عمليّاً ومحزناً في آن. وكالعادة بكت النساء بكاءً مرّاً وثقبت زغاريدهنّ الآذان. حفر الرجال القبور لدفن الجثث وهكذا تمّ الأمر. تسنّى له الوقت فقط للتوقّف في كازابلانكا لليلة وتناول وليمة فاخرة، قال «وليمَة فاخرة» بصوتٍ خافت وكأنّ الأمر يتعلّق بالعشاء الأخير.

سكب كروز لنفسه كأس ويسكي.

أجلسني قبالته على الكنبة واقترح عليّ مشاركته الشراب فرفضت.

---

(٥٥) بني ملال: مدينة مغربية تقع في الوسط الغربي للمملكة المغربية.

لم يكن يقول شيئاً. بدا المشهد كلّه وكأنّه يستدعي الحديث والاعترافات، لكنّ كروز استمرّ في صمته. كان يحتسي ويسكي Cutty Sark وهوَ يَرمقني بنظراته من وقتٍ لآخر. شعرت بتوتّرٍ متزايد.

حاولت أن أتكلّم، أن أطرحَ أسئلة عن رحلته إلى المغرب لكنّ أجوبته كانت في غاية الاقتضاب.

أفرغ كأسه، واقترح عليّ بتهذيب كأساً ثمّ سكب لنفسه كأساً من جديد.

وخلال ربع ساعة منَ الصمت الطويل، وأنا أنظر مداورة إلى ركبتيّ وإلى وجهه البارد، استأذنته بالانصراف سائلاً منه أن يعذرَني لأنّه عليّ إطعام الكلاب. أشارَ إليّ برأسه إشارة مرفقة بابتسامة خفيفة.

عندما صرت في الباحة، تنهّدت الصعداء. كنت أرتجف مثل ورقة في مهبّ الريح. عبر الزجاج، رأيت وجه كروز المكتنز المكتسي بالزرقة الكهربائيّة لشاشة الحاسوب يتابع تأمّله المذهول لشتّى الميتات.

شعرتني في خطر وتملّكني خوف جامح جنونيّ. جثوت بين الكلبين. أدخلا خطميهما تحت إبطيّ، وهدّأت نعومة فروِهما ونظراتهما الصافيَة رَوْعي قليلاً.

بدا كروز مترنّحاً هكذا على حافة الكلام.

لم أصادف الجنون من قبل، فيما لو كان كروز مجنوناً- لم يكن يسترسل في خطبٍ بلهاء ولا يقرع رأسه على الجدران ولا يأكل برازه، ولا تأخذه الهلوسة أو الرؤى؛ كان يعيش أمام شاشة الحاسوب، وفي الشاشة مشاهد مرعبة- صور قديمة لممارسات تعذيب صينيّة حيث عُلِّقَ على خشبة الموت رجال مجرّحو الصدور مبتورو الأطراف بسواطير الجلّادين والدم ينزف منهم؛ مشاهد قطع رؤوس أفغانٍ وبوسنيّين، وأخرى حافلة بالرّجم وبقر البطون والقذف من النافذة؛ تحقيقات لا تُحصى عن الحروب- كان المتخيّل مصوّراً في الأفلام أكثر واقعيّة من الشرائط الوثائقيّة أو صور مطلع القرن. تساءلت لماذا يُفَتّش كروز عن الصور المرفقة بالتنويه: «واقعيّة». كان يريد الحقيقة لكن ماذا يقدّم له هذا جديداً؟ فيما لديه جثث ملء غرفته المبرّدة، جثث حقيقيّة، يعرفها في الصميم ويرافقها منذ سنوات. حتى اليوم لا أزال أتساءل ما الذي كان يحثّه باستمرار على رؤية هذه المشاهد الافتراضيّة المرضيّة. كان حريّاً به أن يكون شُفِيَ من الموت، ومع ذلك كان يلتهم كيلومترات من صوَر التعذيب والمجازر- فَعَمَّ كان يفتّش؟ عن إجابة

على أسئلته، أم عن أسئلة لم تكن الجثث تجيبه عليها، أتراه يتحرّى عن لحظة الموت، لحظة العبور - أم أنّ الصور بكلّ بساطة استحوذت على كيانه، وحملته الجثث على مغادرة الواقع فراح ينقّب في الواقع السيبرنطيقي علّه يجد فيه بديلاً عن الحياة لكن دون جدوى.

على مرّ الأيام كان ارتعابي منه يتزايد باطّراد- من دون سبب. بَيْدَ أنّه كان الأقلّ أذيّة بين الكائنات؛ كان رقيقاً معي، ورقيقاً مع كلبيه، ومُجِلاً للموتى. كلّ يوم أتردّد في التماس جواز سفري منه والرحيل بما توفّر لي، بئس المال، وداعاً سيّد كروز، وداعاً الغرقى، والضوء الأزرق لممارسات التعذيب على «اليوتيوب»، وليحصل ما يحصل- لكنْ، في كلّ مساء، في كوخي الصغير، وقد هدّأت رَوعي صحبة الكلبين، ونعومة فروِهِما، ولهاثهما الساكن، يعودني حلمي بالسرقة، بالألفي أو الثلاثة آلاف أورو التي يمكن أن تنعم بها عليّ خزنة كروز الحديديّة. تصوّرت خطّة، إحدى تلك الحِيَل التي لا توجد إلا في الكتب، حتّى نجرّبَها: الذهاب إلى المدينة لِشراء مفتاحٍ مشابه، لأنّه كان نموذجاً شائعاً، واستبداله في علّاقة المفاتيح التي غالباً ما يتركها مرميّة في المدخل- بالطبع، لن يفتح المفتاح الجديد الخزنة، لكن عندما ينتبه كروز إلى الأمر أكون قد صرت بعيداً مع قليلٍ منَ الحظ.

كنت أظنّ أنّ كلّ الجثث التي أغسلها وأضعها في التوابيت تبرّر سرِقتي. لكنّ هذا غير صحيح لأنّ مهنة السيد كروز مهنة شريفة، فهو لم يقتل بنفسه هؤلاء الناس البائسين، بل كان مُحسِناً، كما أنّه لم يستغلّ عائلات المتوفّين، بل كانت الدولة فريسته، وكان إقليم الأندلس المستقلّ ذاتيّاً هو الذي يدفع له يوميّاً بدلاً عن إيداعه جيَف

أبناء بلدي. لكن كلّ الثراء الذي رأيته يكدّسه، خواتمه الذهبيّة، والسلاسل حول عنقه، وقمصانه السوداء، وسيّارته، وكلبيه القطبيين بعيونهما الزرقاء، القابعين في ظلّ النباتات المعرّشة. كلّ ذلك بدا لي مسروقاً من الموتى، وملك هؤلاء الحمقى الذين حلموا لِوَهلة بحياةٍ أفضل، والذين فكّروا، مثلي، أنّهم يستطيعون أن يخطّوا لهم مكاناً في هذا العالم. واحتراماً لهذا الحلم كنت أعتقد أنّه بإمكاني أن أقتطع لنفسي حصّة من مال السيّد كروز، بمثابة انتقام وإن كان صغيراً لهؤلاء الشهداء التعساء الذين قاسوا أهوال الغرق والاحتضار في عزلة اليمّ الظلماء.

كلّما كان قراري يزداد حزماً، كنت أفيق في الليل مفكّراً في كيفيّة تنفيذ الخطّة، وفي الطريقة التي أستحوذ بها على مفتاح الخزنة الحديديّة، وتحديد ساعة الهرب، وكيفيّته: عليّ السير على القدَمين مسافة ثلاثمئة متر حتّى محطّة توقّف الباص، والانتظار حتى مرور وسائل النقل الأندلسيّة الرابطة بين المدن التي لا يُعرف لها نظام. إنّها اللحظة الحاسمة التي سأكون فيها الأكثر تعرّضاً للخطر، كما يحدث في الروايات. كانت الكتب والسجون حافلة بالذين ارتكبوا زلاّت هائلة ثم قُبض عليهم بسهولة عند محطّة توقّفِ للباص، أو على رصيف مقهى. لن يحدث هذا لي. سأركب الباص، ومن ثم أذهب إلى المحطّة وأصعد في حافلة الساعة الحادية عشرة ليلاً، وفي الغد، سأكون في برشلونة، ضائعاً وسط الحشد.

لم أكن أستطيع أن أترجم قراري إلى حيّز الفعل. بدا كروز مأخوذاً أكثر فأكثر بالإنترنت، ويطيل مكوثه أمام الشاشة حتّى وقتٍ متأخّر، أحياناً حتّى الساعة العاشرة ليلاً مستكشفاً أفلام الفيديو

الخاصّة بالموت- عثِر على موقعٍ عنوانه «وجوه الموت» يعرض شتّى أشكال الميتات العنيفة: مقتل متظاهرة إيرانيّة شابّة على يد قوى النظام، مصرع ثوار مصريّين بأيدي الشرطة، إحراق جنود ليبيّين وهم أحياء في سيّارتهم العسكريّة، ذبح أطفال سوريّين... كانت الأحداث الراهنة المتوالية على الإنترنت تمدّ كروز بمشاهد دسمة.

ذات يوم مشؤوم، تقيّأ المضيق جثّة قديمة مهترئة عَثَرَ عليها متنزّهون على أحد الشواطئ- ذهب قاضي التحقيق إلى المكان مشيراً بأنّه يبيح نقل هذه البقايا الممتزجة بالرمل، فيما استنتج القاضي الشرعي الموت غرقاً، وهرَع كروز في سيّارة الموتى ليأخذ على عاتقه نقل الجثمان قبل أن يُنافسَه عليه أحد: كانت الجثّة محزنة ونتنة، وشم الرجل اسم سلمى على صدره، وكان هذا كلّ ما يمكن أن يُساعد في تحديد هويّته. لم يعد لديه وجه، ولا أيّ شيء يمكن من خلاله التعرّف إليه فجرى إيداعه فوراً في صندوق الزنك لحجبه عن الأنظار. خلع السيّد كروز قفّازاته المطّاطيّة، ثمّ قناعه. انحدرت دمعة صغيرة من زاوية عينه اليُمنى، مسحَها وهوَ يدعك وجهه بعضلة ذراعه الممدودة. تنهّد، ثم التفتَ نحوي دون أن يقول شيئاً. عَبَرَ الباحَة متّجهاً إلى غرفتي الصغيرة، وتبِعَه الكلبان وهما يحرّكان ذيليهما، ظنّاً منهما أنّه يريد اللعب معهما أو إطعامهما. ثمّ خرج من كوخ الحديقة وفي يده زجاجة. تساءلت عمّا إذا كان وضع هناك زجاجة ويسكي لم ألاحظها من قبل، لكنّها بدت أصغر حجماً من زجاجة «الكاتي سارك» التي لا تُفارقه. أشار لي بأن أتبعه إلى المكتب. وقال بصوته الخافت:

- المناسبة تستحقّ فعلاً نخباً، أليس كذلك، يا لخضر؟

وجلس كعادَته أمام شاشة الحاسوب محرّكاً فأرته لإدخال رمزه المشفّر. بقيت واقفاً.

- اجلس، اجلس سنشرب كأساً ونتحدّث قليلاً.

بحثت عن عذرٍ لأتملّص منه لكنّي لم أجد. أرهقني وضع الجثّة في التابوت وبتّ غير قادرٍ على التفكير. وكما في كلّ مرّة كنت أنتهي من عملي وأنا منهك.

جلست على الكنبة ناظراً إلى الزجاجة التي وضعها على مكتبه: كانت قارورة من زجاج سعتها نصف لِتر، وبطاقتها موجّهة نحوه. كان السيّد كروز يحتاج إلى كأس شراب. وجهه الطويل شاحِب وعيناه مطوَّقتان بهالاتٍ سوداء. وضع فيلم فيديو، بشكلٍ ارتكاسي، حدّق إلى الشاشة لثانية ثم أوقف توالي صور الموت التي لم أكن أراها.

- حسناً لخضر، هل تريد قليلاً من الويسكي؟

كان فجأةً متوتّراً بشكلٍ يفوق العادة. ذهب إلى المطبخ وعاد بكأسين ومكعّبات الثلج في دلوٍ معدنيّ.

لم أشأ إغاظته. وافقت. ربّما كان هذا يُريحُني أنا أيضاً.

وأمسك في الحال قنّينة «كاتي سارك» من على الرفّ، ثم فتحها وسكب الويسكي بلمحة عين رامياً مكعّبيْ ثلج في كلّ كأس وتجرّع كأسه مرّة واحدة قبل أن يتسنّى لي الوقت لأمسك بكأسي. همس: آه، تعبيراً عن الشعور بالارتياح، ثم سكب كأساً أخرى، وناولني كأسي ثمّ ارتمى على الكنبة مسترْخِياً.

أفرغت نصف المشروب بجرعةٍ واحدة أنا أيضاً. لم أشرب الويسكي من قبل. كان الويسكي بالنسبة لي مشروباً خرافياً يجب احتساؤه في إحدى حانات لندن، أو في باريس، برفقة فتاةٍ إلى

جانبك. كان للويسكي طعم البق المسحوق، مع حرقة في البلعوم. صعب عليّ أن أفهم اهتمام كتّابي بهذا المشروب. وخصوصاً في هذه الظروف.

كان كروز يراقبني، كالعادة، على شفير الكلام. يبدو دوماً كأنّه يهمّ بقول شيءٍ دون أن يفصح عنه، أو كأنّه مصاب بلثغ أبديّ. يبدأ جملته باسمي، يقول لخضر؟ فأجيبه نعم سيّد كروز، ثم لا شيء، ويحدّق إليّ صامتاً.

كنت أصلّي في قلبي لأغادر هذا المكان في أقرب وقت ممكن. بئس المال، بئس كلّ شيء. سآخذ جواز سفري وأمضي، أعود إلى المغرب، أعود إلى طنجة وأنسى ألجزيراس، وأنسى الموتى، وأنسى جوديت وبرشلونة.

كنت سأقول توّاً لكروز إنّني أريد العودة إلى بلادي. كانت تلك لحظة مناسبة. بدا هادئاً تحت تأثير الكحول. تردّد مرّة أخرى قائلاً لخضر؟ دون أن يضيف شيئاً آخر. أمسك القارورة الصغيرة وسكب منها جمام الكأس ثم أضاف مقداراً كبيراً من الويسكي حتّى ملأ ثلاثة أرباع الكأس. ثمّ حدّق إلى المزيج. وأخذ يقلّب مكعّبات الثلج التي لم تذب بعد.

نهضت، لم يعد بإمكاني المكوث في مكاني. قلت سيّد كروز. . . نظر إليّ بألم، بعذابٍ اجتاح وجهه الضخم فجأةً. فتمتمت يجب عليّ الذّهاب لإطعام الكلاب.

مرّر يده على وجهه كأنّما ليمسَحَ عرَقاً وهميّاً.

قال:

- لخضر؟

- نعم سيّد كروز؟

- عذْ بسرعة، أنا بانتظارك.

وتجرّع مزيجه دفعة واحدة وقد بدا عليه الارتياح.

أعقب ذلك صمت طويل وكأنّه لا يزال متردّداً في إضافة شيء ثمّ همس:

- أنت محظوظ، سوف ترى.

كانت الجملة غامضة. ظننت، وأنا ألهو قليلاً مع كلبيْ الهاسكيز قبل أن أخرج قصعتي طعامهما، أنّ كروز حدس برغبتي في الرحيل، وأنّه كان يتمنّى لي التوفيق في المستقبل.

أطعمت الكلبين ثم دخلت إلى مكتبه. لم أجده. سمعت ضجّة في الحمّام، أشبه بتقيّؤ. خرج من الحمام مترنّحاً.

- هل أنت متوعّك سيّد كروز؟

كان يبلع ريقه بصعوبة وفمه يتلوّى، وكان وجهه من التشنّج بحيث أخذت عيناه تتدحرجان مثل كلّتين.

- بدأ يأخذ مفعوله يا لخضر.

قلت في نفسي: إنّه ثمل تماماً.

جلس على الكنبة قبالة المكتب. كان يتنفّس بمشقّة. صالب ذراعيه على بطنه وكِأنّه يتألّم شديد الألم.

- هذا لن يدوم طويلاً... انتظر وسترى...

مطّ شفتيه وهو يصرّ على أسنانه وقد احمرّ وجهه وأخذت كتفاه ترتجفان. ثم ألصق ركبتيه بأحشائه وكأنّه يريد التخفيف من ألمه.

- سيّد كروز؟ هل أنت مريض؟

تظاهرَ بأنّه يريد أن يُجيبني دون أن يوَفّق إلى إخراج الأصوات من حلقه. رفع ذقنَه نحوي، وراحت يداه تتلاطمان بعصبيّة. اكتسى جبينه وأنفه وشفتيه بلون بنفسجيّ. أخذ يحرّك رأسه من اليمين إلى

اليسار، منحنياً إلى الأمام، وكأنّه يريد طردَ الألم أو كأنّه لا يُصدّق ما يحصل له- لكنّ حركته استحالت تشنّجاً مرعباً في فقرات عنقه، انحرف جانبيّاً أوّلاً ثمّ إلى الخلف. كانت غدّته الدرقيّة تعلو وتهبط مهتزّة على طول حلقه المتشنّج وكأنّها حشرة ضخمة.

ثمّ اجتاحه انقباض في العضلات رماه أرضاً، صارت ذراعاه ممدودتين وساقاه مقوّستين وكأنّه يريد أن يزحف. أخذ يصرخ. اقتربت منه:

- سيّد كروز، هل تسمعني.

لم يستطع أن يُجيبني. تملّكني الخوف- لم يعد بوسعه بلع ريقه. تصلّبت رقبته، وعلا صدره، وتقوّس ظهره، وبدا أنّ عينيه ستتطايران من وجهه. كان جسده سلكاً فولاذيّاً مشدوداً بالعذاب. حاول الكلام، حاول التشبّث بي لكنّ يديه المفتوحتين كانتا تتلويّان إلى الخارج وأصابعهما متباعدة بشكلٍ مخيف- دامت النوبة عشرين ثانية، أو ربّما أكثر بقليل، ثم تلاشى، تلاشى متنهّداً، ومتأوّهاً. وراح يتنفّس بشكلٍ صاخب. صرخت به سيّد كروز ما هو رقم الطوارئ؟ ما هو رقم سيّارة الإسعاف؟ لم يجبني. هرعت إلى الهاتف وطلبت بسرعة الرقم ١٥ كما في المغرب فلم يُسفر عن أيّ نتيجة. نظرت بسرعة إلى المكتب لأرى ما إذا كان هناك دليل هاتف فلم أجد.

وفجأةً اختلج كروز مرّة ثانية اختلاجة أعنف من الأولى فيما لو كان هذا ممكناً. كان مرآه فظيعاً: أجفانه انقلبت داخل محجرَيه مختفية خلف مقلتي العينين، وجهه بنفسجي، قدماه لوتا نعليه المطّاطين السميكين وكأنّهما من ورق مقوّى. ثم انتفض جسده بفعل التشنّج المطلق لجميع العضلات، وأطلق كروز صرخة حادّة

وكأنّها خارجة من أعماق صدره- بدأت عيناي تدمعان، سينيور كروز، سينيور كروز، سينيور كروز، لم أعد أعرف ماذا عليّ أن أفعل. فكّرت في الذهاب إلى أحد الجيران وإعلامه، خرجت راكضاً مستعدّاً لاجتياز المئتي متر التي تفصلنا عن أقرب بيت أو أن أوقف سيّارة عابرة على الطريق. حين صرت في الباحة، تذكّرت أنّ هذه البوّابة اللعينة كانت دوماً مقفلة، وبدَل أن أجازف بتسلّقها، فضّلت العودة على أعقابي لآخذ المفتاح من جيب كروز وأفتحها لطلب النجدة.

كان كروز مستلقياً على جانبه الأيسر وجسده على شكل نصف دائرة مرعبة: انحنى ظهره مثل قوس دون وتر وتقدّم حوضه إلى الأمام وتحدّبت قدماه بشدّة؛ كان أشبه براقص باليه مخيف لا سيّما وأنّ رقبته الملتوية وفمه المفتوح على شدقيه كانا يكمّلان الوضعيّة الفظيعة. حتّى أطراف سلاميّاته كانت تشارك في هذا التشنّج المجمّد الذي استنفد كلّ طاقته. كان ميتاً. اقتربت. لا شيء ورد بفكري، ولا حتّى صلاة.

انضمّ كروز إلى قافلة غرقى المضيق.

الحركة الوحيدة المتبقيّة في كتلة اللحم هذه عقارب ساعته التي كانت تشير إلى الساعة السادسة والدقيقة الثالثة والأربعين.

٩

بقيت منذهلاً لبعض الوقت، جاثياً أمام الجسد الجامد، ثم ما لبثت أن عدت إلى رشدي. بالطبع لم أفهم ما حدث ولزمني سنوات لفهم البرص الذي كان يتآكل كروز في وحدته. نضحني بموته وأهداني احتضاره، يا للهديّة المرعبة. أيقنت أنّه تناول السمّ نصب عينيّ. ذهبت لأغسل وجهي بالماء، فيما آلاف، وملايين الأفكار المتناقضة تهدر في رأسي. ثم يا للعجب لاحظت لتوّي الزجاجة الصغيرة على المكتب وبطاقتها الحمراء التي تحمل علامة موت بيضاء. درت للحظة في أرجاء الغرفة قائلاً في نفسي: هيّا، تحرّك؛ أمسكت بعلاّقة مفاتيح كروز وفتّشت بدقّة في أدراج المكتب فلم أجد شيئاً مهمّاً إلا جواز سفري؛ فتحت خزنة الحديد الصغيرة بالمفتاح الذي على شكل صليب وكان فيها أوراق عدّة لا أعرف ماذا أفعل بها وما يُقارب خمسة آلاف أورو نقداً. ها قد غدوت لصّاً. كان لديّ ما يؤهّلني للعيش بعض الوقت في برشلونة أو في أيّ مكانٍ آخر، بمال الموتى...

بالطبع ستكون الشرطة في أثري لا سيّما وأنّني تركت بصماتي في كلّ مكان حتّى على قنينة السمّ، كنت ملك الحمقى.

جمعت أغراضي ووضعتها في حقيبة رياضيّة مزرية صفراء

وزرقاء كنت وجدتها في الكوخ وعليها شعار نادي فريق كرة القدم في قادس.

أخذ القلق ينأى. تحاشيت إلقاء نظرةٍ أخيرة على كروز. داعبت طويلاً الكلبين على سبيل الوداع واتجهت إلى الطريق منتظراً مرور الباص.

حين بلغ ابن بطوطة بترحاله مدينة البلغار، أراد زيارة بلاد الظلمات التي يحكى عنها في أسطورة الإسكندر الكبير. لكنّه عدل أخيراً عن الذهاب إليها عندما أيقن أنّه لبلوغها واجتياز الجليد الذي يحيط بها، يجب ركوب مزلاج تجرّه كلاب هائلة. لذا اكتفى بسماعه الروايات عنها. علم أنّ تجّار الفرو يذهبون إليها ليُقايضوا الجلود مع ساكِنيها الغامِضين الذين يعيشون في الظلمة الكاملة:

«بعد أربعين يوماً من عبور صحراء الجليد هذه، يصل الرحّالة إلى بلاد الظلمات. يترك التجّار أجربة بضائعهم على مسافة قريبة من مخيّمهم. في اليوم التالي يعودون لتفقّد أكياسهم فيجدون مكان أغراضهم جلود سمامير وسناجب وقواقم. إذا أعجبتهم الجلود أخذوها وإذا لم تعجبهم تركوا أجربتهم ليلة إضافيّة. في هذه الحالة يُضاعف سكان بلاد الظلمات كميّة الفراء، أمّا إذا كانوا غير موافقين على البضائع التي أحضرها الرحّالة أرجعوها إلى أمكنتها. هكذا تتمّ التجارة في بلاد الظلمات وهؤلاء الذين يذهبون إليها يجهلون ما إذا كانوا يتعاملون مع بشرٍ أو مع جنّ لأنهم لا يرون أحداً على الإطلاق».

تركت ألجزيراس وفي داخلي الشعور بأنّ العالم كان فارغاً،

ومسكوناً فقط بالأشباح التي تظهر في الليل لتموت أو لتقتل، لتعطي أو لتأخذ دون أن تتلاقى أبداً أو أن تتواصل فيما بينها. وهكذا في الليل الطويل للحافلة التي اصطحبتني إلى برشلونة، مدينة المصير والموت، تولّد لديّ الانطباع المرعب بأنني أجتاز بلاد الظلمات، الحقيقيّة، ظلماتنا. وكلّما كان الباص يتقدّم في الظلمة على الطريق الرئيسة وسط الصحراء بين ألميريا ومرسيّة(٥٦)، تغلغل الرعب الذي شهدته فيّ. كان وجه كروز المتشنّج يظهر لي رطباً وبنفسجيّاً وسط وَميض مصابيح الشاحنات المنعكسة على زجاجي.

كان كروز بين الأشباح، وأنا أيضاً.

غير قادر على إغلاق عيني، مطارداً بالصور المشؤومة، والجثث التي أذبلها البحر، ووجه كروز الذي رمى باحتضاره عليّ، انتظرت أن يعتقني الفجر من ظلماتي فيما كانت الحافلة تقترب من أليكانتي(٥٧).

---

(٥٦) مرسيّة: مدينة تقع في جنوب شرق إسبانيا، تطلّ على المتوسّط ومن أهم شخصيّاتها في التاريخ الإسلامي ابن عربي وأبو العباس المرسي.

(٥٧) أليكانتي: مدينة تقع في شرق إسبانيا، هي أيضاً ميناء تاريخي على المتوسط.

القسم الثالث

شارع اللصوص

وصلت إلى برشلونة في الثالث من مارس- غادرت طنجة منذ أكثر من أربعة أشهر، ولم أكن أعرف أين أذهب. لا بدّ أنّني في معطفي الرياضي الأخضر وحقيبتي الرياضيّة التي تعود إلى ١٩٨٠، أبدو فقيراً بين الفقراء. كانت عيناي مطوّقتين بالهالات الزرقاء، ولحيتي سوداء- ثم إذا صدف وأوقفني رجال الشرطة وفتّشوني، سيشقّ عليّ تبرير آلاف الأوروات نقداً التي في حوزتي. بعد مال الشيخ نور الدين حصلت على مال السيّد كروز، وكأنّ الله كان يُسوّي الأمور دوماً لكي يمدّني بالموارد اللازمة لسفري. سلّمت أمري للقدر.

انحدر الباص في جادة دياغونال؛ كانت أشجار النخيل تداعب المصارف، ومباني العصور المنصرِمَة الراقية تنعكس في زجاج المباني العصريّة وفولاذها. أمّا سيّارات التاكسي الصفراء والسوداء فأشبه بزراقط لا تحصى منتشرة تحت أبواق الحافلات. كان المشاة الأنيقون والمنضبطون ينتظرون متريّثين على المفارق غير مستغلّين التفوّق الذي تمنحهم إيّاه كثرة عددهم لاجتياح الطريق المعبّدة. والسيّارات نفسها كانت تحترم الممرّات المسمّرة، وتتوقّف بعناية أمام الضوء البرتقالي الوامض، مفسحة المجال أمام مرور المشاة

عندما يحين دورهم. بدت لي الواجهات كلّها مترفة. كانت المدينة مُرهبة، لكن برغم التعب، أمدّني الوصول إليها أخيراً بطاقة جديدة. لكأنّني أستمدّ قوّتي من هذا البرج الملوّن هناك في عمق المشهد المبنيّ على شكل قضيب ذكوري منتصب برّاق وكأنّه إله وثنيّ.

بهرني ضوء الظهيرة فطرفت بعينيّ. أمسكت حقيبتي. يبدو أنّ «محطة الشمال» تُجاور حديقة كبيرة. و«محطّة فرنسا» في الأسفل على مسافة قريبة باتّجاه البحر ومن ثمّ إلى اليمين، المرفأ. لمحت حجرة هاتف فاتّصلت منها بجوديت. لا بدّ أنني كنت في منتهى الإرهاق لأنّني ما إن رفعت السمّاعة وسمعت صوتها حتى شرعت في البكاء كطفل صغير. قلت هذا أنا لخضر، أنا في برشلونة. بدت سعيدة لسماع صوتي، بالرغم من شهيقي. سألتني عن مكان وجودي، أجبتها بالقرب من محطّة الشمال. اقترحت عليّ أن أوافيَها على مسافة غير بعيدة من المكان، في حيّ يدعى «لو بورن» ثم أضافت، لا، دعْكَ منه، الطريق إليه صعبة، لن تستطيع أبداً العثور عليه، لا تتحرّك من مكانك سآتي لاصطحابك، امنحني مهلة ربع ساعة. قلت شكراً، شكراً وأقفلت السماعة. شعرت ببصري مبهوراً، واضطررت للجلوس أرضاً، عند أسفل الحجرة الهاتفيّة. حمدتُ الله مؤدّياً صلاة قصيرة. خجلت قليلاً من ابتهالي إليه.

بقيت هكذا، مغمض العينين، واضعاً رأسي بين يدي دقائق طويلة. ثم عدت إلى رُشدي. أردت أن أبدو قوياً لحظة وصول جوديت- شعرتني قذراً، تنبعث مني رائحة الجثث والمشرحة والحقد. لم أرها منذ الصيف الماضي، فهل ستتعرّف إليّ؟

ثمّ عادت إليّ طاقة «البرج الفريد».

طاقة الرغبة.

كانت الدقائق الأولى للقائنا غريبة.

لم يقبّل أحدنا الآخر لكنّنا تبادلنا الابتسامات. كنّا منزعجين كلينا. تبادلنا بعض العبارات التافهة وتفحّصتني بنظراتها من أخمص قدميّ إلى قمّة رأسي، دون أن تعقّب بشيء- أو على الأقلّ، دون أن تدلي بتعقيبها. قالت لي فقط هل تريد أن تتناول الغداء؟ بدا لي السؤال غريباً. أجبت نعم، لمَ لا، وشرعنا نمشي باتّجاه وسط المدينة.

أخبرتها عن الأسابيع الأخيرة لدى كروز، ولم أتطرّق بالطبع إلى خاتمتها المرعبة. تعاطفت معي. كنت من التخاذل والضعف بحيث رغبْتُ في أن ترثي لحالي طمعاً بعطفها. أخذ قلبي يخفق لرؤيتها من جديد. لم تكن لديّ إلاّ رغبة واحدة: أن تأخذني بين ذراعيها، وأن أتمدّد إلى جانبها يومين على الأقلّ. صادفنا في طريقنا قوس نصرٍ مبنيّاً من الحجارة القرميديّة الحمراء يفتتح متنزهاً واسعاً محفوفاً بأشجار النخيل والمباني الأنيقة. كنت آمل خفية ألا تكون أسعار المطعم الذي نذهب إليه باهظة كثيراً. لا أريد أن يربكني هندامي. لحسن الحظّ، اصطحبتني إلى حانة تشرف على ساحة صغيرة وجميلة، هادئة وظليلة. لا بدّ أنني أكرهت نفسي على الأكل.

لم أستطع أن أطرح أسئلة على جوديت، على الأقلّ تلك التي كنت راغباً في طرحها عليها. سألتها عن برشلونة، وجغرافيا المدينة، وعن الأحياء. لم أطرح عليها أيّ سؤال شخصي، كان كلّ حديثي مصطنعاً بشكلٍ منفّر. تحاشت النظر إليّ مباشرة في العينين. بدأ الحزن يجتاحني. شعرت بالأرض تدور تحت قدميّ، وبالوقت يصير صفيقاً، مصنوعاً من مادة ثقيلة محسوسة. بدا وجه جوديت

متجهّماً، وزاده شعرها المقصوص قساوة. حدّثتني عن الأوضاع السياسيّة الراهنة، والأزمة في أوروبا، وقساوتها، والبطالة، والبؤس الذي يُعاود صعوده كأنّه آتٍ من أعمق أغوار تاريخ إسبانيا، على حدّ قولها. حدّثتني أيضاً عن النزاعات، والعنصريّة، والتشنّجات، والعصيان الذي يتحضّر. قالت لي إنّها منذ بضعة أشهر وهي على اتّصالٍ وثيق بحركة المستائين(٥٨)، وكانت أيضاً منخرطة في حركة Okupas(٥٩). لم يكن القمع يوماً بهذا العنف. في يومٍ ليس ببعيد فقد طالب آخر في العشرين من عمره عينه بسبب رصاصة مطاطيّة عندما حاول رجال الشرطة طرد المعتصمين. إسبانيا تسير نحو حتفها، وأوروبا أيضاً. البروباغندا الليبراليّة المتطرّفة تصوّر لنا أنّه لا يمكننا التصدّي لأوامر الأسواق التعسفيّة. عمّا قريب، لن يعود ممكناً في إسبانيا الاعتناء بالفقراء والمسنّين والأجانب. في الوقت الحالي يبدو التمرّد مؤجّلاً بسبب كرة القدم وريال مدريد وبرشا، لكن عندما لا يعود الاهتمام بكرة القدم كافياً للتعويض عن الإحباط والبؤس، فسينتفض الشعب، بحسب رأيها.

كنت أنظر إليها راغباً في إمساك يدها وليس في التحدّث عن الأزمة. أحياناً كان يعود إلى ذاكرتي وجه كروز، ويدخل بيني وبين جوديت. تعيَّن عليّ عندئذٍ أن أهزّ رأسي لأبعده عنّي.

بدأت الجامعة تسئمها. كانت في السنة الأخيرة ولديها القليل

---

(٥٨) حركة المستائين حركة احتجاجية نشأت في إسبانيا في ١٥ مايو/ أيار ٢٠١١ وتطالب بمراجعة النموذج الديمقراطي الغربي.

(٥٩) حركة Okupas، حركة تشجّع على وضع اليد على عقارات أو ممتلكات بهدف استعمالها خصوصاً في فترات الأزمات الاقتصاديّة.

من المواد، وتناقصت ساعات الحصص الدراسيّة، ومع ذلك تشعر دوماً أنّها لا تزال ضعيفة في اللغة العربيّة. لم تكن تعرف كثيراً ماذا عليها أن تفعل، وأعربت عن رغبتها في السفر لبعض الوقت، إلى مصر ربّما أو لبنان، لأنّ سوريا في حرب- شعرت بوخز لأنّها لم تذكر المغرب. لا بدّ أنني أظهرت امتعاضي الشديد لأنّها غيّرت الموضوع على الفور.

- وأنت، ما هي مشاريعك؟ ماذا ستفعل؟ هل ستحاول البقاء هنا؟

- لا أعرف، الأمر يتوقّف قليلاً عليك.

أخفضت بصرها، وعرفت عندئذٍ أن كلّ ما تخيّلته كان حقيقيّاً- كانت على علاقة برجلٍ آخر.

فجأة بدت مضطربة، متوتّرة.

وامتنعت عن الكلام.

كنت مرهقاً، ومكروباً، ومحطّماً جرّاء الأيّام التي قضيتها مع كروز، أضف إلى ذلك ساعات السهر الطويلة في الباص، وانفعالي لرؤية جوديت مجدّداً. كلّ هذا أثار أعصابي. كانت تلك المرّة الأولى التي أرفع فيها صوتي وأنا برفقتها، صرخت بوجهها قائلاً شيئاً من هذا القبيل: تستطيعين مصارحتي إذا لم تعودي راغبة في رؤيتي، سحقاً. ثم نهضت عن كرسيّ منفعلاً- التفت صوبنا رجل وامرأة كانا جالسَين أمام الطاولة المجاورة (بدوا بورجوازيين. كانا يضعان نظّارات شمسيّة على شعرهما ويرتديان قميصين بمربّعاتٍ، وعلى كتفيهما كنزة بياقة V). صرخت بهما هما أيضاً طالباً منهما أن يهتمّا بشؤونهما، فنظرا إليّ والدهشة ترتسم على وجهيهما.

نظرت جوديت إليّ كأنّها تريد أن تقول اجلس من جديد،

أوقف هزلك. أدركت أنّني أجعل من نفسي أضحوكة فجلست من جديد.

تمتمت بخجل:

- اسمع، لن يفيدك شيئاً أن تتصرّف على هذا النحو.

استجمعْتُ كلّ قوّتي، قوّة الشجاعة التي كانت تنقصها.

- هل لديكِ صديق آخر، هل هذا هو السبب؟

أنكرَت. هزّت رأسها وهيَ تردّد بالتأكيد لا، بالتأكيد لا.

- أنت حقيرة.

أخرجْتُ عبارات قصصي البوليسيّة من عقالها، عبارات نابِيَة، لأستفزّها وأرى ردود فعلها. لا يبدو أنّها تدرك معنى الكلمة لأنّها لم تغضب.

أضافت فقط أنّها لا ترغب في أن تكون مع أحدهم حاليّاً. هذا كلّ شيء. وبدا لي ما قالته حماقة لا حدّ لها، وكذباً، وسفالة.

نظرت إلى الساحة الصغيرة البيضاويّة. قبالتي، تحت الأشجار، كان هنالك باب عربات من الخشب جميل وضخم يعود لحقبة قديمة، ومطعم فخم. أمامي نافورة جميلة على شكل إناء منفرجة في أسفلها حنفياتها مذهّبة. مرّت من أمامنا سيّدة عجوز وهي تجرّ عربة صغيرة.

بقينا برهة صامِتَين. لم أعد أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول.

كانت نادِمَة على تركي في هذه الحال، شعرت بذلك.

- أين ستنام؟

- وما يعنيكِ أنتِ؟

حتّى لم أكلّف نفسي عناء إضافة «يا كلبة»، «يا عاهرة»، فالجملة رنّت وكأنّها صفعة.

- لا تغضب، هذا سخيف. أسعى فقط لمساعدتك.

لم أعد أعرف ما الذي كنت راغباً فيه حقّاً. شعرت بالأسى لأنّني أثرت غضبها. دارت السيّدة الساحة كلّها بعربتها الصغيرة التي تبزّ منها باغيت الخبز. جاء الرجل والمرأة اللذان يرتديان النظارات الشمسيّة ليطلبا منّا دفع الحساب.

كانت لديها رغبة واحدة، الرحيل، أعرف. لا بدّ أنّ الشعور بالذنب يعذّبها. رأيتني بوجهي الفظّ غير الحليق، وبمعطفي الرياضي الكاكي القذر، لا هدف لي، لا أملك شيئاً، لم يعد العالم هوَ العالم، كان ديكوراً تلفزيونياً، كان مزيّفاً. لفحتني ذكريات، طنجة وحيّنا، ومريم وبسام. تساءلت ما الذي أفعله هنا، في هذه الساحة الفائقة الجمال والظرف، وقبالتي جوديت التي لم تعد تريدني، والله وحده يعرف السبب.

بدأت أتحدّث باللغة المغربيّة.

توسّلت إليها، وأنا أجري بسرعة في حديثي ومن دون أن ألفظ بوضوح، أن ترفق بحالي. تحدّثت إليها عن الحبّ، وعن تعبي، و«ابن بطوطة»، وكروز، وظلمات ألجزيراس؛ وعن أسبوعنا في تونس، وذكريات شرفتنا في طنجة. قلت لها إنّها لا تستطيع أن ترمي بكلّ ذلك دفعة واحدة، لأنّ هذا الجفاء سيقتلني.

كانت تنظر إليّ، والألم بادٍ على وجهها. لم أكن أكيداً إطلاقاً أنها فَهِمَت كلّ ما قلته لها لِتَوّي.

أمسكت يدي. نطقت بجملةٍ حاسمَة قليلاً من قبيل: «لا أشعر أنّ لديّ القوّة للحبّ» وكان لهذه الجملة وقع دراميّ ومسرحيّ في العربيّة. شعرت أنّها تمثّل في مسلسل مصري.

كنت متعباً للغاية. أفلتت منّي كلمات: كما تشائين، لن أزعجكِ بعدَ اليوم. أرشديني إلى مسجد، وهذا كلّ شيء.

نظرت إليّ جوديت بدهشة كبيرة:

- مسجد؟

- نعم مسجد، وتاجر كتب وفندق سعره معقول، أضفت. أمّا بالنسبة للمخزن الكبير، فسأجده وحدي.

ناديتُ النادل، أخرجت ورقة خمسين أورو جديدة ولم أسمح لجوديت بأن تدفع برغم إصرارها.

المدن تُدَجّن، أو بالأحرى تعرف كيف تدجّننا، وتجعلنا نتماسك. إنّها تنزع عنّا، شيئاً فشيئاً، برقع الغربة، وتخلع عنّا قشرة الخشونة لتصهرنا فيها وتقولبنا على صورتها ومثالها- وسرعان ما نتخلى عن مشيتنا الأوليّة؛ لا نعود ننظر ساهمين أمامنا، بل ندخل إلى محطّة المترو دون تردّد، ونكتسب الإيقاع الملائم متقدّمين بخطى ثابتة سواء كنّا من المغرب، أو باكستان، أو إنكلترا، أو ألمانيا، أو فرنسا، أو الأندلس، أو كتالونيا، أو الفيليبين. ففي النهاية تروّضنا برشلونة، أو لندن، أو باريس، وكأنّنا كلاب. ونتفاجأ يوماً بأنّنا، على غرار الآخرين، ننتظر على ممرّ المشاة حتّى يصبح الضوء أخضر. نتعلّم لغة المدينة وكلماتها وعطورها وصراخها. تستفيق برشلونة على قرقعة مفاتيح الرنش على قوارير الغاز، على صراخ الباكستانيّ وهو يهتف: «بوتانوووووو»[٦٠] مرتدياً زيّه البرتقالي، ذاك اللون اللعين لأسوأ مهنة في العالم: عليه حمل القوارير البالغ وزنها ثلاثين كيلوغراماً إلى الطابق الرابع أو الخامس مرتقياً سلالم المباني الضيّقة التي لا مصاعد كهربائيّة فيها،

(٦٠) بوتانو Butano: أي غاز بالإسبانية.

لقاء عمولة بسيطة مع مبيع كلّ قارورة. في الحي الذي أسكنه كان الباكستانيّون، سواء كانوا فعلاً من الباكستان، أو من بنغلادش، أو من الهند، أو حتّى من سيريلانكا، باعة غاز متجوّلين، وباعة ورود، أو بيرة في وقتٍ متأخّر من الليل، أو سمّانين، أو عمّال هاتف في الـ«لوكوتوريوس»، تلك الردهات التي هي مكتب اتصالات مزوّد بحجرات هاتف ومقهى إنترنت. في البداية، كنت أذهب مراراً، على مسافة خطوتين من مسكني، إلى «لوكوتوريوس» في رامبلا الرافال، لأستخدم الإنترنت- كانت التعرفة بخسة جدّاً، وهناك تلتقي بجميع الجنسيّات من مختلف البلدان، بمغربيّين، وجزائريّين، وصحراويّين[٦١]، وإيكوادوريّين، وبيروفيّين، وغامبيّين، وسنغاليّين، وغينيّين، وصينيّين. يأتون للاتّصال بعائلاتهم أو يرسلون المال مباشرة إلى بلدانهم وفق نظام التحويل العالمي للسيولة النقديّة، نظام يقترب من الابتزاز لِفَرطِ ارتفاع ثمن العمولات فيه، لكنّه يتّصف بشاعريّة العالم المعاصر: تسلّم مئة أو مئتين أو ألف أورو إلى شبّاك تذاكر في برشلونة مع هويّة المرسل إليه وفي الحال يصل المبلغ إلى كيتو أو لاهور. لا يعرف المال الحدود نفسها لمالكيه، بل يعرف كيف يتجرّد من ماديّته في قنوات الإنترنت التي لم يتوصّل المهاجرون إلى سلوكها بعد بتحوّلهم إلى إلكترونات، ونبضات، وبريد إلكتروني وهكذا يكون بمستطاعهم ترك دكا[٦٢] والظهور فوراً على حاسوب في برشلونة.

كان شارعي أسوأ الأحياء في برشلونة، وأحد شوارعها الأكثر

---

(٦١) صحراويون: من الصحراء الغربية.

(٦٢) دكا: عاصمة بنغلادش.

توحّشاً، إذا شئنا، وكان متطابقاً مع اسمه الزاهر: «شارع اللصوص» *Career Robadors*» ويشكّل الآفة المستعصية التي تواجه بلديّة المقاطعة. إنّه شارع العواهر، والمدمنين على المخدّرات، والسكارى، والبائسين من كلّ نوع الذين يقضون نهاراتهم في هذه القلعة الضيّقة التي تنبعث منها رائحة البول والبيرة الزنخة والطاجن والسنبوسك. إنّه قصرنا، قلعتنا التي ندخل إليها من المعبر الصغير لشارع هوسبيتال ونخرج منها إلى ميدان المباني العصريّة عند زاوية شارع سانت رافاييل المشرّع على رامبلا الرافال. في المقابل، من الجهة الأخرى لشارع سانت بو يبدأ شارع سانت رامون، وهو قلعة أخرى- وبين الشارعَين محفوظات الأفلام السينمائيّة، التي يُفترض بها أن تجمّل الحيّ بفعل أنوار الثقافة وتجتذب بورجوازيّ الشمال، وثري إيكسامبل(٦٣)، الذي من دون المبادرات الجغرا- ثقافيّة للمدينة، لم يكن ليقصد أبداً المكان. ويجب بالطبع حماية عشّاق سينما النخبة، وزبائن فندق الأربع نجوم في رامبلا الرافال ليس فقط من تدفّق وفود الرعاع، بل أيضاً من إغواء الذهاب إلى العاهرات أو شراء المخدّرات. كانت دوريّات الشرطة تجول المنطقة على مدار الساعة، وكان الشرطيّون يركنون مراراً سيّاراتهم عند آخر قصر اللصوص خاصّتنا. وبدلاً من أن يبعث حضورهم على الاطمئنان كان يوحي بخلاف ذلك بأنّ المنطقة مراقبة وأنّ خطراً حقيقيّاً داهماً يحدق بها، خصوصاً عندما يكون أفراد الدورية كثراً، ومدجّجين بالسلاح ومرتدين السترات الواقية للرصاص.

نهاراً، كان نشاط العاهرات سارياً ولكن بخفر. أمّا في الصيف

---

(٦٣) إيكسامبل Eixample: إحدى المقاطعات العشر لبرشلونة.

ليلاً فكان السيّاح الأجانب المتعتعون منَ السكر يتوهون في أزقّتنا مستسلمين أحياناً لإغواء زنجيّة جميلة فيلجونها من الخلف في زاوية أحد المداخل: غالباً ما رأيت في وقتٍ متأخّر من الليل الوهج الأبيض لردفين متحرّكين يخترقان عتمة الزوايا.

كان المبنى الذي نقيم فيه في أوّل شارع اللصوص، في القسم الضيّق منه، بالقرب من شارع هوسبيتال. كان مبنى نموذجيّاً يعكس طابع الحيّ، قديماً، ومتداعِياً، أحد تلك المباني التي بالرغم من جهود مالكيها وجهود البلديّة، تبدو ممتنعة على كلّ تجديد. كانت درجات السلم مكسورة والمصاريع الخشبيّة مخلّعة والجدران مجرّدة من كسوتِها تتساقط صفائح كبيرة غامرة بركامها سفرات الأدراج. كانت الأسلاك الكهربائيّة تتدلّى من السقف، وأغماد اللمبات الخزفيّة لم تر قعر مصباحٍ كهربائي منذ عهود، وعلب الرسائل الصدئة المقبّبة مفكّكة أو مشرّعة، هذا إذا تبقّى لديها باب. وكانت بئر السلّم مليئة بالصراصير والجرذان، ولا يندر، لدى صعودك الدرج ليلاً، أن يباغتك قارض ضخم أسود يرضع إبرة محقنة مرميّة لِيَلعَق قطرة الدم الصغيرة المتبقّية عليها- ثم يولي هارباً عبر ثقب في جدار أحد الشقق، فتشعر بالارتجاف دوماً لدى التفكير أنّ الأمر نفسه يحصل في شقّتك.

كان المدمنون يأتون من مركز المساعدة الاجتماعية المخصّص لهم الواقع على مسافة بعيدة قليلاً في الشارع ليبحثوا عن مكانٍ يحقنون فيه أنفسهم بالإبر. في الشوارع المجاورة كان الكثيرون منهم يعيدون بيعَ الميتادون[٦٤] الذي كانت تزوّدهم به إدارة

---

(٦٤) الميتادون: علاج مهدّئ للآلام.

المؤسّسة. كانوا يدخلون إلى المباني التي لا تغلق أبوابها بإحكام ويصعدون الأدراج قدو ما تسمح لهم قوّتهم الجسديّة، وأحياناً إلى سطح المبنى، هناك حيث لا يطردهم أحد السكّان برفَسات من قدمه أو بمقبض المكنسة. كانوا يثيرون الشفقة، كانوا في معظمهم كتلة أشلاء هزيلة راعبة؛ تكسو الخرّاجات أذرعهم والبثور وجوههم. كان الكثيرون منهم يتحدّثون مع أنفسهم، ويلعنون ويشتمون ويسحقون علب البيرة بعد أن يفرغوها الواحدة تلو الأخرى بانتظار الأفضل. أحياناً كنت تراهم يترنّحون صامتين، خارجين من أحد المباني منشرحي الوجوه، فتدرك في الحال أنّهم حقنوا أنفسهم للتوّ بجرعتهم من السعادة على عجالة، جالسين وسط الصراصير. عندما يكون في حوزتهم مال، يذهبون لتناول حساء في المطعم المغربي الواقع على مسافة بعيدة قليلاً في الشارع، ويبقون فيه طويلاً يشاهدون التلفزيون ساهمين. كان أصحاب المطعم كرماء ومتسامحين مع هذه الأشباح التي تدفع ولا تسرق إلا الملاعق الصغيرة- كانوا يحظّرون عليهم فقط استعمال المراحيض. كان للمدمنين حديقتهم الصغيرة الخاصّة بهم، خلوة خضراء لا أحد يتنازعهم عليها، ولا حتّى البلدية. ففي الجهة الجنوبيّة تقريباً، إلى جانب المرفأ المحاط بأسوار الأرسينال القوطيّ، خلف الردم الساتر لخندقٍ قديم، على مسافة مترين في الأسفل، يوجد مربّع من العشب لا يُرى من الشارع- وقلّما كان يزوره مندوبو النظافة التابعون للبلديّة، أو حتّى رجال الشرطة، انطلاقاً من مبدأ أنّ كلّ ما لا يُرى لا يزعج وبالتالي غير موجود. لم يكونوا يضايقون المدمنين إلاّ فيما نَدَر. كان هنالك نساء ورجال بينهم، حتى لو شقّ على الناظر أحياناً تحديد جنسهم. كانوا

يعيشون فيما بينهم، ويموتون فيما بينهم. صحيح أنّهم لم يكونوا الأكثر أناقة ونظافة بين سكان الحيّ إلا أنّهم، بالإضافة إلى القوارض والحشرات، الأقل أذيّة.

حتى لو صدف أن رأيت بعضهم يتحوّل أحياناً عنيفاً مثل كلب أُجبِر على إظهار أنيابه وعضّ مهاجمه. أذكر أنّني ذات يومٍ فيما كنت على الشرفة أراقب باطمئنان حركة الشارع، شاهدتُ أحد هؤلاء المدمنين مصاباً بنوبة جنونٍ لا تُصدّق بعد خروجه من قمقم الميتادون. كان غاضباً وبدأ يصرخ ويزعق متفوّهاً بشتائم غير مفهومة، ضارباً قبضته بالجدار، وإذا به ينهال على باكستاني مارّ من هناك صدفة بوابل من الصفعات فلم يفهم المسكين ما الذي فعله ليستحقّها. جاء شابّان لنجدته. وبرغم نحول المدمن إلا أنه كان ذا بأسٍ لا محدود، شبه إلهيّ. سعى ثلاثة شبّان عبثاً لتطويقه والسيطرة عليه، وكلّ ما استطاعوا فعله انتزاع ملابسه التي كانت أقلّ مقاومة منه بكثير- تمزّق قميصه أولاً ثمّ حُلّ حزامه، ومع ذلك راح يتخبّط مثل ممسوس متصدّياً لمهاجميه برفسات عنيفة على قصبات أرجلهم، وخصياتهم، حتى بقي في سرواله الداخلي فقط. برشاقته وهزاله، بساقيه المليئتين بالجروح وذراعيه المزرودتين بالندوب والوشوم، كان يبدو وهو يُصارع في سرواله الداخلي أشبه بمحاربٍ تعيس مضحك. استوجب تدخّل خمسة شبّان وشرطييْن وسيّارة إسعاف للنيل منه: استطاع الشرطيّان تكبيله وممرّضان حقنه بإبرة، ثمّ أوثقاه إلى المحمل واصطحباه الله يعلم إلى أين- كان هناك جمال حقيقي وحزين ينبعث من هذه المعركة الأخيرة للرجل المسكين العاري الذي أفقدَه الهيرويين عقله وجسده. كان يُصارع نفسه، والله، وقوى الأمن، وكلّهم سواء بالنسبة له.

كانت العاهرات أيضاً يُثرن الشفقة لكنّها شفقة من نوعٍ آخر. بعضهنّ كنّ شريرات حقيقيّات، ذئبات لاذعات اللسان ومخيفات لا يتورّعْنَ عن سلب الزبائن أو خدش مدينٍ مماطل بأظافرهنّ. كنّ يشتُمْنَ ببذاءة مقزّزة الذكور الذين يصدّون مساعيهن للتقرّب منهم، ويصفنهم بالمنحرفين واللوطيّين والعاجِزين. كنّ في معظمهنّ يفدْن من أفريقيا، ولكن بينهنّ أيضاً بعض الرومانيّات وحتى إسبانيّة أو إسبانيّتان كانت إحداهما تجلس تحت الطنف عند مدخل الشارع، ماريا، وهي أقرب لأن تكون ناطورة قلعتنا. كانت ماريا في الأربعين، ممتلئة الجسم قليلاً، مبتسمة، على قدرٍ متواضع من الجمال ولكن لطيفة. تجلس هناك أمام بابها كلّ يوم بعد الظهر، وفي المساء. تفرج ساقيها وتعرض لنا سروالها السترينغ وتنادينا أحبّاءها الصغار لدى مرورنا قربها. كنت أقول دوماً لها بتهذيب صباح الخير ماريا متفحّصاً بسرعةٍ فرجها، فهذا لا يؤذي أحداً، ومن ضمن علاقات حسن الجوار. لم أجرؤ يوماً على الصعود معها إلى شقّتي- بداية بسبب فارق السنّ الذي كان يرهبني، ثم بسبب الذكرى المحزنة لزهرة عاهرة طنجة النحيلة. كان معظم زبائنها المنتظمين من المهاجرين والمفلِسين الغرباء الذين يُساومون على ثمن التسعيرة، ما يُفقد ماريا صوابها وتبدأ بالصراخ والبصاق أرضاً وهي تخور مثل عجلٍ، اذهب إذاً إلى الزنجيّات بهذا السعر! حتى الجنس طالته الأزمة أيضاً، صدقاً. كانت ماريا تعيش مع سائق شاحنة، أو بحّار، لم أعد أذكر- على أيّة حال كان غائباً طيلة الوقت تقريباً. أمّا الأفريقيّات فكان لديهنّ قوّادون من رجال العصابات بعنَ إليهم أجسادهنّ مذ كنّ في بلدانهنّ الأصليّة لقاء ثمن تذكرة العبور إلى أوروبا: أجهل لَكَم مِنَ الوقت سيتعهّرن للفقراء والسائحين قبل أن

يستعدن حريّتهنّ- هذا فيما لو استعدنَها يوماً.

كان هناك أيضاً في شارعنا مرآب لإصلاح الدرّاجات، ومستودع للدواجن، وبرّادات سريّة للباكستانيّين بائعي البيرة، ومستودعات ورود للباكستانييّن بائعي الورود، وعائلات مغربيّة فقيرة، ومثلها عائلات بنغلاديشيّة، وسيّدات إسبانيّات مسنّات (يعرفنَ الحيّ منذ ما قبل الحرب ويقلن إنّه فيما عدا جنسيّة العاهرات واللصوص، فإنّ القليل من الأشياء تغيّر) ومهاجرون شبّان سريّون مثلنا، مغربيّون في غالبيّتهم، وبعض القاصرين، وبعض الصبية الذين يتسكّعون في الشارع بانتظار ارتكاب جنحة ما تزيل عنهم الضجر أو تكسبهم بعض المال كسلب السيّاح، أو بيعهم حشيشاً مزيّفاً، أو سرقة درّاجة.

وعند زاوية الشارع بالضبط، هناك مسجد، مسجد طارق بن زياد، فاتح الأندلس المجيد، الذي بفضله سكنْتُ الحيّ: كان المسجد الوحيد الذي تعرفه جوديت، أحد أقدم مساجد برشلونة، ويقع في الطابق الأرضي من مبنى مرمّم. كان نظيفاً وواسعاً.

وهناك أيضاً تاجرا كتب على مسافة غير بعيدة كثيراً، ومخزن كبير تحت الأرض على بعد خطوتين، وسوق الكتب المستعملة كلّ يوم أحد في الجوار. كنت سعيداً. كنت حزيناً ممزّق القلب بسبب جوديت، ولكنّي سعيد في الوقت نفسه.

استعلمت عن موت كروز. كلّ ما عثرت عليه هو هذا الخبر الصغير في صحيفة *Diario Sur*:

مأساة في ألجزيراس

موظّف سمّم ربّ عمله

عُثِرَ على مارسيلو كروز صاحب مؤسّسة لدفن الموتى ميتاً في

مكان عمله متأثراً بسمّ الإستركنين. إمام مسجد ألجزيراس جاره ومعاونه هوَ الذي أخطر الشرطة. لا تزال الظروف الدقيقة التي أحاطت بالمأساة مجهولة، لكنّ الشرطة الإسبانيّة ترجّح أن يكون السيّد كروز مات مسموماً على يد موظّف لديه فرّ بعد أن سلبَه ماله.

كنت إذاً مطلوباً من الشرطة بتهمَتَي القتل والسرقة.

لم يفاجئني الخبر لكنّ رؤيته في الجريدة جعلتني أقلق. لحسن الحظّ، لم يُعلم السيّد كروز السلطات بوجودي، ولم يحصل لي على إذن بالعمل، ولا طبع نسخة عن أوراقي الثبوتيّة وليس هناك أيّ دليل، ما عدا بصماتي، بالطبع، وحمضي النووي. لم يكن الإمام يعرف اسم عائلتي: لكنّ بإمكانه مع ذلك إعطاء صفاتي، والإشارة مثلاً إلى أنّني من طنجة واسمي لخضر، ما يسهّل للشرطة مهمّة التعرّف عليّ في حال اعتقالي، خصوصاً مع اسم غير شائع كاسمي.

فكّرت من جديد في كلبَيْ كروز، تساءلت مَن سيهتمّ بهما. ربّما لأنّهما كانا بريق الضوء الوحيد في ظلمة الأسابيع الأخيرة، أفتقد إلى حنانهما التلقائي، وفروِهما، ولهاثهما.

ولئلا يتمّ اعتقالي، كان يجب إذاً أن أبقى مختفياً بحذر في شارع النشّالين.

بدا لي كلّ شيء بعيداً.

جوديت التي كانت أقرب من أيّ وقتٍ مضى، بدَت لي بعيدة.

طنجة كانت بعيدة.

مريم كانت بعيدة، وبسّام كان بعيداً. وكان جنود جان فرنسوا بوريلييه بعيدين أيضاً، ومعهم كازانوفا. وجدت لنفسي سجناً

جديداً، «شارع اللصوص»، حيث بإمكاني الاختباء. أبداً لن أستطيع الخروج من السجن.

كانت الحياة أيضاً بعيدة.

كانت الأيّام الأولى لوصولي إلى برشلونة صعبة - سكنت في فندق للطلاب. كنت شارد الذهن تماماً فأعطيت جواز سفري للاستعلامات، وكان بإمكان رجال الشرطة أن يعثروا عليّ دون مشقّة ويأتوا لتوقيفي مباشرة لدى نهوضي من السرير. لكنّ لا شيء أبداً يحدث كما في الكتب. أيّاً يكن، كنت مختبئاً في حمى الرافال، وسط حثالة المجتمع، بين العاهرات والنشّالين، وأشعر أنّ ليس هناك ما أخشاه.

كان مسجد طارق بن زياد في تصرّف الباكستانيّين. التقيت هناك ببعض العرب لكنّهم كانوا قلّة بالمقارنة مع غيرهم. كان إمام المسجد من بنجاب. في بداية إقامتي أمضيت في المسجد بعض الوقت لألتقي بأناسٍ، وأستريح في كنف الصلاة والقراءة. عندما لا نكون في ديارنا ولا نعرف أحداً، يجب البدء من مكانٍ ما، من الحانات أو المساجد- وحسناً فعَلت فبفضل المسجد وجدت غرفتي في هذه الشقة المصدّعة لكن الظريفة في قلب قلعة الرافال: مساحتها ثلاثون متراً مربّعاً ذاهبة في الطول مع شرفةٍ صغيرة. كنت أتقاسم الشقّة مع تونسي يُدعى منير، وأدفع ثلاثمئة أورو في الشهر ومن ضمنها كلّ شيء- في الواقع كنّا نجهل من يدفع الكهرباء، فيما لو كانت هناك فاتورة كهرباء. أمّا الماء فكانت تتدفّق من الخزّانات الكبيرة على السطح ولم يكن هناك عدّادات. لم أستطع قطّ معرفة من كان صاحب الملك- كنّا ندفع بدل الإيجار نقداً في إحدى حانات شارع سانت رامون، وهذا كلّ شيء. عندما عجز منير عن

دفع الإيجار في نهاية شهر أبريل، جاء شابّان وأوسعاه ضرباً، ما حثّه على إيجاد المال بسرعة متدبّراً أمره بسرقة ثلاث درّاجات جميلة باعها دون سعر الكلفة، ولا شيء آخر.

كانت علاقتي بجوديت غريبة. كنّا نلتقي كلّ يوم تقريباً، وتساعدني في كلّ شيء. حتّى أنّها فتحت لي حساباً في صندوق توفير، باسمها، لكي أودع فيه مالي- وأعطتني بطاقة السحب وكلمة المرور، كان هذا أكثر أماناً من أن يكون في حوزتي مالٌ نقديّ، نظراً للمكان الذي كنت أسكن فيه. حتّى أنها هي التي أودَعَت المال بنفسها ولم تسألني عن مصدره ولم أشرح لها.

بدت لي جوديت أجمل النساء وأنبلهنّ، حتّى لو كانت، لسبب أجهله تماماً، ترفض معاشرتي. تدبّرت أمرها في الحال لتجد لي عملاً- تدريس اللغة العربيّة مرّتين في الأسبوع. كنت أعطي دروساً خصوصيّة لجوديت وإيلينا وفرانشيسك، أحد أصدقائهما، مقابل عشرة أوروات في الساعة. كنت فخوراً جداً بعملي؛ أشرح لهما جزئيّات القواعد العربيّة وأعقّب على الأشعار الكلاسيكيّة بمشاركتهم- غالباً ما كنت أقرأ في الصباح نفسه الدرس الذي كنت سأشرحه بعد الظهر. وبالتالي قرأت كثيراً في معرض تحضير صفّي، وكان الأمر ممتعاً. نحفظ عن ظهر قلب قصائد لأبي نوّاس، أعظم الشعراء العرب في رأيي وأكثرهم تمرّداً وظرفاً. وأشرح لهم سطراً سطراً الروايات الكبيرة لنجيب محفوظ أو الطيّب صالح اللذين لم أقرأهما من قبل، لكنّهما كانا يُدرّسان ضمن برنامج الجامعة.

كانت جوديت تسكن عند والديها في أعلى المدينة، في غراسيا، حيّ بورجوازيّ حسن التنظيم، كان في الأساس قرية قديمة ألحقت ببرشلونة في القرن التاسع عشر، شوارعه ضيّقة وساحاته

جميلة. وشاءت التقاليد المحليّة أن يصبح أولاد هؤلاء البورجوازيّين ناشطين سلميّين: الحركات التعاضديّة في الحي عديدة، وفي وسطه بالذات كان هناك حضور لحركة «أوكوباس»- يجب التسامح مع الشبيبة. في غراسيا، كان العرب أيضاً أكثر أناقة وبورجوازيّة. وكانت المطاعم، في معظمها سوريّة، ولبنانيّة، وفلسطينيّة. وهناك مقهى كلداني قرب منزل جوديت بالضبط، وآخر فينيقي- وكلّ ذلك كان مرهباً لي بعض الشيء، وكنت أفضّل، عالقاً بين الكتالونيّ والقديم، اللجوء إلى ظلمات أزقّتي. أمّا جوديت فتشعر بالطبع بأنّها مرتاحة جدّاً في حيّها فلدَيها أصدقاؤها، ومعهدها، والشوارع التي كبُرَت فيها. أحياناً، بعد حصّة اللغة العربيّة، تصرّ على دعوتي لتناول الغداء في أحد تلك المطاعم الراقية والقديمة؛ لم يكن صاحب المقهى الفينيقي حيث ذهبنا طالعاً لتوّه من ناووسٍ في صيدون، بل كان لبنانيّاً من الجبل. تكلّم لِبُرهَة في السياسة مع جوديت، عن سوريا بشكلٍ رئيسي، وعن الحرب الأهليّة الدائرة فيها، والدور المشبوه الذي ستلعبه تركيّا والسعوديّة وقطر- شعرت بالإحباط، وأنّه مهما يفعل العرب فسيظلّون محكومين بالعنف والاضطهاد. يجب الاعتراف بأنّ ذاك الفينيقيّ كان ذكيّاً، وفي غاية اللطف، ما أثار غيرتي- لم أفتح فمي، لا بدّ أنّه اعتبرني انطوائيّاً أو معتوهاً.

كانت جوديت في كلّ يومٍ تزداد غموضاً، وحزناً، لا بل تبدو شديدة الحزن أحياناً، وشاردة الذهن، ولم أكن أفهم السبب. وفي أحيانٍ أخرى، على عكس ذلك، تفيض حيويّة، وتضحك وتحدّثني عن مشاريعها، وتقترح عليّ أن نخرج للقيام بجولة أو لاحتساء

كأس. في الأيّام الأولى كنت ألحّ عليها طيلة الوقت لكي تصارحني بمعاشرتها رجلاً آخر فتواصل نفيَها فتوقّفت عن ملاحقتها. ثم توضّح لي تماماً كيف تشغل أوقاتها فرضختُ للأمر الواقع: ليس هناك شخص آخر في حياتها، ما عدا بعض الرفاق في الجامعة، وأنا.

ما زاد الأمر تعقيداً وغموضاً.

قلت في نفسي إنّه يجب ألا أستعجلها وأن أدعَ الوقت يمرّ لأنّها ستعود في النهاية إليّ. أحياناً، حين كنّا نخرج، كنت أمسك بيدها فتبقيها في يدي- أشعر مع ذلك أنّ هذا سيّان عندها. وحتّى أنّنا في مناسبة واحدة مارسنا الحب: دعوتها لِترى غرفتي الجديدة المجيدة بعد الظهر. استسلمت لقبلاتي وجرّدتها من ثيابها دون أن تُمانع- أعني جيّداً ما أقول، دون أن تمانع، بطريقة آليّة، وكلّ لمساتي، وكلّ حبّي، كلّ ذلك لم يؤثّر في تصرّفها، إلى حدّ أنّه بعد أن انتهينا من الممارسة، وفيما راحت تلبس ثيابها من جديد بصمت، شعرت بالخجل، بالخجل وبالذنب وكأنّني اغتصبتها. طمأنتني قائلة إنّني سخيف في تفكيري هذا، وإنّها فقط لا تشعر بالرغبة في الوقت الحالي، هذا كلّ شيء.

- قلت لك، لا قدرة لي على معاشرة أيّ كان.

بالنسبة لي، كان الأمر مستعصِياً على الفهم بشكلٍ قاطع. لا بدّ أنّها مصابة بمرضٍ ما. وفي الحال، بدأت أدلّلها، أكتب لها قصائد وأهديها كتباً وأذكّرها بلحظاتنا الرائعة في طنجة وتونس. كانت هذه الذكريات تغرقها في الكآبة. بدت هشّة وكأنّ نسمة قادرة على قصمها.

لم أكن أجعلها تغيب عن ناظري.

برشلونة مدينة جميلة ومتوحّشة. أحببت أناقة المدينة، وإيقاعها، وأصواتها، وتنوّع الأحياء فيها، من غراسيا إلى بوبل سيك، من المرفأ حتى الجبل. أحببت الانسجام الغريب الكامن في الفوارق والخلوات، وكذلك المفاجآت التي تقدّمها المدينة- على بُعد خطوتين من بيتي، مثلاً، محتجباً خلف أسوار، وخلف بابٍ حجريّ مقوّس، ينزوي ملجأ «الصليب المقدّس» وحديقته الخلّابة المزروعة بأشجار البرتقال، ونافورته الجميلة والسلالم الحجريّة الرائعة لمكتبة كتالونيا- ما إن تشرق الشمس، أذهب إليها وأجلس على أحد المقاعد وسط عطر أزهار الليمون مستغرقاً في القراءة. كانت الطالبات الجميلات لمدرسة الفنون التطبيقيّة يخرجنَ لتدخين سيجارة، ويجلسن على الأدراج، فيحلو لي النظر إليهنّ لِبرهة؛ على مسافة خطواتٍ من الحديقة، تحت الباحات المعمّدة للدير القديم، تحتسي زمرة من المتسكّعين البيرة وزجاجتين من النبيذ الأحمر. كان يبدو عليهم، هم أيضاً أنّهم وجدوا المكان الملائم لذوقهم، تماماً كمدمني شارع اللصوص، وبائعي الحشيشة ونشّالي السيّاح. كان الجميع معجباً بهذا المكان- لأسبابٍ مختلفة بالطبع، بهذا المأوى القروسطي الذي يتابع في الواقع تأدية مهامه مؤوياً أشياء فقيرة: كتباً، وفنّانين، وسكارى، ونشّالين.

مساءً، حين تتقاعس جوديت غير راغبة في الخروج، كنت أمشي لبرهة على رامبلا الرافال، وهي ساحة مستطيلة مزروعة بأشجار النخيل ومزدانة بالمقاعد وفي آخرها هرّ هائل من البرونز، تمثال يفاجئك بوجوده- كان الباكستانيّون يتنزّهون في السلوار كاميز[٦٥]، وكانت العائلات تنزّه أولادَها، والنساء والفتيات الهنديّات الصغيرات يلبَسنَ أجمل أثوابهنّ الزاهيَة الألوان. وكان الغجر يُخرجون الكراسي ويتجادلون على الرصيف أمام مطعم يتناول فيه بعض البريطانيّين العشاء باكراً، ويبدو من لون أكتافهم أنّهم أمضوا النهار على الشاطئ. خرج كلّ هذا العالم الصغير يتنشّق الهواء الطّلق مستفيداً من هدنة المساء. يخال المرء، بنزوله حيّ رامبلا الرافال وصعوده، أنّه لا وجود للتناقضات أو الحقد، ولا للعنصريّة أو الفقر- لا يدوم الوهم طويلاً إذ يبدأ عربيّ عموماً بمناكدة باكستاني، أو على العكس. وتسمع في النهاية صراخاً يتحوّل أحياناً إلى ما هوَ أسوأ.

عند غياب الشمس، أعود. كان لديّ طقس جديد: أشتري زجاجة من النبيذ الأحمر الكتالوني من السوبرماركت، وبعض حبّات الزيتون وعلبة تونا. أجلس على شرفتي الصغيرة في الطابق الرابع، أفتح زجاجة النبيذ وعلبة التونا وعلبة الزيتون، آخذ كتاباً منتظراً أن يهبط الليل بهدوء؛ كنت ملك العالم، أفضل من أبي نوّاس في بلاط بغداد، ومن ابن زيدون في حدائق الأندلس؛ آخذ قسطاً صغيراً من الجنة، أستغفر الله العظيم، ولم يكن ينقصني إلا الحور. كنت أقرأ قصّة بوليسيّة إسبانيّة (الخُبز القَفار خير من لا

---

(٦٥) سلوار كاميز: أحد أكثر الأزياء شيوعاً بين رجال ونساء باكستان ويتكوّن من قميص وسروال فضفاضين.

شيء) أو الشعر العربي الكلاسيكي، بمعونة القاموس الذي أعارتني إيّاه جوديت- أشعر بلذّة عارِمة حين أقدر على حلّ رموز بيت شعر غامض كلماته منسيّة.

اكتشفت النبيذ، إنّه خطيئة، ولا شكّ، ولكنّه ألذّ الخطايا وأبخسها سعراً: بالطبع هذا يتوقّف على النبيذ الذي أختاره، كان ثمن الزجاجة يتراوح بين الأورو والنصف والثلاثة أوروات. في مملكة المغرب الجبّارة، تُفرض ضريبة باهظة على الكحول. كنت أكتفي هناك بشرب القهوة بالحليب. أمّا هنا فكانت إسبانيا الجميلة تضع ثمار كرومِها في متناول جميع المداخيل.

أوشكت الشمس أن تغيب تماماً قبالَتي خلف كنيسة سانت بو. تبقّى لي أيضاً نصف ساعة من النهار، ثم تُظلِم السماء كليّاً فتتعذّر القراءة على الشرفة. عندئذٍ أتسلى بمراقبة الشارع لِبرهَة. في نهاية الأسبوع يصطفّ عشرات الأشخاص أمام مبنى الطائفة الإنجيليّة أو السبتيّة[٦٦]، أو أيّ أقليّة مهرطقة أخرى، لم أعد أعرف - كان هؤلاء جيراننا ويَحْظَونَ بإعجابٍ كبير من قبَل الفقراء لأنّهم يوزّعون حصصاً غذائيّة بعد رتبة القدّاس. لا يمكننا بالطبع أن نطلق أحكاماً مسبقة على صدق الإيمان الذي يحرّك هذه الرعيّة المرتدية الأسمال. ربّما كانوا بروتستانتيّين حقيقيّين. على أيّة حال، كانت قاعة هذه الكنيسة (كانت ملحمة قديماً) تغصّ بالناس- تسمعهم ينشدون الأناشيد، ثمّ يتحدّثون عن الحبّ، والربّ وخرافه، وعن المسيح الذي سيعود يوماً ليحلّ العدل يوم القيامة.

---

(٦٦) الطائفة السبتية: شيعة بروتستانتيّة ظهرت في الولايات المتّحدة الاميركيّة تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح.

كان غريباً التفكير أنّ جميع أدياننا كانت في العمق قصصاً وأمثالاً يلتزم بها البعض، فيما البعض الآخر يرفضها. إنّها كتاب هائل من القصص حيثُ كلّ واحدٍ يستطيع أن يأخذ ما يُناسبه- هناك مصنّف اسمه «الإسلام» لا يتقاطع تماماً مع المرويّات الموجودة في «المسيحيّة» المتباينة هي نفسها عن مجموع نصوص «اليهوديّة»؛ وهؤلاء البروتستانتيّون المنشدون للفقراء لا بدّ أنّ لهم روايتهم هم أيضاً- استطعت الحصول على إحدى منشوراتهم المعدّة للتبشير الإنجيلي، وكان كتابَ قصصٍ برسوم بسيطة ملوّنة من عشر صفحات. جميع الشخصيّات فيه كانوا سوداً، إلا المسيح، الذي كان مذهّباً ومحاطاً بِهالة حول رأسه، مرسل اللحية والشعر. ترى فيه أيضاً رجلاً يبني بيتاً من الخشب بواسطة مطرقة، ويتزوّج ويؤسّس عائلة، ثم يكبر أولاده حول كوخه وكلّهم يعملون في الأرض. ثم يصبح الرجل مسنّاً فيَشيب شعره ويموت أخيراً وعندئذٍ يأتي يسوع مشعّاً بالأنوار ليصطحبه إلى السموات بين الملائكة.

كانت العاهرات يخرُجنَ مع إنارة مصابيح البلديّة. يتوزّعنَ عند آخر الشارع، جهة الساحة. لا بدّ أنّ مسجد طارق بن زياد هو المسجد الوحيد في العالم الذي تقف أمامه أمازونيّات سوداوات كالليل، مسلّحات بالتنانير القصيرة المقصّبة والصدارات البرّاقة لاصطياد المؤمنين- الذين لم يكونوا على أيّة حال يُعيروهنّ أيّ اهتمام. كنّ جزءاً من الديكور، على غرار رجال الشرطة الذين يبدأون هم أيضاً جولتهم حول مجموعة البيوت الممتدّة على عدّة أحياء عند هبوط الليل، فيخرجون بانتظام ثلاثة أو أربعة فخورين باستعراض قوّة النظام كلّه وقساوة القانون. والحقيقة هي أنّهم كانوا يسرّعون على هذا النحو معظم النشاطات اللاشرعيّة: ما إن يلتفوا

حول زاوية الشارع، حتى نعرف، سواء استعنا بعقرب الساعة أو بنجم الشمس، أنّهم سيستغرقون خمس دقائق للرجوع. كانت هناك كاميرات مراقبة بالطبع، لكن لم يسبق لي أن سمعت أحدهم يقول في الشارع إنّه يجب الاحتراس منها: كما الله يرانا جميعاً، كان السيّد رئيس البلدية يستطيع فعلاً أن يراقبنا من مكتبه في ساحة سانت جوم- لا أحد كان يجد فيها مطعناً أو عيباً، لا السكارى الذين يحتسون البيرة وهم يزعقون متفوّهين بالحماقات تحت الكاميرا تقريباً، ولا بائع الحشيشة الواقف طيلة النهار في المكان نفسه، ولا السود أصحاب ماخور كامل من العاهرات الجادّات في طلب الرزق في أسفل الشارع يعملن لحسابهم، ولا المدمنون الذين يزعقون أمام مركز المساعدة الاجتماعيّة المغلق، ولا الباكستانيّون الذين يجيئون في وقتٍ متأخّر ومعهم زجاجات البيرة في البرّادات السريّة. لم يكن يبدو على أحد إطلاقاً أنّه منزعج من هذه الكاميرات البيضاء المرئيّة المثبتة على جهتي الشارع الصغير التي تشكّل ثمن ضريبة المجد، ويجب تحمّلها.

ومن ثمّ، حوالى الساعة الحادية عشرة أو نحو منتصف الليل كنت أذهب في جولة مع منير، مساكني في الشقّة. كان منير أحدَ الفارّين من سجن لامبيدوزا، أحد هؤلاء التونسيّين الذين حطّوا رحالهم في فرنسا لحظة اندلاع الثورة بفضل كرم برلسكوني، وبمضرّة الحكومة الفرنسيّة المستعدةّ لتقاسم كلّ شيء ما عدا الديون والفقراء. أمضى منير بضعة أشهر في باريس، ليس في باريس استعجلت القول، بل في الضواحي، مختبئاً في أرضٍ بائرَة، مجمّداً منَ البرد وميتاً من الجوع. هؤلاء الفرنسيّون الأوغاد لم يقدّموا لي سندويشاً واحداً، هل تسمع؟ ولا حتّى سندويشاً واحداً. هل

تعرف، جميلة هي الديمقراطيّة حقّاً! مستحيل إيجاد عمل. كنّا نتسكّع طيلة النهار في جادة ستالينغراد، وشارع بلفيل، وساحة الجمهوريّة، وكنّا مُستعدين للقبول بأيّ عملٍ كان للبقاء على قيد الحياة. لا شيء، لا شيء يمكن فعله، لا أحد يساعدك، هناك، وخصوصاً إذا كنت عربيّاً، يعتبرون أنّ عدد العرب كبير أصلاً، وأنّ بونيول[٦٧] فقير بالزائد مسيء للجميع. الثورة التونسيّة، يجدونها رائعة من بعيد. ويقولون ما دمتم صنعتم الثورة ابقوا هناك في جنّة الياسمين المليئة بالإسلاميّين ولا تأتوا إلى هنا لإزعاجنا بأفواهكم التي لا تنفع لشيء. هل تريد أن أقول لك شيئاً يا أخي لخضر، كلّ هذه الثورات العربيّة هي مؤامرات أميركيّة لكي يَخْصُونا.

كان يبالغ بالنسبة للفرنسيّين. أخبرني أنّه بقي على قيد الحياة بفضل «مطاعم المحبة» و «الحساء الشعبي»، حيث تقف بالصف طويلاً طويلاً، لكنّك تستطيع في النهاية أن تأكل صحناً من الفاصوليا البيضاء أو ترحل من جديد مع علبة معجّنات دون أن يطرح عليك أحد سؤالاً. كانت اللوحة التي يرسمها لباريس لا ترغّب أحداً في الذهاب إليها: فصائل من الفقراء توزّع لهم خيَماً فرديّة ليناموا على الرصيف، وسط الشوارع. ضواحٍ لا حدّ لها، متروكة من الله والبشر، حيث الجميع عاطل من العمل، وحيث لا شيء يمكن فعله إلا حرق السيّارات للتسلية في نهاية الأسبوع- وخصوصاً الحقد، على حدّ قوله، الحقد والعنف اللذين تشعر بهما في هذه المدينة، أنت لا تملك أدنى فكرة. كلّ يوم، في الأخبار،

---

(٦٧) بونيول: اسم محقّر يدعو به أوربيو إفريقيا الشمالية الاستعماريون الإفريقيين الشماليين.

تستمع للحقد المتنامي، أؤكّد لك، إنّهم لا يدركونَ أنّهم يذهبون بخطى حثيثة نحو الانفجار.

كان يُبالغ بعض الشيء، هذا أكيد، ولكنّ قوله هذا لا يبعث على الطمأنينة. كان اليمين الفرنسي يريد أن يغلق الحدود ويعصب العينين بعلَمٍ ثلاثي الألوان ويكون كتوماً تجاه كلّ شيء إلا المال.

غادر منير باريس في النهاية قرفاً وأراد أن يجرّب حظّه ناحية الجنوب- ومرسيليا، هل رأيت مرسيليا؟ كان لديّ ذكرياتي مع القصص البوليسيّة التي كتبها إيزو، وكنت أشعر بأنّني أعرف مرسيليا. لكنّ منير لم يتوقّف في مرسيليا. تعارك مع رجلَين في محطّة مونبيلييه هاجماه هكذا فقط لِلَذّة المهاجمة، على حدّ قوله. وأضاف أنّه منذ ذلك الحين، لم يعد يخرج إلا والسكّين في حوزته. وكان هذا صحيحاً، كان يحمل دوماً سكيناً قصيرة ولكنّها مسنونة جيّداً.

إنّ نصيب برشلونة الحقيقيّ، نصيبها الوحيد الذي يجعل منها مدينة وليس مجموعة من الغيتوات المتحاربة والدموية، كان متمثّلاً في السيّاح. إنّهم نعمة ربّانيّة. كان الجميع يعتاش منهم، بطريقة أو بأخرى: أصحاب المطاعم يعتاشون منهم، وأصحاب الفنادق، وأصحاب المقاهي، وباعة السراويل الرياضيّة لكرة القدم، وبائعو اللحوم، وحتى أصحاب المكاتب الذين كانت لهم متاجرهم في المتاحف يريدون أن ينزحوا نصيبهم من هذا الذهب الورديّ البرونزي الملفوح بالشمس الذي يروي وسط المدينة، وبائعو البيرة الجوّالون وبائعو المِغرَدات[٦٨] والصفّارات والبلابل السحريّة

(٦٨) مِغرَدات: صفّارات تقلّد صوت الطير لاجتذابه.

ودبابيس «البينز» الوامضة - وكان منير يعتاش منهم أيضاً. في نهاية المطاف، كان الجميع، يقول منير، يسرق هؤلاء السيّاح، ويجرّدهم من مالهم إذ يدفعون ثمن كوب البيرَة ثمانية أورو في أحياء الرامبلا. لا أرى لماذا تكون سرقة كاميراتهم أو محفظة نقودهم أو حقيبتهم أسوأ بالضرورة ممّا يفعله هؤلاء. أقول له لأنّ ذلك حرام، السرقة حرام. ويجيب، ليس صحيحاً، فإذا كانت منظّمة «القاعدة» تسمح بذبح الكفّار، لا أرى والحالة هذه لماذا يُحرّم علينا نشلهم. ثم ينطلق بضحكةٍ مُدَوّية.

يصعب معاكسة منير في الحقيقة. كنت أشعر أحياناً أنّ الله نفسه (أستغفر الله العظيم) أرسل هذه المخلوقات إلى أزقّتنا، بسيمائها البريئة، ونظراتها الشاردة لأجل أن يضع منير يده بكلّ هدوء في حقائب الظهر التي يحملونها.

ذاك هو المنّ إذاً، تلك هي الهِبَة السماويّة. الأكثر فقراً يعتاشون بفضل السياحة، والمدينة تعتاش بفضل السيّاح، وتريد دوماً المزيد منهم، وتجتذب دوماً المزيد، وتكثر من عدد الفنادق والبنسيونات، والطائرات التي تسوق هذه النعاج لجزّها. كان كلّ ذلك يُذكّرني بالمغرب، لا سيّما على أثر الحملة التي كان يروّجها آنذاك مترو برشلونة للسياحة في مراكش كتلك الملصقات الاستشراقيّة المرفقة بشعارات جميلة من قبيل «مراكش المدينة التي تسافر فيك»، أو «هناك حيث يحملك قلبك»، وقلت في نفسي إنّ السياحة لعنة، كالنفط، خدعة تنتج ثروة مزيّفة، وفساداً وعنفاً. في مترو برشلونة فكّرت من جديد في الانفجار بمراكش، في الشيخ نور الدين الموجود في مكانٍ ما في السعوديّة، وبسّام الموجود في مكانٍ ما في بلاد الظلمات، وفي اعتداء طنجة حيث لَقِيَ هذا

الطالب حتفه بطعنة سيف- بالطبع كانت برشلونة مختلفة، مدينة الديمقراطيّة، لكنّك تشعر أنّ هذا كلّه على وشك الانهيار، وأنّ قليلاً من الوقت يفصلنا عن سقوط البلد بأكمله هو أيضاً في دوّامة العنف والحقد، وأنّ فرنسا ستلحق بإسبانيا، وألمانيا ستلحق بفرنسا، وأنّ أوروبا كلّها ستشتعل كالعالم العربي، والدليل على ذلك هذا الملصق الفاجر في المترو. لم يعد هناك ما يُمكن فعله لمراكش إلا استثمار المال في حملات دعائيّة لكي يرجع المنّ الضائع، حتّى لو كنّا نعرف معرفة تامّة أنّ مال السياحة هذا هوَ الذي يُحفّز التخلّف والفساد والكولونياليّة الجديدة، كما يحصل في برشلونة. كنت تشعر شيئاً فشيئاً تنامي الضغينة على مال الأجنبي، سواء من الداخل أو الخارج. كان المال يؤلّب الفقراء بعضهم على بعض، وكانت المهانة تتحوّل بهدوء إلى حقد. كان الجميع يكره الصينيّين الذين سبقوهم إلى شراء المطاعم والأسواق واحداً تلو الآخر بمال العائلات الصينيّة جمعاء الآتية من مناطق لا يمكن تخيّل الفقر الذي تعيش فيه. والجميع يكره العمّال البريطانيّين الذين يأتون لشرب البيرة الرخيصة، والمضاجعة في المداخل، ومن ثم استقلال الطائرة وهم لا يزالون سكارى، الطائرة التي كلّفتهم ثمن بنتة[٦٩] بيرة في ضواحيهم القاتمة. والجميع يشتهي، بصمت، هؤلاء الشابّات الشماليّات ببشراتهنّ الطبشوريّة، واللواتي يسمح لهنّ الطقس الدافئ نسبةً إلى بلادهنّ بارتداء تنانيرهنّ القصيرة للمرّة الأولى وانتعال مشايات البحر في شباط- كان ربع سكّان كتالونيا عاطلاً من العمل. وكانت الصحف تفيض بالأخبار المرعبة عن

(٦٩) بنتة: كيل للسوائل تختلف سعته تاريخيّاً وجغرافيّاً.

الأزمة، والعائلات المطرودة من الشقق لأنّها لم تعد تستطيع دفع بدل الإيجار فتبيعها المصارف مستمرّة في المطالبة بِدَينها، وحالات الانتحار، والإفلاس، والإحباط: كنت تشعر بتنامي الضغط، والعنف، حتّى في شارع اللصوص لدى أفقر الفقراء، وحتى في غراسيا وسط أبناء البورجوازيّين، تشعر أنّ المدينة مهيّأة لكلّ شيء للخضوع كما للعصيان.

حدّثني منير عن سيدي بو زيد، عن بادرة اليأس التي أشعلت الثورة: وَجَب أن ينتحر أحدهم لحمل الجماهير على التحرّك وكأنّ هذا الفعل وحده قادر في النهاية على تسيير الأمور- وَجَب على أحدهم أن يحرق نفسه لكي يجد الآخرون الشجاعة للتحرّك. وَجَب موت الآخر اليقيني، لنفهم أنّه ليس لدينا ما نخسره إذا ضحّينا بأنفسنا. تعذّبني هذه المسألة، تعيدني إلى المغرب، إلى حملتي في ذاك الليل برفقة بسّام والشيخ نور الدين، وجبانتي، تلك الحملة المناقضة تماماً لفعل الانتحار في سيدي بو زيد، لكأنّ هناك الانتحار في جهة، وديكتاتوريّة الهراوات في الجهة الأخرى، كما لو أنّ العالم بأكمله كان على وشك السقوط في محور دكتاتوريّة الهراوات فيما كلّ ما تبقّى للمحور الآخر خيار التضحية بالنفس- أو البقاء على شرفة وقراءة الكتب، تلك التي لم تحرق حتى تاريخه، أو الذهاب مع منير لبيع آلة تصوير عند تاجر المسروقات الذي يعرفه ثم احتساء كوب بيرة أو كوبين في إحدى حانات الحيّ، موجّهين التحيّة بصوتٍ خفيضٍ لرجال الشرطة عندما نصادفهم.

في هذه الأثناء في فرنسا، في تولوز، في مدرسة يهوديّة تحديداً، أطلق معتوه النار من مسدّسه عن قرب على ثلاثة أطفال ورجل بالغ فصرعهم على الفور. وقبل ذلك ببضعة أيّام قتل جنوداً

عزّلاً بالطريقة نفسها. يستحيل إيجاد معنى ما لطلقات الرصاص هذه التي تدوّي في العالم أجمع. احتلّ الخبر صفحتين أو ثلاثاً في صحف برشلونة. كلب مسعور انقضّ وقُتل قبل أن يَقتل هوَ نفسه. ماذا بإمكاننا أن نقول بعد سوى أنّ هذا المخبول كان يحمل اسم النبيّ، وأنّه حاول أن يُشارك في الجهاد الله يعلم أين. رأى منير أنّ رجال الشرطة الذين قتلوا هذا المنحطّ كانوا لطفاء جدّاً معه، إذ كان ينبغي رفعه على خازوق ببطء شديد في الساحة العامة- أو ربّما فسخه كما فُسِخ دميان، قاتل الملك في مذكّرات كازانوفا، ولكن ماذا كان هذا سيغيّر. فكّرت في بسام، الضائع في مكانٍ ما غارقاً في جهاده الشخصي والذي قتل ربّما طالباً بطعنات السيف في طنجة. التفسير أحياناً لا يُجدي نفعاً. ليس هنالك ما يُفهم في العنف، عنف الحيوانات، وعنف المجانين حين يخافون، ويحقدون، وتأسرهم الحماقة العمياء التي تدفع شخصاً في مثلِ سنّي إلى توجيه أستون سلاحه الناري إلى صدغ فتاة في الثامنة من عمرها في المدرسة بدم بارد، ثم استبدال سلاحه بآخر لدى تعطّل الأوّل وبالهدوء الذي يفترضه ذلك، بهدوء وتصميم، وإطلاق النار سعياً لنيل الاحترام من بعض الجراذين في الكهوف الأفغانيّة. تذكّرت كلمات الشيخ نور الدين، يجب إثارة المواجهة، وإشعال الأعمال الانتقاميّة التي ستنفخ في جمرات العالم وتدفع الكلاب للتناهش، وعلى رأسهم الصحافيّون والكتّاب الذين يسارعون «للفهم» و«الشرح»، كما لو أنّ هنالك شيئاً مهماً حقّاً في التلافيف الضئيلة لأدمغة هذه الحثالة المهووسة التي لم تشأ القاعدة نفسها أن تلحقها بصفوفها.

كان منير يعتقد أنّ هذه الاعتداءات مدعومة سرّاً من اليمين

الفاشي المتطرّف لتأجيج الحقد باستمرار، والتحريض ضدّ الإسلام، وتبرير الغزوات الإرهابيّة الآتية. تذكّرت عبارة مانشيت لم أعد أعرف في أيّ روّاية من رواياته، إنّهما «وجهان لعملة حماقة واحدة».

سماء سوداء لامتناهية، هذا ما كان ينتظرنا- اليوم في مكتبتي، حيث جنون العالم تعزله الجدران، أراقب سلسلة الكوارث كَمن يشعر، وهو في ملجأ يُشاع عنه أنّه آمن، بأنّ الأرضيّة تهتزّ، والجدران ترتجف، فيتساءل كم منَ الوقت سيستطيع بعد أن يُحافظ على حياته: في الخارج كلّ شيء يبدو ظلاماً ليسَ إلاّ.

لا يمكن العيش من دون حبّ[٧٠]، هذا ما كنت أردّده على مسامع جوديت. عثرت على هذه الجملة في رواية جميلة من الروايات السوداء المعقّدة. كان حريّاً بجوديت أن تتماسك، وتستعيد حيويّتها وقوّتها. ولم تكن تحدوني إلاّ رغبة واحدة وهي أن أهبَها هذه المشاعر المتوقّدة، ونار الحنان هذه التي توقد كياني - أن أهبَها إيّاها عبر الكتب والقصائد والبادرات البسيطة لكلّ يوم. تركْتُ مريم تموت. ولا أريد أن تغرق جوديت في ظلماتها بالذات. تحدّثت عن الأمر مع إيلينا ذات يوم تَرافقنا فيه بعد الدرس منحدرين شوارع غراسيا سيراً على الأقدام، وتوالت أسماء الشوارع التي مررنا بها غريبة- شارع القصعة، وشارع الطوفان، وشارع الخطر[٧١]- ووافقتني الرأي. كانت ترى أنّ أحوال جوديت لا تسير على ما يُرام، فهي تظلّ ساهمة، ومنزوية، ومنطوية على نفسها. اقترحَتْ عليها القيام من جديد بسفرة، خلال عطلة أسبوع

---

(٧٠) بالإسبانيّة أيضاً في النص: *No se puede sin amar*

(٧١) في النص Rue du Torrent- de- la gamelle

Rue du Déluge

Rue du Danger

الآلام[٧٢]، والذّهاب إلى مكانٍ ما في العالم العربي، إلى القاهرة مثلاً، أو الأردن، لكن دون جدوى، لأنّ جوديت تتذرّع قائلة بأنّها لا ترغب في طلب المال من أبوَيها؛ كان والدها يملك مؤسّسة صغيرة للبناء كانت مزدهرة لكنّها توشك على الإفلاس، وكانت والدتها أستاذة في الجامعة ولمرّتين اقتُطع من أجرها في العام الفائت. لكنّي لا أعتقد أنّ المال هو المشكلة، قالت إيلينا؛ لا بدّ أنّه أمر آخر- ما عادت تهتمّ بشيء. وكما ترى حتّى اللغة العربيّة، تتابع دراستها، لكن دون شغف. توقّفت عن السعي للحصول على ساعات تدريس أو الالتحاق بمعاهد ترجمة للعام المقبل. لم تعد تخرج من البيت إلا برفقتك من وقت لآخر. العام الفائت كنّا نذهب إلى الحانات والحفلات الموسيقيّة، واليوم لا شيء من هذا. انضمّت إلى حركة «أوكوباس»، وشاركت أيضاً في اجتماعات حركة «المستائين». أي مختصر القول كانت ملتزمة بمجموعة من النشاطات واليوم لا شيء تقريباً. كلّ ما تفعله هو أنّها لا تزال تذهب إلى الجامعة. أشعر أنّها تبقى معظم الوقت منزويَة في غرفتها ولا تتركها إلا للقيام بجولة صغيرة في الحيّ. بدَت إيلينا حزينة وقلقة على صديقتها لا سيّما وأنّها لم تكن تفهم سبب هذا التغيّر في تصرّفها. لدى عودتها من تونس لم تكن تتحدّث، على حدّ قول إيلينا، إلا عنك، وعنكم، والمغرب، والتطوّر الهائل الذي حقّقته في اللغة العربيّة، إلى أن بدأت الأمور في الخريف تتّجه نحو الأسوأ، بدأت تقلق لأنّك بتّ مقلاً في مكاتبتها، وإن كانت تعرف أنّك كنت على متن السبفينة دون إنترنت معظم الوقت. وأخذت

---

(٧٢) لدى الطوائف المسيحيّة، الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح، قيامة المسيح.

تسأم تدريجاً من حركة المستائين، وتجدها تافهة بعض الشيء؛ وكذلك أضجرها الجانب الاحتفالي من حركة «أوكوباس». وتضاءلت مشاركتها في العصيان في ساحة بلاسا دل سول أكثر فأكثر. وباختصار لم تعد تقوم بأشياء مهمّة، وغرقت في الحزن.

بدا لي هذا الوصف كلّه مبالَغاً فيه، لأنّ كلّ ما يحدث لها عابر على الأرجح.

أمّا أنا، وإن كنت سعيداً بإقامتي في برشلونة، وإن كنت أحبّ القراءة على الشرفة، والعيش في الحيّ، وحصص دروس اللغة العربيّة، وكلّ ما أكتشفه عن الحياة في أوروبا، واللغات والصحف والكتب، إلا أنّ حياتي لم تكن بهذه السهولة. لا بدّ أنّ رجال الشرطة كانوا يبحثون عنّي في قضيّة كروز، ولا يسعني الذهاب لرؤيتهم بكلّ أدبٍ ولَياقَة لأتقصّى أخبار التحقيق، أو لأوضح لهم أنّني لم أقتل الرجل (وهذا ما كانوا يرتابون فيه وهم معذورون في ذلك). وباختصار كنت عالقاً في برشلونة، مسجوناً مرّة أخرى، ولكن في سجنٍ أرحب. كان انعدام المستقبل هذا ثقيل الوطأة بعض الشيء. وددت فعلاً أن ألتحق بالجامعة، ولكن بدا هذا غير ممكنٍ من دون تصريحٍ بالإقامة، كذلك بالنسبة للعمل بشكلٍ شرعيّ. كان عليّ الانتظار- أمامي انتظار طويل يمتدّ سنواتٍ عديدة، إلى أن ينساني رجال الشرطة ويتحسّن الوضع الاقتصادي في أوروبا، ولا يبدو هذا وشيك الاحتمال. وكمصاب بمرضٍ بطيء يتناساه في حياته اليوميّة لأنّه غير مصحوب بآلام شديدة في البداية، لم تكن هذه المسائل تعذّبني- ليس غالباً على الأقل. انضمّ كروز إلى عالم كوابيسي، وموتاي. كنت أدخّن بين الفينة والفينة بعض لفائف الكيف، في هجيع الليل، حين يؤرّقني حلم فظيع

ويمنعني من النوم وتطالعني فيه الرؤى نفسها دوماً: الدم والغرق والموت.

كنت أشتاق إلى ابتسامة بسّام عندما نتأمّل المضيق، وسحنته الريفيّة وروحه المرحة.

ولعدم توفّر الجامعة، سعيت إلى تثقيف نفسي وعدم إهدار وقتي سدىً. كنت مدرِكاً أنّ الكتب هي التي ساعدتني على إحراز أفضل المواقع التي تسنّى لي أن أحظى بها، سواء في مركز نشر الفكر القرآني، أم عند السيّد بوريلييه؛ وشعرت بشكلٍ مبهم أنّها تمنحني إحساساً أليماً بالتفوّق على رفاقي، رفاق الحظّ العاثر، العابرين السريّين مثلي- هذا دون الكلام عن التسلية التي تقدّمها وتكاد تكون مجانيّة. لم تكن كرة القدم ومشاهدة التلفزيون أغلى سعراً بكثير، بالطبع، لكن كان يصعب عليّ أن أتحمّس لمآثر فريق برشا الذي أصبح، وما أدراك لماذا، فريق العادلين والمضطهدين في مواجهة أشرار فريق مدريد البيض. أرافق من وقتٍ لآخر منير لمشاهدة مباراة في إحدى الحانات- لكن من دون كبير حماس.

كنت أذهب إلى المكتبة، وأقرأ فيها أبحاثاً عن تاريخ إسبانيا وأوروبا، وأدوّن ملاحظات في دفتر كبير؛ حاولت أيضاً أن أتعلّم الكتالونية قليلاً، مخصّصاً مفكّرة للمفردات أدوّن فيها كلماتٍ ومقاطع، وأفعالاً. بدت لي الكتالونيّة، الله أعلم ما هو السبب، لغة موغلة في القدَم، لغة عجوزاً لا قيمة لها يتكلّمها فرسان قروسطيّون وصليبيّون لا رحمة في قلوبهم، ربّما بسبب كلّ أحرف X هذه التي تحفل بها، والمقاطع الصوتيّة الغريبة.

عملت أيضاً على تحسين لغتي الإسبانيّة والإبقاء على صِلتي بالفرنسيّة حتى لو كانت الكتب الفرنسيّة غير متوفّرة بسهولة- كنّا

نصادف بعضها في مكتباتٍ تبيع الكتب المستعملة. خطّطت لشراء قارئة إلكترونيّة لكنّي لم أحسم قراري. كان هنالك الآلاف من العناوين المتاحة مجّاناً على الإنترنت، كلّ الأدب الفرنسي تقريباً. وكان هذا يبعث على الحلم، حتى لو كانت القصص البوليسيّة، وفقاً لأبحاثي قليلة. كنت أشارك من وقتٍ لآخر تحت الاسم المستعار أوجين ترابون، في منتدى مخصّص لـ«الأدب البوليسي». وحظيت بأصدقاء افتراضيّين يعرفون كافة المراجع البوليسيّة على الإنترنت.

كان وقتي مشغولاً بشكلٍ لا بأس به إذاً، كنت مثقف شارع اللصوص والنشّالين.

وعلى هذا الإيقاع ستجحظ لي عمّا قريب نظارات.

٩

وفي ٢٩ مارس، بدأت الانتفاضة، كمثل طنجرة ضغط نسيت على النار وانفجرت عندما لم يتوقّع أحد ذلك.

أمس، اصطحبني منير لرؤية مباراة فريق برشا يلعب ضد فريق ميلانو في كأس أوروبا. كانت النتيجة صفر- صفر والمباراة مضجرة فعلاً، لكنّ الصحبة ممتعة: كنّا أربعة عرب جالسين أمام طاولة في أحد البارات نحتسي البيرة ونقول تفاهات ونحن نلتهِم «البطاطس برافاس» لوقتٍ طويل، حتى لو كان هواة كرة القدم يعشقون في العادة رؤية الأهداف وانتصار فريقهم. إنّ الشيء الذي أثار اهتمامي دوماً في هذه الحانات المشجّعة لكرة القدم، هو أنّه كان يوجد فتيات جميلات شابات يرتدين سروال فريق برشا ويحتسين البيرة من فم القنينة مباشرة وهنّ يصرخنَ قدر ما يصرخ الرجال على الأقل، وهذا رائع. كنّا نتحدّث فيما بيننا بلغةٍ صبير هي لغة مزيج من المغربيّة، والتونسيّة، والفرنسيّة والإسبانيّة، لغة المستقبل، لغة جديدة، وُلدت في حانات أحياء برشلونة البائسة. كنا متّفقين على القول، ونحن نضحك، إنّه ينقصنا الفتيات أمام التلفزيون في الحانات عندنا- هذا لأنّنا لا نعرف ممارسة لعبة كرة القدم، كان يقول محمد الريفي، بلهجته البربريّة، عندما سيكون لدينا فريق مثل

فريق برشا سيكون عندنا أيضاً نساء يحتسين البيرة وهنّ يُشاهدن المباريات. هكذا هي الحال. هذان الأمران متلازمان.

كان التفسير مقنعاً فعلاً، لكنّ منير اعترض قائلاً: لا علاقة لهذا بذاك، انظر في فرنسا، الفرنسيّون لا يتقنون لعبة كرة القدم، ليس لديهم فريق متصدّر، ومع ذلك هنالك فتيات يحتسين البيرة في المباريات.

قلت:

- ما تقوله غير دقيق. لأنّ فرنسا سبق لها وفازت بكأس العالم. بالإمكان إذاً إنشاء صلة بين المستوى الكرويّ العام وعدد النساء في الخمّارات.

- وكأس أفريقيا، أليس مثيراً للاهتمام هو أيضاً؟

- للتونسيين، ربّما. أنتم المغربيّون خسرتم المباراة النهائيّة لأنّ الحضور الأنثوي قليل في حاناتكم، هذا أمر مؤكّد. ولا تنس نحن الآن لدينا الحرية، وأنتم لا.

- هذا أكيد. فضلاً عن ذلك غالباً ما ربحت مصر كأس أفريقيا، والقاهرة مشهورة بمشجّعاتها اللواتي يرتدين البيكيني ويرمين علب البيرة وهن يهتفن بحماسة خلال نقل المباريات على الشاشة.

- لك أن ترى المشجّعين السبعين الذين لاقوا حتفهم خلال إحدى المباريات في مصر، كانوا في معظمهم من النساء الظريفات فوق ذلك، على ما يبدو.

- على فكرة، من ربح كأس أفريقيا لهذه السنة؟

- زامبيا.

- هل تسخر منّي، أين هيَ زامبيا؟

- ما أكثرهنّ الفتيات هناك في الحانات.

ضحكنا كثيراً، جيّد أن ننسى السرقات اليوميّة، وغسل الأواني في المطعم، وأكياسْ الإسمنت، أو المنفى بكل بساطة.

لم تكن وحدة العالم العربي موجودة إلا في أوروبا.

في صباح اليوم التالي، أيقظني هدير طائرة الهيليكوبتر التي كانت تحوم على ارتفاعٍ منخفض جداً، فوق وسط المدينة في برشلونة- وقد سُمع هديرها لأربع وعشرين ساعة. خلدنا أمسِ للنوم في وقتٍ متأخّر مع تفاهاتنا عن البيرة، والفتيات، وكرة القدم. لا بل دخنّا سيجارتَيْ حشيش قبل النوم، وفي الحال نسيت تماماً أنّه يوم الإضراب العام. على أيّة حال الإضراب العام فكرة غريبة، يحضّر له مسبقاً، ويقام في تاريخ محدّد، ويمتدّ لأربع وعشرين ساعة فقط. إذا كان للامتناع عن العمل من أهميّة ما فهذا متوقّف على مدّته، والتلويح بتمديده، هذا ما فكّرت فيه من علياء سنواتي العشرين، لكن ليس هذا ما يحدث في إسبانيا. هنا النقابات تجابه السلطة ليومٍ واحدٍ، يومٍ واحدٍ فقط، وبأعداد المشاركين: كان قادة النقابات يرَوْن الإضراب «ناجحاً» أو «فاشلاً» ليس لأنّهم حصلوا على حقوقهم أو شيء من مطالبهم، وهذا انتصار حقيقيّ فيما لو أحرز، ولكن بقدر ما ترتفع نسبة المشاركين في الإضراب. أسفر الإضراب إذاً عن نجاحٍ هائلٍ بالنسبة للنقابات (ثمانون في المئة من المُضرِبين، ومئات الآلاف من المتظاهرين) ولكن أيضاً بالنسبة للحكومة: فهي لم تحد قيد أنملة عن سياستها ولم تقترح التفاوض بشأن أيّ بندٍ كان. من جهة أخرى أجهل إذا كانت هذه الفكرة مطروحة على جدول الأعمال. إنّ مبدأ الإضراب هوَ الامتناع عن الذهاب إلى العمل، وأن يتظاهر الجميع في الشارع،

وهذا كلّ شيء. كان بالإمكان التأكّد من أنّ إسبانيا تخطّت السياسة، وباتت في عالم الما بعد سياسة، حيث القادة ما عادوا يبذلون أيّ جهدٍ أو يراعون أيّاً كان. يعلنون فقط أحوال الطقس، مثل ملك فرنسا أيّام كازانوفا: يا أصدقاء، الخزينة فارغة اليوم، إنّهم الموظّفون الذين سيمنون بخسارة بعد أن عاشوا عيشة رغيدة لسنوات، ها إنّ ساعة رحيلهم أذِنَت. غداً وقت عصيب للأوضاع الصحيّة. ستهبّ عاصفة على المدرسة. ضعوا أولادكم في التعليم الخاصّ. إنّ آخر الموظّفين في الصناعات الثقيلة الذين لم يُمِتهم السرطان، قد صُرفوا. لقد حرّرنا سوق العمل وأعدنا صياغة العقود. وحدّدنا فترة التجريب بسنة. إذا صُرفْتم خلال ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً فلن يحقّ لكم بتعويض نهاية الخدمة. وهذه الفكرة الرجعيّة عن الحدّ الأدنى للأجور يساريّة في العمق وتكبّل أيدي المتعهّدين الذين يريدون إيجاد فرص عمل، ويجب محاربتها. الحدّ الأدنى لساعة العمل يوازي نظيره في المغرب الذي رفع لتوّه قيمة الحد الأدنى للأجور: وهذه القيمة هي محفّز فعّال للحدّ من المنافسة. وللحدّ من المنافسة يلزمنا عبيد، عبيد كاثوليكيّون وراضون بمصيرهم. المستاؤون لا يُفترَض بهم أن يقترعوا، فهم ناشطون سلميّون خطرون، ويتنافون، بصفتهم كذلك، مع الديمقراطيّة، ولا يستحقّون بالتالي إلاّ ضربات الهراوات والاعتقالات الجماعيّة. المؤتمر الرسولي الإسباني يوصي الكاثوليكيّين بأن يحدّوا من الإنجاب لأنّ نسبة المواليد المرتفعة في زمن الأزمة تزيد بشكلٍ غير معقول من نفقات الدولة. لذا يُنادي قداسة البابا بنيديكتوس بسلسلة إجراءات مسكونيّة مثل حضور رتبة القدّاس، وجَلْد الجسد للتخفيف من فائض الرغبة.

كلّ هذه الأشياء جرى الحديث عنها في الصحف وعلى قنوات التلفزيون؛ لا بل إنّي رأيت ذات يومٍ تقريراً يؤكّد أنّ الزنوج الذين «لم يُعنَوا بتقليم أظافرهم كما يجبُ لا يُفترض بهم أن يستعملوا واقياً ذكريّاً، لأنّهم يخاطرون بثقبه، ولهذا السبب، يحظّر البابا على السود أن يستعملوا الواقي. أضف إلى ذلك، يقول المعلّق، أنّهم لا يعرفون القراءة ويسيئون بالتالي فَهْمَ طريقة الاستعمال، ما يُفسّر، حسب قوله، أنّ نسبة الإيدذ أكثر ارتفاعاً في البلدان التي يوَزّع فيها الواقي الذكري منها في البلدان الأخرى».

كلّ هذه الأقوال تنمّ عن حقارة حقيقيّة. لدى سماعها نشعر أنّ الخطر ليس متأتّياً من الإضراب بل من ثورة محتملة. تبدو وسائل الإعلام هنا وكأنّها تصنع مملكة الحقد والكذب وسوء النيّة. ليت الإسبان صنعوا ربيعهم العربي بالذات، وبدأوا بإحراق أنفسهم، ربّما كان كلّ شيءٍ تغيّر.

ثمة شيء لا أفهمه: هل كانت أوروبا تسَلّم بأنّها لا تملك وسائل تقدّمها، وأنّ تطوّرها خدعة وأنّ إسبانيا مثلاً كانت في الواقع بلداً أفريقيّاً كسائر البلدان، وأنّ كلّ ما نراه، من أتوسترادات وجسور وأبراج ومستشفيات ومدارس ودور حضانة، ليس إلاّ وهماً تمّ شراؤه بالدَّين ويوشِك أن يستردّه دائنوه؟ تُرى هل سيختفي كلّ شيء ويُحرق وتبتلعه الأسواق، والفساد، والمتظاهرون؟ إذا كانت هذه هي الحال فإنّ الكثيرين سينتهي بهم الأمر إلى شارع اللصوص. سيخفق الكثيرون، ويغيّرون حياتهم، ويخسرون مدّخراتهم، ويموتون وهم بعد شباب، لعدم توفّر المال كيما يعتنوا بأنفسهم ويعالجوا أمراضهم. سيرث أولادهم رفسة في المؤخّرة، ولن يذهبوا إلى مدارس جيّدة، بل إلى إهراءات يتجمّعون فيها حول

موقدٍ على الحطب- لم يكن أحد يرى هذا. يجب المجيء من بلاد بعيدة لكي تتخيّل إلامَ سيؤول هذا التحوّل، المجيء من المغرب، المجيء من الشيخ نور الدين، المجيء من كروز وجثّته.

لم تكن طائرة الهيليكوبتر هنا اعتباطيّاً. لا بدّ أنّ كلّ شيء يُفترض أن يكون أكثر جمالاً إذا شوهِدَ من السماء، الصافية في ذاك النهار. في الشارع، كان الأمر مختلفاً. لم أعدل عن الذهاب إلى تدريس العربيّة: كنت أنتهك الإضراب، ووجب عليّ الصعود مشياً، لأنّه ليس هنالك مترو. كانت الساعة العاشرة صباحاً، وكان هنالك تجمهر لمجموعة من الأشخاص وزمر من المضربين يرتدون كسكيتات ويحملون أعلاماً ومكبّرات صوت، ورجال شرطة في كلّ مكان. نصف شوارع المدينة مقطوعة، والمحلات الكبيرة مقفلة، ما خلا بعض الباعة الصغار الذين تحدّوا فِرَق المُضربين- وبئس ما فعلوا: رأيت عشرة نقابيّين يُجبرون فرّاناً على إقفال محلّه ويصرخون به مستائين: «إضراب، إضراب، إضراب!» وهدّدوا بتكسير واجهته بمقابض هراواتهم. ولم يلبث أن استسلم بعد دقيقتين وصرف موظّفيه. وبالمقابل، كان شرح مفهوم «فرقة المضربين»[(٧٣)] لصينيّي أسواق «لاروندا» أكثر تعقيداً.

- اليوم لا عمل.

- لا عمل؟

- لا، إنّه الإضراب العام.

- لسنا مضرِبين.

---

(٧٣) فرقة المضرِبين: جماعة تقف على مدخل مكان العمل لتسهر على تنفيذ أوامر الإضراب.

- رغماً عنكم إنّه الإضراب العام.
- لسنا مضربِين.
- ولهذا يجبُ عليكم تحديداً إقفال محالّكم.
- علينا القيام بالإضراب؟

ولكن في النهاية كان الصينيّون معتادين على النضالات البروليتاريّة للحزب الواحد، وذاقوا أيضاً طعم الهراوة الفعّالة بحيث باتوا قادرين على تمييزها من رؤيتها، وينتهي بهم الأمر إلى خفض ستارات محالهم لبضع ساعات على أيّ حال.

ويصبح عملهم أكثر سريّة من المعتاد.

في غراسيا، كان كلّ شيء هادئاً. الشوارع تسبح في النداوة الزرقاء للصباح الربيعي؛ وجوديت تنتظرني لأعطيها الدرس. وصلت لاهثاً قليلاً. إيلينا وفرانشيسك سيتغيّبان لأنّهما يسكنان بعيداً جدّاً ولا يستطيعان المجيء سيراً على الأقدام. كانت والدة جوديت في المنزل، وهذه هيَ المرّة الأولى التي ألتقي بها. عرّفت عني جوديت كالتالي: «الخضر، أستاذي في اللغة العربيّة». كانت والدتها تبدو أصغر سنّاً ممّا تصوّرت: ترتدي جينزاً ملتصقاً بالجسم، وتيشيرتاً زرقاء كُتِبَ عليها I'd prefer not to، وتدعى نوريا. فكّرت من جديدٍ في أمّي، لا بدّ أنّ لديهما السنّ نفسها تقريباً- ولكن ليس الحياة نفسها، وتستطيع الاحتكام إلى ذلك بمجرّد النظر إليهما.

جَرى الدرس وجهاً لوجه مع جوديت بشكلٍ جيّد، حتّى لو بدَت جوديت غائبة قليلاً. قرأنا مقطعاً لابن بطوطة بدا لي متوافقاً مع الأحداث الراهنة. كان ابن بطوطة في الهند، لدى السلطان محمد شاه، ويروي أنّ شيخاً جبّاراً مُهاباً يُدعى شهاب الدين،

رفض الذهاب إلى السلطان الذي استدعاه. قال الشيخ لرسول البلاط «لا أخدُم ظالماً أبداً». فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأمر بأن يأتي به فأتى به فقال أنت القائل إنّي ظالم فقال نعم، ومن ظلمك كذا وكذا، وعدّد أموراً منها تخريبه لمدينة دهلي وإخراجه أهلها فأخذ السلطان سيفه ودفعه لوزيره وقال: يثبت هذا أنّي ظالم واقطع عنقي، فقال له الشيخ شهاب الدين ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل، ولكن أنت تعرف ظلم نفسك، وأمر بتسليمه فقُيِّد بأربع قيود وغُلّت يداه وأقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً، لا يأكل ولا يشرب وفي كل يوم منها يؤتى إلى المشور، يجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له: إرجع عن قولك فيقول لا أرجع عنه وأريد أن أكون في زمرة الشهداء. فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فأبى أن يأكل وقال: رفع رزقي من الأرض ارجع بطعامك إليه، فلمّا أخبر بذلك السلطان أمر عند ذلك بأن يطعم الشيخ خمسة أساتير من العذرة[٧٤] وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور، وهم طائفة من كفّار الهنود فمدّدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك. وفي اليوم بعده أتى به إلى دار القاضي وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزاء فوعظوه وطلبوا منه أن يرجع عن قوله فأبى ذلك فضربت عنقه ومات في الحال.

لِيرأف الله بنفسه.

بعد أن تُرجِمَ النصّ على سبيل التمرين، تناقشنا بالعربيّة الفصحى حول تصميم الشيخ ومسألة وجوب الاستسلام أمام

---

(٧٤) العذرة: الغائط.

الجبابرة أم عدمه. قلت لا أعتقد أنّ تضحية الشيخ أدّت إلى شيء عظيم. سيكون مفيداً أكثر لو أنّه بقيَ على قيد الحياة مواصلاً الجهاد متظاهراً بالتراجع عن كُلامه. كانت جوديت أكثر تعقّلاً مني، وأكثر شجاعة ربّما أيضاً.

- أرى أنّ تضحيته كانت مفيدة- يجب على الطّغاة أن يعرفوا أنّهم كذلك. إنّ إصرار الشيخ على موقفه حتّى الموت أثبت للسلطان أنّ هناك أفكاراً وأناساً لا يمكن هزمهم. ولا تنسَ لو أنّ الشيخ عدَلَ عن موقفه، لما روى ابن بطوطة لنا هذه القصّة، ولَبَقيَ نضاله مجهولاً من الجميع فيما المثال الذي أعطاه كان عبرة.

كانت تعبّر عن أفكارها جيّداً بعربيّة سلِسَة منمّقة وخالية من الأخطاء النحويّة.

ثم بدأنا نتكلّم في السياسة. فكّرت في السوريين الذين يُعذَّبون ويتعرّضون للقصف كلّ يوم، وفي الشجاعة التي عليهم التحلّي بها ليقدروا على متابعة النضال في حربهم الطويلة ضد سلطانهم الذي، عليه أن يوقن هو أيضاً بطشه وطغيانه.

تركت جوديت حوالى الساعة الواحدة ظهراً. اقترحت عليها الخروج للقيام بجولة، أو احتساء فنجان قهوة. رفضت مفترّة عن ابتسامة جميلة. كانت على موعد بعد الظهر مع بعض الرفاق للذهاب إلى التظاهرة.

وفي الحال أصبحت طليقاً كالهواء. ذهبت للجلوس في ساحة بلاسا دل سول على أحد المقاعد. قرأت لبضع ساعات قصّة بوليسيّة لفاسكيز مونتالبان. كان تحرّيه الخاص، بيبي كارفالهو، الرجل الأكثر امتعاضاً وادّعاء وكرهاً للبشر. كانت الحبكة لدى مونتالبان مضجرة لكنّ شغفه بالطعام والجنس والمدينة تجعل كتبه

في النهاية ممتعة، أتعلّم منها أشياء لا بأس بها عن إسبانيا، وبرشلونة، بالإضافة إلى كلمات وتعابير جديدة مفيدة دوماً. عندما أنهيت الكتاب، سلكت الطريق إلى وسط المدينة. ما برحت طائرة الهيليكوبتر تحوّم على علوٍّ منخفض تقريباً. الريح تحمل رائحة الحريق، وكتل الدخان تجعل الهواء ثقيلاً. صفّارات الشرطة في البعيد تخترق الهدوء الظاهريّ للأزقّة. وحين وصلت إلى منعطف جادة دياغونال، أمام أحد أكبر الفنادق في برشلونة، التقيت بمئات الأشخاص الحاملين لافتات. تسلّق عشرات المتظاهرين قاعدة المسلّة شاهرين من فوقها الأعلام الفوضويّة الحمراء والسوداء التي راحت تخفق. بدا الحشد وكأنّه يحتلّ كلّ مسالك غراسيا. كانت واجهة البنك الألماني تتطاير شظايا تحت ضربات المطارق. رأيت جماعة من الشبّان يهجمون على صندوق التوفير المجاور وهم يغنّون ويرسمون مخربشات حمراء بالرشاشة - حلّقت طائرة الهيليكوبتر فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفضٍ جدّاً الآن، لا بدّ أنّها تراقب الناشطين. في الأسفل، باتّجاه ساحة كتالونيا، ارتفعت أعمدة هائلة من الدخان نحو السماء والتمعت شرارة اللهب- كانت المدينة تحترق، على وقع مكبّرات الصوت الزاعقة بشعارات وأغانٍ وموسيقى من كلّ نوع، وصفّارات إنذار. كان مشهداً يصمّ الآذان، عنيفاً، وباهراً يجعل مئات الآلاف من المشاهدين الجامدين في أمكنتهم الذين حالت كثرة عددهم دون تنقّلهم يبدون على قلب رجل واحد. كلّما انحدرْتُ نزولاً إلى وسط برشلونة عبر الشوارع المتاخمة، ازدادت المجامر اشتعالاً. في إحدى الجادات، أقيم في منتصف الطريق متراس من المستوعبات التي أتلفت النار نفاياتها ناشرة في الهواء رائحة لا تُطاق. في ساحة أوركيناونا، نشبت

المعركة: وسط ألسنة اللهب والدخان، تقدّمت جماعة متراصّة من الشبّان في مواجهة سيارتي شرطة، كُحْلِيّتي اللون مصابيحهما مغطّاة بشباكٍ معدنيّة، وهمْ يرمونها بِسَواري الأعلام، والقوارير، والفضلات، ثم ارتدّوا مشتّتين عندما تحرّكت السيّارتان أشبه بدابتين ضخمتين وقذفتا بسرعة ركّابهما المرتدين خوذاً وعلى أنوفهم أقنعة الغاز؛ كان بعضهم يحملون بنادق في أيديهم. راحوا يطلقون النار على الحشد، وترافقت أصوات الطلقات بالشرارات الخارجة من أساتين الأسلحة- تراجع الشبّان تحت وطأة الرصاص المطاطي والغازات المسيلة للدموع؛ بعضهم وضعوا المناديل على وجوههم للاحتماء من الغازات مواصلين هجومهم- لم يعد لديهم ما يرمونه سوى الشتائم.

كنت على جانب الطريق محتمياً مع مارّة آخرين في فجوة جدار. قبالتنا عربة من رجال الإطفاء تحاول أن تسيطر على حريقٍ شبّ في مقهى «ستاربكس» وهو على الأرجح رمز الرأسماليّة على الطريقة الأميركيّة. كانت واجهات الزجاج المحطّم تتدلّى وكأنّها خرق قماشيّة غريبة. من وقتٍ لآخر، يتقدّم شرطيّ متكتفّاً بندقيّته يصوّبها بتأنٍّ ومن ثمّ ينسحب متراجعاً لينضمّ إلى رفاقه، مثل صيّاد أو جندي، وكنّا نتساءل عمّا ستسفر عنه هذه المقذوفات لِفَرطِ ما كانت الطلقات عنيفة مرعبة.

لِلوصول إلى شارع اللصوص، كان عليّ أن أشقّ طريقي - أو أوَلّيَ مذبِراً باتّجاه الجامعة ومن هناك أتوغّل في الرافال، لكنّي كنت أتخيّل أنّ ساحة الجامعة ستكون هيَ أيضاً مشتعلة، هذا إذا لم تكن مشتعلة ودامِيَة.

كنت تشعر أنّ التخريب سيبلغ أوجه لا سيّما وأنّ عنف رجال

الشرطة وحقدهم كانا يتناميان. كان رجال الشرطة يتخبّطون، ويحرّكون هراواتهم الطويلة وبنادقهم ودروعهم ويُشهِرونها في وجه المتظاهرين - قبالتهم يخفض الشبّان سراويلهم مظهرين لهم مؤخّراتهم، ويشتمونهم باللوطيّين وأبناء عاهرات. كانت زمرة صغيرة من المتظاهرين تفكّك المستوعبات المعدنيّة لترمي بها الشرطة، فيما ينقضّ آخرون على شجرة، ربّما لكي يصنعوا منها رمحاً غريباً عملاقاً. كانت المواجهة غير متكافئة وكأنّها معركة بين فاتحين إسبان مجهّزين بدروعهم وخوذاتهم وقربيناتهم(٧٥) وفرقة من المدنيّين المايا(٧٦) أو الأزتيك(٧٧) الذي رأيت رسماً لهم في كتاب تاريخ. ما برح الفتح متواصلاً.

في اللحظة التي قرّرت فيها أن أمُرّ خلف قوّات النظام مُحاوِلاً العبور، بدأ الهجوم: تقدّم خمسة عشر شرطيّاً مهرْوِلين وهراواتهم في أيديهم؛ أربعة آخرون حموا خواصرَهم واتّجهوا نحونا، ثم طردونا بفظاظة. عندئذٍ صرخ رجل مهيب في الخمسين من عمره بهم قائلاً إنّه يسكن في الجهة الأخرى من الشارع. فصاح به شرطيّ مقنّع: ابتعد ابتعد وانهال بضربَةٍ قويّة من هراوته على ظهر السيّد الذي أطلق ساقيه للريح مستاءً ودموع الغضب في عينيه- وتعيَّن علينا أن نرتدّ إلى أعلى المدينة أي بالضبط عكس المكان الذي يجدر بي الذهاب إليه. أمامي العنف والحقد؛ كنت أشعر بالغضب يتنامى في داخلي، الغضب والخوف؛ حاولت الاتّصال بجوديت

---

(٧٥) قربينة: بندقيّة قديمة الطراز.

(٧٦) المايا: شعب يقطن في شمال أميركا الوسطى وفي المكسيك.

(٧٧) أزتيك: الشعب الذي نزل قديماً في المكسيك.

على هاتفها المحمول لأعرف مكان وجودها- لا إرسال. لا بدّ أنّ الشرطة قطعت الخطوط لكي تمنع المتظاهرين من الاتّصال ببعضهم عبر الـ «أس. أم. أس.».

كانت المدينة تتأرجح بين الانتفاضة والاحتفال الشعبي- وشارع غران فيا يغصّ بالناس. التقيت سيّدة عجوزاً تحمل لافتة: «من يزرع البؤس يحصد الغضب»، وفتاة صغيرة تجذب خيط بالون من الهليوم كُتِبَ عليه: «يكفي اقتطاع من الموازنة»، و طلّاباً ينشدون: «يا راخوي، يا قوّاد، سنضعه في دبرك»، ودعابات أخرى من النمط نفسه، وسط روائح النفايات المحروقة والغازات المسيلة للدموع- الغريب أنّ حانة صغيرة محتجبة خلف صقالة كانت مفتوحة. قرّرت أن أستريح فيها منتظراً أن يهدأ كلّ ذلك قليلاً. احتسيت فنجان قهوة لا بل تريّثت مطوّلاً في احتسائه- كان التلفزيون يبثّ مباشرة أحداث النهار، رأيت مشهد المعركة التي كنت حاضراً فيها في ساحة أوركيناونا، مأخوذاً من زاوية أخرى. كان هذا شعوراً غريباً تماماً، التفكير أنّ خلف رجال الشرطة هؤلاء، إلى اليسار، عند زاوية شارع باوز كلاريس كان بالإمكان مشاهدتي. لكأنّ التلفزيون مثقاف(٧٨) غوّاصة ضائعة.

هبط الليل. كنت خائفاً بفعل مصادفةٍ سيئة من أن يُصار إلى اعتقالي مع فرقة من الناشطين. عندئذٍ قرّرت القيام بالتفافة طويلة لكي أصل إلى الحي الذي أسكن فيه، قلعتي، قصر اللصوص: الذهاب أولاً عبر شارع ديبوتاسيو حتى فيلارويل، ثم الانحدار نزولاً حتى سوق سانت أنطوان، والدخول أخيراً إلى الرافال عبر

---

(٧٨) مثقاف: منظار الأفق في الغواصات والمتاريس.

شارع ريبرا ألتا. دامت الالتفافة ثلاثة أرباع الساعة من المسير، وكان عليّ أن أتجنّب التواجد صدفة وسط عصابة من الدركيّين الحاملين الهراوات في أيديهم. في شارع ديبوتاسيو، عند كلّ زاوية منه، كنت ترى، على مسافة خمسمئة متر إلى الأسفل يساراً حول ساحة كتالونيا، الغيوم البيضاء من الغازات المسيّلة للدموع تمتزج بالأدخنة السوداء المتصاعدة من مستوعبات النفايات المشتعلة. استطعت الاتّصال بجوديت- كانت تركت التظاهرة لتصعد إلى منزلها مجدّداً عندما شنّ رجال الشرطة هجومهم عند زاوية جادة دياغونال، ومعبر غراسيا. كان صوتها مبحوحاً. سألتها إذا كانت على ما يرام فأجابتني نعم، نعم، بالطبع. فلم ألحّ.

كانت الالتفافة فكرة جيّدة- ما خلا بعض رجال الشرطة المحليّين المعتلين دراجاتهم والذين يمنعون السيّارات من النزول إلى وسط المدينة، لم ألتقِ إلا بجماعة من التجّار الذين يتجادلون أمام محالهم نصف المغلقة، أو بشبّان يصعدون مجدّداً إلى ساحة الجامعة وعلى وجوههم التجهّم والارتعاد.

كان المبنيان المؤقّتان لسوق سانت أنطوان بوّابة من أسوار خياليّة. خلفها يمتدّ الرافال وفي قلبه شارع اللصوص- صرت في أمان. الشارع غارق في الظلمة الله يعرف السبب. لا إنارة عامة. ربّما كان الأمر صدفة أو نتيجة الإضراب. كانت بعض المحال مفتوحة وترسل على الإسفلت نوراً غريباً مترنّحاً، مضيفة هيئة أكثر قروسطيّة على قصر فقرائنا. لا شي تغيّر في شارع النشّالين «كارير روبادورس»: كان رجلان أسوَدان يقومان بالحراسة عند زاوية الشارع منتظرين الله أعلم ماذا، ربّما شيئاً ما لن يحدث. وكانت ماريا أمام بابها، وتنورتها منحسرة حتى نصف فخذيها. لدى

صعودي الدرج، ارتعدت صراصير ضخمة وولّت هاربة من أمامي.
كان منير جالساً قبالة التلفزيون واضعاً قدميه على الطاولة المنخفضة مرتدياً جوربيه. تهاويْت إلى جانبه على الكنبة منهكاً- مشيت ما يُقارب أربع ساعات.

كان التلفزيون يعرض صور النهار بشكلٍ متواصل.

أخذتُ سكين منير الذي يضعه على الطاولة كالعادة ورحت أتلاعَب به بطريقة آليّة. نصله قصير لكنّه عريض ومشحوذ جيّداً. كان مزوّداً بقطعة معدنية تمنع النصل من الانثناء ما إن يُفتح، وبنابض فعّال يجب فكّه تماماً لينغلق ثانية. مقبضه قصير، من الفولاذ المغلّف بصفيحتين من الخشب الأحمر. سكين متين، ومسنون، وخطر. سألت منير ما إذا كان استعمله من قبل. قال لي لا، أنت تهذي، لم أخرجه قطّ من جيبي أمام أحد. إنّه فقط للدفاع عن النفس عند الضرورة. مَن يدري.

لا أحد فعلاً يدري...

في التلفزيون، كانت التعليقات هي نفسها دوماً.

النقابات سُرّت للنجاح الكبير الذي سجّله الإضراب.

والحكومة سُرّت لقدرتها، منذ اليوم التالي، على استئناف إصلاحاتها الاقتصاديّة الضروريّة.

في البعيد، ما برحت طائرة الهيليكوبتر تواصل استطلاعها.

في صباح اليوم التالي استفاقت المدينة محمومة مريبة. ما برحت موجة العنف تهتزّ في هواء الصباح- كان المتسكّعون في الشوارع يراقبون محتشدين في جماعات صغيرة، الواجهات المحطّمة، وهم يقومون بتعليقاتهم بصوتٍ منخفض. سعت فرق التنظيف لأن تمحو بأسرع وقت ممكن كلّ أثرٍ للحريق؛ في الصحف، لم يجرِ الحديث إلا عن حجم الخسائر وعدد الاعتقالات.

كان الفرق بين تونس وبرشلونة، على حدّ قول منير، الفرق الوحيد ربّما بينهما، هو أنّه في تونس استمرّت الفوضى في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه، وكذلك في اليوم الرابع. أمّا هنا، وكأنّ شيئاً لم يكن، بدأ إصلاح واجهات المصارف، وتابعت الحكومة أعمالها، وعاد الثوّار إلى لوحات التزحلق، واستولى السيّاح على ساحة كتالونيا.

هنا، لا يزال لدى الجميع الكثير ليخسروه قبل أن يرتموا في أحضان الفتنة، صدّقني.

بالطبع، أنّى لنا معرفة ذلك في تلك اللحظة.

كان منير يسعى بكلّ ما أوتي من جهدٍ لكسب المال، المزيد

من المال- ويجازف إلى حدّ خطير بسرقة آلات تصوير أغلى ثمناً، ومحفظات جيب لم تكن مملوءة مالاً كما يجب. اقترحت عليه إنشاء جمعيّة أو شيءمن هذا القبيل. لكي أجعله يتفادى السرقة قدر الإمكان، خطرت لي فكرة استوحيتها من مذكّرات كازانوفا- كان البندقيّ مثل منير، بحاجة دائمة إلى المال، لذا اخترع في باريس شيئاً ما خارقاً لحساب ملك فرنسا: اليانصيب، أي لعبة نقديّة تتيح الربح للجميع في النهاية. شرَحت لمنير كيفيّة كسب المال من خلال تنظيم يانصيب للصوص، آمن وسريّ- كنّا على هذا الرصيف في كارير دل سيد الذي نقصده لهدوئه، على مسافة خمسمئة متر من كارير روبادورس. بدأ منير يضحك من كلامي عن اليانصيب. شقّ عليه أن يُصدّق أن هذا ممكن الحصول. قلت ما دمت لم تجرّب فلن تعرف أبداً. لا شكّ أنّ ألعاب المال خطيئة، لكنّها خطيئة تطال اللاعب لا المنظّم، على ما أعتقد.

هل تعتقد أنّ هناك ألعاب يانصيب في السعودية؟

وجدته أمراً في منتهى الطرافة أن يكون كازانوفا العزيز هو الذي أتى بهذه الفكرة الرائعة. لا شكّ أنّ الأمر يستلزم شيئاً من توظيف المال، على الأقلّ بالنسبة لأرباح السحب الأوّل، في حال لم نبع ما يكفي من البطاقات في المرّة الأولى. سنكون أقلّ جشعاً بكثير من الدولة وندفع قسماً كبيراً من عائداتنا محتفظين فقط بعشرين بالمئة من نسبة الأرباح- فيما تذهب البقيّة إلى صاحب البطاقة الرابحة.

كان منير يشكّ بقوّة أن يثق بنا الزبائن، لكنّ التخمينات جعلت لُعابَه يسيل: مهلك، إذا بعنا خمسين بطاقة بعشرة أوروات، فهذا مجموعه خمسمئة أورو. نعطي منها أربعمئة أورو للرابح ونحتفظ

بمئة أورو. وإذا بدت لك العشرة أوروات كثيرة فبوسعنا أن نبيع الخمسين بطاقة بخمسة أوروات.

بدأ منير يدرك السحر كلّه لهذا الاختراع الجميل، ويجري عمليّات حسابيّة. أخبرْني، كان محتالاً كازانوفا هذا. هل حقّاً هو الذي اخترع هذه اللعبة؟ أجبت، نعم، على ما أظنّ، استناداً إلى قوله هو على أيّ حال.

بالطبع، تبيّن أنّ تنفيذ الخطّة أكثر تعقيداً ممّا كان متوقّعاً. بعد أسبوع، طبعنا بطاقات اليانصيب السرّي- كنت أنا المستثمر، تكفّلت إذاً بهذا الجزء المادي من المسألة. وأخيراً، رأينا أنّه من الأسهل استخدامنا سحباً قائماً من أن ننظّم سحبنا بالذات، لأنّ هذا يعطينا شرعيّة أكثر. كان الجميع باستطاعته أن يتحقّق في الجريدة أو في الأكشاك المختصّة من ربحه أو خسارته.

كان هذا النشاط إسبانياً محضاً، حسب ما شرحوا لي: في عيد الميلاد ينظّم الجميع (الجمعيّات والمحال والمخازن الكبرى والإدارات. . .) عدداً من أنواع اليانصيب. أما يانصيبنا فميزَته أنّه في غير أوانه وكازانوفي.

بالطبع، أسفرت هذه المبادرة عن فشلٍ ذريعٍ تقريباً: بعنا ثلاث بطاقات، اثنتين في المطعم المغربيّ في شارع اللصوص وثالثة لوالدة جوديت، كان هذا مخجلاً بعض الشيء- من جهته لم يستطع منير أن يبيع بطاقة واحدة أثناء قيامه بجولة على كافة المحال الصينيّة في الرافال، فيما شغفُ الصينيّين (المفترض) باللعب كان حَرِيّاً به أن يصنع ثروتنا!

ومع ذلك كانت بطاقاتنا جميلة، وملوّنة، وباللغة الكتالونية التي وجدت أنّها تُضفي عليها طابعاً أكثر جديّة علماً أنّ شعار

«يانصيب اللصوص» *Loteria Robadors* هذا لم يكن بالمقابل الأفضل اختياراً في العالم.

يبقى صحيحاً أنّ هذا النشاط الكازانوفي عاد علينا بثلاثين أورو (بعد أن تحقّقنا أنّ أيّاً من البطاقات لم تربَح، وهذا كان سيكون كارثة أو بمعنى أصحّ تفليسة)؛ نطرح منها بعض الأوروات بدلاً لطباعة مئة بطاقة بالألوان، والباقي يكفينا لشرب القهوة وتناول غداءٍ دسِمٍ أنا ومنير. وهذا ما حصل.

لكنّي تيقّنت أنّه شتّان ما بيني وبين كازانوفا.

كانت فترة انزواء بانتظار العنف: مرّ شهر أبريل، بين القراءة وبعض النزهات النادرة إلى الشاطئ (جنّة مسكونة بالبريطانيّات ذوات النهود الورديّة، والشماليّات الشقراوات بلون الرمل، والبرازيليّات بسترينغاتهنّ[٧٩] التي تأسر الألباب) والخيبات الكرويّة الفادحة بالنسبة لِرفاقي لكنّها لم تكن تؤثّر فيَّ كثيراً- كنت قابعاً في الرتابة، وأحاول قدر الإمكان البقاء متنبّهاً، وعدم مغادرة الحيّ كثيراً. يجب عدم السهو أو الغفلة. أوقِفَ منير لسوء حظّه في ساحة كتالونيا فيما كان يُحاول أن ينشل محفظة جيب أحد السيّاح. بالطبع، لم يكن جواز سفره في حوزته، وصرّح أنّه دون مأوى، وأنّه فلسطيني من غزّة، وهذا، بحسب رأيه يُكسبه تعاطف الشرطة ويجعل طرده أكثر صعوبة. أمضى يوماً في السجن ثمّ أطلِق صراحه مع تنويهٍ بالمثول أمام القاضي في اليوم التالي. وبالطبع لم يذهب قطّ- أراني التنويه، كان موجّهاً إلى منير عرفات. عندما سألته لماذا اختار اسماً مستعاراً مماثلاً، أجابني أنّه اسم العائلة الوحيد الفلسطيني الأصيل الذي أتى على ذهنه. ضحكنا كثيراً لهذه الخدعة

---

(٧٩) ج. سترينغ: سروال تحتاني قصير لا يستر إلا العضو التناسلي.

التي، بطبيعة الحال، لاحظها المترجم الفوري الذي أُحضر إلى المخفر، لكنّه كان رجلاً محترماً، بحسب قول منير، سوريّ الأصل، ولم يشِ به.»

فوجئ منير تماماً بما حصل له في المخفر إذ توقّعَ أن يُضرَبَ ولكن باستثناء بعض الصفعات المبرّرة وإهانتين أو ثلاث، كان رجال الشرطة أقرب إلى المدنيّين.

أضحى منير إذاً مثلي في الوقت الحاضر، هارباً من العدالة بشكلٍ مضاعف ومهاجراً سريّاً ونشّالاً محترفاً.

كان يدرك أنّه في المرّة المقبلة لن يخرج سالماً وبهذه الكلفة الزهيدة.

في ما عدا هذه التسليات القضائيّة، شغلني موضوع آخر، أكثر إلحاحاً وإنّما على صعيدٍ مختلف، وهو حالة جوديت التي راحت تزداد خطورة. امتنعت عن الطعام تقريباً وباتت تمضي نهاراتها في العتمة لأنّ الضوء، حسب قولها، يسبّب لها ألماً في الرأس. رَجّح الطبيب أن يكون السبب التهاب الجيوب الأنفيّة وحساسيّة على اللقاح تفسّر الاحتقان، وكلّ هذا متفاقم بسبب حالةٍ اكتئابيّة. أُتخِمَتْ بالأدوية من كلّ صنف وكانت تنام قسطاً كبيراً من النهار. فقدت قدرة التركيز على دروس العربيّة. كنت أكتفي إذاً بزياراتها والبقاء إلى جانبها ساعة أو ساعتين وأنا أقرأ على مسامعها بعض النصوص، وأروي لها قصّة أسفار ابن بطّوطة، وغالباً ما كانت تغفو على الكنبة، يهدهدها صوتي، ولا تستفيق إلاّ عندما أغادر. كانت تقول لي إنّها تَرى أحلاماً غريبة في أغلب الأحيان يخيّل إليها فيها أنّها استيقظت وتحاولُ عبثاً العودة إلى النوم، ويُطاردها هذا الهاجس حتّى تستفيق حقّاً وتتيقّن أنّ هذا الأرق كان حلماً.

أحزنُ كثيراً لدى فراق جوديت، أعاود دوماً الانحدار باتّجاه شارع اللصوص سيراً على الأقدام تجنّباً لتفتيش محتمل في المترو، وهو عالم ديماسي معادٍ، آهلٌ بالحرّاس والكلاب المكمّمة. يتعيَّن عليّ المسير لأتحرّر قليلاً من الحزن والألم اللذين تسبّبهما لي حالة جوديت، حتى لو لم يكن هناك شيء خطير بل فقط تعب عابر ناتج عن تضافر عوامل كثيرة كما يقول طبيبها. أشعر أنّ هذا المرض سافل وظالم لأنّه يحرمني من حضور جوديت الذي كان وحده يهمّني.

وفي الحال، استأنفت الكتابة- ألّفت قصائد سيّئة جدّاً إذا ما قارنتها بقصائد الشعراء الذين أتمثّل بهم، فمزّقتها في الحال، وهكذا كانت الكتابة محبطة مثلها مثل غياب جوديت المسجونة داخل وَسَنِها الأبديّ.

بدا العالم معلّقاً، متوقّفاً. وكنت أنتظر أن ينهار، أن يحصل شيء ما، إمّا دماره وسط ألسنة نيران الثورة، أو ضربة جديدة منَ القدَر.

غالباً ما كنت أتناول الغداء وحدي في المطعم المغربي الصغير في شارع اللصوص، حيث كان يخيّل أنّني في طنجة: الطعام نفسه، والخدّام أنفسهم، والألوان نفسها. ذكّرني بالمطعم الذي كان الشيخ نور الدين يصطحبنا لتناول الغداء فيه بعد صلاة الجمعة في المسجد، مع فارقٍ واحدٍ هو أنّني في الوقت الحاضر كنت أذهب إليه وحدي. في القاعة رجل وامرأة من مدمني الهيرويين يطلبان حساء لاثنين. كانا يجلسان جنباً إلى جنب، الكتف إلى الكتف ليتساندا، وكان يشقّ عليهما إنهاء الوجبة الوحيدة.

يملأني هذا المكان بالحنين فألوم نفسي في كلّ مرّة: لم آتِ

إلى برشلونة بهدف البكاء والتحسّر على مائدتي لدى تذكّري طنجة.
كنت أفكر في أمّي، وعائلتي، وبسّام، بالطبع.

تنبّهت إلى أنّني لم أعد أذهب غالباً إلى المسجد، فقط الجمعة ظهراً، وأيضاً، بين الفينة والأخرى. أحياناً كنت أقرأ القرآن وتفسيره، هذا صحيح، لكن أقلّ فأقلّ. يصعُبَ عليّ أن أستعيد الخشوع الذي تتطلّبه الصلاة. أشعر أنّني لم أعد مقبلاً على الله، وأنّني أؤدّي صلاتي حركيّاً. لكأنّ الإيمان جلد ميت سلخه عنّي كروز والقراءات. لم يتبقّ لي إلا الممارسة الدينيّة، وبدت مفرغة تماماً من أيّ معنى، ركعات شكليّة لا خشوع فيها.

أحياناً كنت أحلم بالذهاب إلى باريس أو البندقيّة. لو كان لديّ جواز سفر قانوني لذهبت في الحال إلى باريس لأشتري القصص البوليسيّة وأرى نهر السين؛ أو إلى البندقيّة لأزور مدينة كازانوفا مستعيداً أمكنة مجاناته، ومبحراً على الهور.

لم يتحدّث ابن بطّوطة في أيّ من أسفاره، عن جواز سفر أو أوراق ثبوتيّة أو تصريح بالأمان. بدا وكأنّه يسافر على هواه، ولا يخشى إلاّ قطّاع الطرق، كما كان سعدي البحّار يخشى القراصنة. كان مؤسفاً التفكير اليوم، أنّه بمجرّد أن تكون قاتلاً، سارقاً أو حتى عربيّاً، هذا يشكّل حائلاً من زيارة صاحبة السموّ البندقيّة أو باريس مدينة النور. فكّرت لِوَهلة أن أستخدم الشبكات السريّة في شارع اللصوص لكي أصنع هويّة جديدة، لكنّني كنت أعرف من خلال التجربة التي استخلصتها من الكتب أنّ صنع هويّة جديدة أمر في غاية الصعوبة ونادراً ما يتّصف بالفعاليّة، في أيّامنا هذه، إلا إذا اخترت جواز مرورٍ ليبيّاً أو سودانيّاً أو أثيوبياً الذي من دون اللصوق الجاف الذهبي البرّاق لتأشيرة المرور «الشينغين» لن يفيد بشيء.

لولا وجود جوديت، أعتقد أنّني كنت جازفت بكلّ شيء في سبيل كلّ شيء، ولعدت إلى ألجزيراس، وحاولت أن أجتاز سرّاً جمارك المرفأ لأعبر إلى الجهة الأخرى، وهذا ليس بالأمر الشائك، وحين أصبح في المغرب، لن يكون عليّ إلاّ أن أصلّي ألا يكون موظّفو الجمارك في الوطن الأم قد سمعوا بي فيسمحوا لي بالعودة إلى الحظيرة. وبعدئذٍ أستقرّ في طنجة مع مالي السريّ، ثمّ أعود إلى جنودي الموتى وإلى جان فرنسوا بوريلييه، بطل رقمنة النصوص. وبعد بضع سنوات بعد أن يُسقَطَ الحق عن جرائمي لتقادمه، وأجني ثروة على ظهر مليون وثلاثمئة ألف شعرانيّ قتيل في الحرب العالميّة الأولى، سأطلب تأشيرة مرور سياحيّة للذهاب إلى البندقيّة أو إلى باريس، وهذا كلّ ما في الأمر.

لكن، ما برح الأمل يحدوني بأن تُخرِجَ إحدى قبلاتي جوديت من مرضها، وأن تستيقظ يوماً وتقرّر أن تكون معي مجدّداً وطيلة الوقت. ومن ثمّ، فإنّه برغم الشروط المحدقة بشارع اللصوص، وبرغم بؤسه العميم، فإنّي لم أكن مغبوناً- تولّد لديّ فقط الشعور بأنّني متوقّف في محطّة عابرة، وأنّ الحياة الحقيقيّة لم تبدأ بعد فعلاً، كانت مُرجأة باستمرار إلى وقتٍ لاحق. كانت مؤجّلة في مركز نشر الفكر القرآني الذي التهمته ألسنة النيران؛ ومرجأة على متن «ابن بطوطة»، المركب الضائع؛ ومسوّفة عند كروز، حيث كنت كلباً بين الكلاب، ومعلّقة في برشلونة إلى رضى الأزمة وجوديت. كلّ ما أفعله الهروب إلى الأمام دوماً. ثمة حسابات لم تُحسَم بعد. واليوم، في صومعتي الصاخبة، صومعة دراويش اللصوص، وفيما كلّ شيءٍ يحترق في الخارج، في أوروبا، والعالم العربي، وفيما التهمت ألسنة النيران الكتب واجتاحنا الحقد مدمّراً

عالم الأمس بشراسة البهيمة، وفيما الكلاب تزمجر وتندفع لمهاجمة بعضها بعضاً متذابحة بضراوة، بدت لي الأسابيع الأخيرة في شارع اللصوص وكأنّها سعادة قاتمة، وكأنّها حدّ الموس الذي نجهل أيّ عنقٍ سيقطع: وكما يتعيَّن على البهلوانيّ أن يزدري إمكانيّة السقوط حتى يستطيع التركيز على خطواته، فينظر أمامه، ويحرّك برفقٍ العصا التي ستحميه منَ الهاوِيَة ويتقدّم نحو المجهول- مشيت دون أن أفكّر في القدَر الذي دفعني حتى برشلونة. وكحيوانٍ مكتمل الغريزة، كنت أستشعر العاصفة القادمة، من حولي، وفيّ، علماً أنّني تناسيتها لأحاول بشكلٍ أفضل اجتياز الفراغ.

إنّه الشيخ نور الدين الذي أخطرني بقدومه من خلال رسالة عاجلة. الحياة شيء مضحك، تدبير غامض، منطق لا رحمة فيه لأجل قدَرٍ عقيم. سيأتي لزيارتي. كان عليه المرور ببرشلونة من أجل اجتماع متعلّق بالتجارة والأعمال. كنت سعيداً، أعترف بذلك، لرؤيته من جديد، وقلقاً بعض الشيء أيضاً- ما برح صدى اعتداء مراكش يتردّد في الأرجاء بعد سنة من حدوثه. وأيضاً حريق مركز نشر الفكر القرآني. تلك أسئلة استعدتها مراراً وتكراراً- وفرغت تدريجيّاً من معناها.

كان الشيخ نور الدين جبّاراً- يختفي ساعة يشاء ويَعودُ ساعة يشاء، من السعوديّة أو من قطر، رجلاً أعزل فقد جمعيّته الدينيّة، دون مشاكل في جواز السفر وتأشيرة المرور والمال. أنيق دوماً مرتدِياً بذلة وقميصاً بيضاء، من دون ربطة عنق بالتأكيد، لحيته قصيرة مشذّبة كما يجب ويحمل حقيبة صغيرة سوداء. يتكلّم بهدوء ويبتسم حتّى أنّه يضحك أحياناً. يعرف صوته كيف ينتقل من لطف الأخ إلى صراخ المحارب. لا أزال أسمع صرخاته أحياناً في نومي، وخطبه عن معركة بدر: «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألفٍ منَ الملائكة مرْدفين». تشعر أنّه يستحضر القرآن

كلّه عن ظهر قلب: «ولقد نصركم الله بِبَدرٍ وأنتم أذلّة»، ويلتمع الكتاب الكريم في فمه ساطعاً بأنوار تلك الملائكة التي يعِد بها الرب. كان يروي لنا لساعات قصّة بلال[٨٠]، العبد المعذّب بسبب إيمانه والذي أصبح أوّل مؤذّن في الإسلام، وكيف أنّ صوته، صوته الفريد كان قادراً على أن يُبكي ساكني المدينة عندما يدعو إلى الصلاة- فتملأنا هذه الأخبار قوّة وفرحاً، أو غضباً، وفقاً لمواضيعها.

كان لقاء الشيخ نور الدين مجدّداً إشارة مميّزة. لكأنّ جزءاً منّي، ومن حياتي، وطفولتي يظهر من جديد في برشلونة. وبالرغم من الشكوك، والأسرار، والخجل المرتبط بحملة القارعين بالعصي الليليّة في طنجة، فإنّ نوراً ضئيلاً كان ينفذ إلى شارع النشّالين.

أخبرت كلّ هذا لمنير، دون أن أتطرّق إلى التفاصيل المزعجة. وحتّى بالنسبة له، هوَ الذي لم يكن متديّناً إطلاقاً، استطعت أن أنقل إليه بعضاً من طاقة الشيخ نور الدين، وراح يتشوّق للقائه. أملت في سرّي أن يكون هدف السفر افتتاح مكتب ومكتبة في برشلونة ويوكل إليّ الاهتمام بهما، كما سابقاً في طنجة، واعتقدت أنّ هذا يبرّر ربّما سبب معاودته الاتّصال بي. رحت أتخيّل مكتبة صغيرة في الرافال، وفيها كتب بالإسبانيّة والعربيّة، وحتّى الفرنسيّة، لمَ لا- كان الأمر أشبه بمعجزة؛ مكتبة مواردها الأساسيّة مؤلّفات وافدة من السعودية ولكنها مزوّدة أيضاً برَفٍّ أو رفّين للقصص البوليسيّة، وبجناحٍ تكريمي لكازانوفا، أي أنّه مكان يشبهني في النهاية. نعم، بالطبع

---

(٨٠) بلال بن رباح الحبشيّ صحابيّ كان عبداً فابتاعه أبو بكر الصديق وأعتقه وكان جميل الصوت فكلّفه النبي محمد بمهمّة الأذان.

كنت مهاجراً سريّاً ومطلوباً من الشرطة، ولكنّي في حلمي رأيتني أسجّل هذا المشروع الصغير باسم جوديت وأبقى هنا، لسنواتٍ وسط رائحة الكتب المميّزة، وسط الحبر، والغبار، والأفكار القديمة، واثقاً من أنّ الشرطة لا تهتمّ إلاّ قليلاً بالأشياء المكتوبة، وتترك، عموماً، أصحاب المكتبات وشأنهم، كما هي حال المكتبة التي أتردّد إليها حيث لا يزعجني أحد إلا فيما نَدر؛ والتي كانت المساحة الوحيدة للحريّة في الحي، حيث يأتي أحياناً حتّى حرّاس السجون ليتناقشوا قليلاً. فيها القليل من القرّاء، والكثير منَ الكتب. لا شكّ أنّ سجننا هوَ أبعد من أن يكون الأهمّ بين سجون إسبانيا المركزيّة، لكنّه دون شكّ أحد تلك السجون الأكثر عصريّة. من حولي الكلاب تتجوّل في الممرّات.

الحياة هي القبر، هي شارع اللصوص، آخر الطريق شمالاً، وعدٌ أجوف، كلمات فارغة.

تلازَم مجيء الشيخ نور الدين مع تشخيص الورم لدى جوديت. أعرب الطبيب عن ارتيابه بأنّ تكون أنواع الحساسيّة والتهاب الجيوب الأنفيّة التي تعاني منها أو الله يعلم أيّ اكتئاب، عوارضَ تُخفي مرضاً أخطر. دفع والداها ثمن السكانر من مالهما الخاصّ تجنّباً لبطء إجراءات الضمان الاجتماعي وظهرت النتيجة: شيء ما كان يتضخّم في جهة من دماغها. وَجَب أيضاً الانتظار لمعرفة ما إذا كان هذا «الشيء» قابلاً للمعالجة أو للجراحة، خبيثاً أو سليماً، هل كان هناك أمل أم أنّ تشخيص المرض يُقلّل من حظوظها في الحياة، كما يقول الأطبّاء دوماً- تلقّيت النبأ مثل صفعة. ومع ذلك فإن جوديت أعلنته لي بِرَويّة، وكأنّها كانت مهتمّة بي أكثر من اهتمامها بنفسها. وجدت أمّها مشقّة في حبس دموعها،

وبدت عيناها في زيغان مستمرّ. أمسكت جوديت الممدّدة على الكنبة يدي بلطف ورغبت في البكاء أنا نفسي، والصراخ، والصلاة، فكّرت، يا رب، لا تُمت جوديت من فضلك، لا يمكنك أخذ كلّ النساء اللواتي أحببتهنّ. عاودت التفكير في مريم، ربّما كنت أنا من ينقل إليهنّ مرض الموت. ترأّف بي يا ربّ، دَع جوديت تعيش. كنت لأقايض بسهولة حياتي التافهة مقابل حياتها، لكنّي كنت أعرف جيّداً أنّ المقايضة ليست حقيقيّة.

أثناء عودتي مررت لاستشارة الإنترنت. تصفّحت عشرات المواقع عن الأورام الدماغيّة، كان هنالك كلّ شيء، أوصاف مرعبة عن العوارض في بعض الحالات، وقصص جميلة عن الشفاء في حالات أخرى. قلت في نفسي، هذا مستحيل، جوديت في الثالثة والعشرين، والسرطانات الخطرة نادرة جداً في هذا العمر وفقاً لإحصاءات معيّنة. هذا أكيد، كلّ ذلك ليس إلاّ إنذاراً خاطئاً. وكنت مأخوذاً تماماً فوصلت متأخراً إلى موعدي مع نور الدين، قرب ساحة كتالونيا، مبهور الأنفاس متوتّراً، حزيناً، وقلقاً.

لم يتغير الشيخ، كان جالساً أمام طاولة على رصيف أحد المقاهي، بهيّ الطلعة، نبيلاً، أنيقاً. كان هناك شاب برفقته حليق الرأس ذا لحيةٍ سوداء. نهض لدى اقترابي منه وارتمى بين ذراعيّ: بسّام، بسّام، باسم الله ما شاء الله، أخذتني الفرحة. بسّام هذا بسّام إذاً. قال لي لخضر خويا، وشدّني إلى صدره وأوشكت أن أنسى إلقاء التحيّة على الشيخ نور الدين الذي كان ينظر إلى حرارة لقائنا ضاحكاً. قلت بسّام يا صديقي حتّى أمك لن تعرفك. أجابني وأنت بشعركَ الأبيض، تبدو وكأنّك أصبحت طحّاناً. تسرّني رؤيتك، الحمد لله.

منفعلاً بكلّيّتي عانقت الشيخ أيضاً- وفي الحال لم نعد نعرف ماذا نقول ومن أين نبدأ. جلس بسّام من جديد، لم يعد يبتسم. كانت لديه النظرة المشوّشة للعميان أو لبعض الحيوانات ذات العيون المرتعبة الهشّة التي تبدو دوماً وكأنّها تُحَدّق إلى البعيد. بدأ الشيخ نور الدين يسألني عن حياتي في برشلونة. كان يريد أن يعرف كيف وصلت إلى هنا. حدّثتهما قليلاً عن مغامراتي. بالطبع أخفيت عنهما نهاية فصل كروز. عندما ذكرت الحريق في مركز نشر الفكر القرآني، هزّ الشيخ رأسه بإيماءة استياءٍ وقرف: إنّه الانتقام الجبان قام به كافر، حثالة استغلّت غيابنا لتأتي على القرآن الكريم نفسه، يا للعار. أفلت هذه الجملة مصحوبة بنبراتٍ غاضبة في صوته- تذكّرت فجأة صاحب المكتبة ومفاجأته البكماء عندما رآني أدخل إلى دكّانه. ربّما انتقم لنفسه. كان هذا ممكناً. فالحياة ليست إلا سلسلة من الاستجابات الخاطئة وسوء الفهم.

كان بسّام يواصل صمته. يهزّ بين الفينة والأخرى رأسه متفحّصاً المارّة، ناظراً إلى سيقان الفتيات، وعيناه لا تزالان فارغتين.

كان لديّ جعبة مليئة بالأسئلة لبسّام ونور الدين- تجرّأتُ على طرح أوّل سؤال، ما الذي حدث، لماذا اختفيتم فجأة؟ دُهِش الشيخ، ألست أنت من اختفى يا بُنَي. عندما عدنا من ذاك الاجتماع في كازابلانكا اكتشفت أنّ مركزنا أُحرِق، وأنت لم تترك عنواناً. لا بل إنّنا اشتبهنا بأمرك لحين. ثم علمت من بسّام (حرّك رأسه قليلاً لدى سماعه اسمه وكأنّه ينهض من نومه) أنّك كنت على علاقة بفتاة إسبانيّة شابّة، وأنّك رحلت دون أن تترك أثراً، قال لي ذلك بنبرة لومٍ، ثم أضاف: لكنّها قصة قديمة، غفرنا لك.

كنت حائراً تمام الحيرة. عبثاً فتّشت في ذاكرتي عن ذكرى اجتماع في كازابلانكا. اعتذرت مع ذلك عن سوء الفهم هذا، قلت إنّني خفت بعد إعتداء مراكش وحادثة الحريق.

أومأ لي الشيخ بأن أطوي هذه الصفحة.

فهمت أنّني لن أعلم أكثر من ذلك.

سألت بسّام أين كان خلال كلّ هذا الوقت. نظر إليّ بعينيه الفارغتين، عيني الأعمى، عيني الكلب. أجابَ نور الدين بدلاً منه: كان برفقتي منصرِفاً إلى حسن إعداد نفسه.

هزّ بسّام رأسه.

ثم دعانا الشيخ إلى الغداء في مطعم لبناني قرب ساحة الجامعة. لَحِقَ بنا بسّام. كان طيفاً من خيال- أو ربّما كان منهكاً بسبب فرق الساعة، فكّرت.

استعاد قواه لدى رؤية الأكل: على الأقل لم يفقد شهيّته، وهذا طمأنني. التَهَمَ صحن حمص وسلطة وثلاثة سفود وكأنّ حياته متوقّفة على ما يلتهمه. ارتسمت ابتسامة غامضة على وجهه بين لقمتين.

أثناء الطعام، تحدّثنا في السياسة كالعادة، كما كنّا نفعل يوم كنّا في الجماعة؛ كان انتصار الإسلام في الانتخابات في تونس، ومصر، خبراً عظيماً. في سوريا، كان الشيخ نور الدين يتوقّع سقوطاً للنظام على المدى المتوسّط، إن شاء الله، بعد حربٍ دامية. الغريب أنّه لم يتحدّث عن المغرب وكأنّ هذا الميدان لم يعد يحاكي اهتماماته. سألته ما الذي جاء به إلى إسبانيا- أجابني، لا شيء خاصّاً. مجرّد اجتماع لمؤسّسات خيريّة، للمتصدّقين. حفل

عشاء في فندق فخم، مع لاعبين من فريق برشا، بمباردرة من ملكة إسبانيا.

كنت متفاجئاً: نور الدين في فندق فخم بصحبة أمراء لأجل سهرةٍ خيريّة.

أضاف مبتسماً: المؤسّسة التي أعمل لأجلها لديها كافة أنواع النشاطات.

سألت بسّام عن مدّة إقامته في برشلونة. هزّ رأسه وكأنّ سؤالي فاجأه ثم أجاب لا أعرف، لبضعة أيّام ربّما.

وكان هذا خبراً حسناً.

أقنعت بسّام أن يصرف النظر عن فندقه ويرافقني إلى شارع اللصوص- سيربح عن طريق الصداقة ما سيخسرَه عن طريق الرفاهيّة. شجّعه الشيخ نور الدين على ذلك. قال ضاحكاً: من الأفضل اكتشاف مدينة برفقة ساكنيها. كان يشقّ عليّ أن أتخيّل أنّه في هذا المساء نفسه سيكون وسط حشد من النبلاء والأثرياء في صالونات أنيقة حاملاً في يده كوب عصير برتقال، وسيصافحُ كلّ هؤلاء البوربونيّين[٨١]- هو مطارد الكفّار. الرجل الذي كان يلهب الحماسة فينا ويدفعنا إلى التمرّد، سيتناول العشاء ربّما على الطاولة نفسها لخوان كارلوس الذي تتحدّث عنه جميع الصحف؛ تميّز الملك مؤخّراً خلال رحلة صيد للفيلة في أفريقيا، وتناقلت مواقع الإنترنت صور العاهل بصحبة جسئيّ[٨٢] مقتول - بدا هذا المشهد وكأنّه من مرحلةٍ منصرِمَة وأعادني إلى مذكّرات كازانوفا. لكأنّ الأنظمة الملكيّة لا تستطيع أن تتخلّص من العنف والقسوة، لكأنّ القدر يدفعها إليها دفعاً: في شبابه قتل خوان كارلوس شقيقه

(٨١) أسرة البوربون التي حكمت فرنسا قديماً وأوروبا.

(٨٢) من فصيلة الجسئيات صفيقات الجلود كالفيل.

برصاصة طائشة عن طريق الصدفة. وأطلق حفيدَه لتوّه رصاصة في قدمه بحكم مصادفة سيّئة. ها إنّ فصيلة كاملة من الفيلة المقتولة تشهد على الشغف الملكي بالأسلحة الناريّة. على الأقل يزيده ملك المغرب فضلاً بتكتّمه.

كنت أتساءل ما هيَ القضيّة التي تبرّر سفر نور الدين من الخليج الفارسي إلى إسبانيا لحضور هذا العشاء الساهر الطالع لتوّه من القرن الثامن عشر. لم أجرؤ على طرح السؤال عليه.

أحضر لي بسّام معه وهذا يكفيني.

قرّرنا القيام بجولة قبل الذهاب إلى شارع اللصوص. أخذ بسّام يخرج من خدره ويكتشف المدينة، التي طالما حلم بها، متفحّصاً كلّ شيء بانتباه. كان ذاك الفظّ يقول: آه يا ابنة القحبة، يا ابنة القحبة أمام المحال المترفة، والجادات، والمباني. ويلتفت إلى الفتيات الممتطيات دراجة والمرتديات تنانير تتطاير وفق إيقاع الدوس على العجلات، وإلى المانيكانات في الواجهات والعابرات المتبرّجات، ويرفع رأسه ليعاين المباني العصريّة، ويهزّ رأسه غير مصدّق ما تراه عيناه من مظاهر الترف والحريّة هذه. كانت رؤيته تبهجني، حتى أنّني نسيت قليلاً مرض جوديت. كان بسّام يبثّ فيّ حماسه الطفوليّ القديم؛ ولا يتوقّف عن التعجّب قائلاً: شيء يأخذ بالعيون، يا للروعة، ما هذه الفتاة، يا ربّي، ما هذه الفتاة، يا للجمال، شيء يهبل، وكنت أجيبه: تمهّل لم ترَ شيئاً بعد يا صديقي، لم ترَ شيئاً، تمهّل. كنّا نصعد بهدوءٍ رامبلا كتالونيا، في ظلّ الأشجار. دعوته إلى فنجان قهوة على الرصيف لكي يتنعّم قدر ما يحلو له بالآنسات وعذوبة الربيع. شعرت أنّنا عدنا إلى الوراء، إلى زمن مراهقتنا المبارك، منتقلين إلى حلم بسّام عند تأمُّلنا

المضيق- حين كان يُحدّثني عن أنوار برشلونة، وفتيات برشلونة، وحانات برشلونة. شعرت عبر حضوره بأنّني في برشلونة، بأنّني في مكانٍ ما، وأنّني وصلت إلى المكان المنشود. لم يكن يتوقّف عن الضحك لنفسه وحيداً مثل طفل. وكانت فعلاً فرحة حقيقيّة أن أرى مجدّداً رأسه الضخم الملتحي يبتسم للعالم.

- حسناً، ألن تخبرني أين كنت طيلة هذا الوقت؟ وما هذه الرسائل التافهة التي كنت تبعثها لي؟

- ماذا؟ أوه. . . انْظُرْ إلى هذين النهدين. لا شيء. كنت في الشرق بصحبة نور الدين.

- لكن لماذا اختفيت هكذا؟ وماذا كنت تفعل في مراكش؟

- في مراكش؟ تقصد القول في كازابلانكا؟ انظر قليلاً إلى هاتين الساقين، إنّهما مذهلتان.

- لا، في مراكش، ألا تذكر يوم الاعتداء؟ جوديت رأتك هناك.

- اعتداء مراكش، نعم بالطبع أذكره. لم أعد أعرف. أعتقد أنّنا كنّا في طريقنا إلى الجنوب.

مستحيل اقتلاعه من تأمّله المارّة. بئس الأمر. سنتحدّث بالموضوع لاحقاً.

انطلقنا من جديد متّجهين إلى أسفل المدينة. ما إن ابتعدنا في المسير قليلاً حتى توقف بسّام قبالة واجهة صالة عرضٍ فنيّة، أمام صورة مترَين بثلاثة. كان المشهد غريباً: ثمانية أشخاص جالسين أمام طاولة تحفل بقوارير البيرة الفارغة، والأقداح القديمة التي بطل زمانها، وزجاجات النبيذ، وبقايا الطعام، والقصعات، والملاعق القذرة، وأوراق التغليف المدعوكة، والكحول، وكراتين عصير

الفواكه، ومنافض تفيض بالسجائر وأعواد ثقاب مشتعلة. كان هناك فتاتان واقفتان ترتديان حمّالة نهدين وفي يدهما لفافة حشيشة، وثلاثة شبّان عراة الصدر وبينهم واحد مشعر في خلفية الصورة يتسلّق كرسيّاً وهو مقطوع عند الكتفين، إلى اليمين ملتحٍ يحمل سيجارة في يده ويستدير برأسه إلى الآخرين مستغرقاً في تأمّل الكارثة، وقبالته، عند أقصى الشمال، رجل عارٍ يبتسم للكاميرا، معتمراً قبعة وإلى جانبه رجل وامرأة متأنّقان- المرأة ترتدي سترة وقميصاً فاتح اللون وصدريّة سوداء- يبدوان في غاية السُّكْر لدرجة أنهما يتساندان، الكتف إلى الكتف، كمدمني شارع اللصوص. في عمق الصورة، إلى اليسار، زجاج ينفذ منه نور برتقالي، وكأنّه ينبعث من مشهدٍ قياميّ، ونجهل ما إذا كان صادراً عن مغيب الشمس، أم طلوع النهار، أم عن حبابة كهربائيّة كتلك التي في بئر الدرج. وتنبعث من المجموع ضمن هذه الأبعاد الهائلة قوّة خارقة. ثمة حركة تصعد بخطّ منحرف بدءاً من ابتسامة الرجل المرتدي قبعة حتى صدر الرجل المشعر في الجهة المقابلة. كانت الشعيرات تلتمع على البشرات الشاحبة، وعلب البيرة الحمراء تنفجر على الطاولة؛ التعب بادٍ على وجه الفتاتين المرتديتين حمّالة نهدين مخرّمة بالدانتيلا، نهودهما ثقيلة، ولديهنّ حويّات انتفاخٍ دهنيّ على الخصر. أمّا الشقراء المتأنّقة فتغمض عينيها المطوّقتين بالهالات الزرقاء، وشعرها الطويل الباهت يتمرّغ بقذارات الطاولة، وأعقاب السجائر، والمقالي القديمة، وبقع النبيذ.

دنا بسّام من الصورة ليراقب عن كثب الأشخاص ثمّ هزّ رأسه متعجّباً متمتماً كلماتٍ غير مفهومة ثم تراجع إلى الخلف ليتأمّل الصورة بأكملها ثم التفت نحوي بنظراتٍ مستفهمة. سألني أتعرف

ما هذه الصورة؟ هل هي دعاية؟ أجبت مازحاً لا أعتقد، هذا فنّ يا صديقي. لم يضحك بسّام، بدا مرتعِباً، قال لي، لخضر إذا بقيت هنا فستنتهي هكذا مثلهم. ما قاله زاد من ضحكي. قلت بسّام أنت أبله تماماً، قال لي ألا تَرى، هذا استهزاء بسورة المائدة: «قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا». هذه حقارة. بدا في منتهى الجديّة، مرتعباً وغاضباً في الوقت نفسه.

لم أكن أفهم الكثير في الفنّ، لكن، ما عدا المائدة، بالطبع، صعب عليّ رؤية شيءٍ ما دينيّ في هذه الصورة. على العكس كانت منحطّة تماماً وداعرة وحقيرة.

- يا عزيزي، أنت تهذي، هيّا تعال.

لكنّه لم يستطع أن يشيح بعينيه عن الصورة. كان يحدّق إلى الفتاتين في ملابسهما الداخليّة، وإلى زجاجات الخمر والرجل ذي القبّعة بنظراتٍ حاقدة- لو أنّه استطاع لما توانى عن تحطيم الواجهة على الأرجح.

- هل تريد شراءها، هل هذا ما تريده؟ أتريد أن أسألهم ما إذا كانوا يستطيعون أن يصنعوا لك نسخة مصغّرة عنها وتأخذها معك إلى المنزل؟ هل أصوّرها لك بواسطة هاتفي؟

نظر إليّ نظراتٍ تتطاير شرراً. هذه الصورة إهانة لله، هذه البلاد إهانة لله. رفع عينيه نحو السماء.

- هيّا، تعال، نكمل سيرنا.

بدأت أمشي ولحقني في النهاية وهو يزبد ويرعد.

أعرف أين يجب اصطحابه ليخرج من هذه الحالة. وبئس المخاطر التي تترصّدني في ركوب باصات النقل المشترك. ركبنا

في باص متّجه إلى برشلونة- عندما سألني بسّام أين نحن ذاهبون، أجبته إلى الجنّة: هذا لم يضحكه إطلاقاً. أجابني بلهجة صارمة: أوقف تجديفك، ثم عاد إلى خرسه الذي لازَمَه في بداية بعد الظهر.

حين وصلنا، لم يستطع أن يكبت صفّارة إعجاب أمام الفندق الهائل المبنيّ على شكل شراع، في أقصى السدّ التي كانت واجهاته تلتمع في الشمس، والتليفريك الذي يجتاز المرفأ يميناً ثم يضيع في خضار تلة مونتجويك.

- انتظر، لم تر شيئاً بعد.

في أيّام السبت، أعرف أنّ الشاطئ سيكون غاصّاً بالناس. خلعت حذائي وجذبت بسّام إلى البحر.

- ماذا تفعل، لن يذهب بك الأمر إلى حدّ السباحة؟

تقدّمته على الرمل الحارق. كان الضوء مبهراً، ورغم المساء، لم تكن الشمس قد نزلت بعد في البحر هناك غرباً، خلف شارع اللصوص. كنت أعرف، وأنا أشقّ طريقي أنني سأفوّت عليّ رؤية وجه بسّام وسماع هتافاته المندهشة؛ كانت الأجساد على الشاطئ متلاصقة لدرجة أنّه تعيَّن علينا التقدّم الواحد خلف الآخر بين النهود العارية والسيقان المدهونة بالزيت. وجدت فسحة خالية على بعد عشرة أمتار من الماء. ارتميت أرضاً. جلس بسام القرفصاء، قبالة البحر. قلت هنا بيت القصيد. التفتْ وانظرْ.

أهدَيته بسخاء أجمل مجموعة مؤخّرات على الأرض. كانت الفتيات متمدّدات في الاتجاه نفسه، مستفيدات من الانحناءة الخفيفة للشاطئ، رافعات رؤوسهن إلى أعلى المنحدر، مستلقيات على بطونهنّ في الغالب ولكن أحياناً على ظهورهنّ، عاريات الصدر أو

مرتديات حمّالة نهدين، بعضهنّ في السترينغ، وبعضهنّ الآخر في مايوهات محتشمة من قطعة واحدة. . . انبسط قوس قزح كامل من الفتيات على مرمى من أنظارنا- بيضاوات كالحليب الذي سيستغني عن قشدته؛ أو ورديّات يضعن القبّعات لحماية وجوههن؛ منهنّ من لوّحتهن الشمس قليلاً، ومنهنّ المسمرّات البرونزيات، والسوداوات؛ وتدرّج من المؤخّرات والعانات المحدّبة في ملابس السباحة، ونهود من كلّ الأشكال والألوان. تمدّدت على الرمل ويداي تحت ذقني: على مسافة متر منّي فخذان منفرجتان قليلاً على منشفة متعدّدة الألوان، فتاة شماليّة بدأت مؤخّرتها الكاملة الاستدارة تتوهّج على جانبي المايو- كان بالإمكان تخيّل عضوِها الذي يغضّن القماش بشكلٍ خفيف. كانت قدماها ساحرتين، وأصابعها مغروزة جيّداً في الرمل. شعرت أنّ رأسي بين ساقيها وتساءلت ما إذا كان لنظراتي تأثير ما على هذا الفرج القريب للغاية، تساءلت إلى أين سأصل في حال حدّقت إليه مطوّلاً مرتدياً نظارات عدستهما مكبّرة، محاولاً إثارته وإشعاله كما تشعل الشمس القشّ من وهج شعاعها. وأشحت فجأة بنظري بفعل ارتكاسة بلهاء- إلا إذا كان أودين[٨٣] زوّد مخلوقاته بقدرات غير مسبوقة، كانت العين الوحيدة التي تراقبني خلف البوليستر الأحمر القاني عمياء.

خرجت من تأمّلي: كان بسّام يبتسم بسذاجة، جالساً القرفصاء ويداه على ركبتيه، ويجول الشاطئ بنظره وكأنّه منارة. فوق الرصيف مرّ المتزحلقون على ألواحهم، وراكبو الدرّاجات. كان

---

(٨٣) أودين: كبير الآلهة في الميتولوجيا النورديّة، تخلّى عن احد عينيه ليحصد حكمة العصور.

الباعة الجوّالون يذرعون الرمل، على حافة الماء، حاملين تنك البيرة والصودا، وكان بعضهم يرسمون وشوماً بالحنّة، ويبيعون حليّاً رخيصة، ونظارات شمسيّة، وملصقات لفريق برشا، وكاسكيتات، ومناديل، ومناشف للحمام، وتعاويذ أفريقيّة، ومعجّنات، ويقدّمون تدليكاً لأخمص القدم، أو كلّ ذلك معاً، وكان مستحيلاً البقاء أكثر من خمس دقائق قرب البحر دون أن يستفيد أحد من جمودك محاولاً أن يبيعك شيئاً ما- كانت هذه المئات من الأشخاص المتمدّدين يشكّلون مخزوناً لامتناهياً من الزبائن المحتملين الذين خبلتهم الشمس. نظر بسّام إلى هذا كلّه، إلى كلّ هذه المؤخّرات والنهود، وكلّ هؤلاء السنغاليّين الذين يحملون بضائعهم، والهيبيّين الجدد الذين يمرّون على الرصيف. شمالاً، كان الفندق الهائل الباهر *Hôtel Vela* يظلّل كلّ هؤلاء الناس بشراعه الزجاجي والفولاذي. يميناً، عند الطرف الآخر للمنتزه، بالقرب من المرفأ الأولمبي، حوتٌ من المعدن المنصهر بدا ذائباً على الشاطئ، بين برج *Mapfre* وفندق *Arts*. في البعيد مداخن محطة بادالونا الحراريّة تغيم في هالة من التلوّث، خلف صفائح الإسمنت الضبابيّة لفوروم الثقافات.

فكّرت فجأة في جوديت، في هذا الورم، في ظلم الجسد هذا. كان هذا العجز مُرّاً مثل سُمّ كروز.

بقينا طويلاً مستغرقين في جمال المدينة، في البحر اللامتناهي الذي كانت الأشرعة تكسوه بالزبد الأبيض كصوف الأغنام حتى اختفت الشمس خلف مونتجيوك وارتدت المبرنزات ملابسهنّ الواحدة تلو الأخرى؛ كان بعضهنّ يضعن فقط ثوباً فوق المايو. وأخريات، أكثر أناقة وأكبر سنّاً أو أكثر بورجوازيّة يشرعن في ارتداء

ملابسهنّ ببطء محتجبات خلف منشفة. بالإمكان تقدير ملابسهنّ الداخليّة المقدّمة بيد الزوج المحسن أو بيد الصديقة. عند ارتدائهنّ سراويلهنّ، يبقين الوشاح على صدورهنّ ويقفن على ساقٍ واحدة فيفقدن توازنهنّ باديات كعصافير غريبة خرقاء. هبّ نسيم خفيف. قلت لبسّام آن أوان العودة إلى شارع اللصوص، سيراً على الأقدام هذه المرّة. تنفّض لينزع عنه الرمل وبدأ يمشي، على غير هدى- منذ وصولنا إلى الشاطئ لم يتلفّظ بكلمة واحدة، لدرجة أنّني اعتقدته غفا؛ كان جالساً القرفصاء وكأنّه بوذا المتأمّل.

كذلك بقيَ صامتاً أيضاً على طريق العودة، محدّقاً إلى الطريق المرصوفة بالحصباء، خافض الرأس، غير رافعه إلاّ للتأكّد من أنّي لا أزال قربه.

دخلنا إلى رافال عبر الأرسينال، بوّابة الحيّ لجهة البحر، ومن ثم عاودنا الصعود حتى سانت بو والرامبلا. بدا بسّام فجأةً أكثر اهتماماً. كان الباكستانيّون يتنزّهون جماعاتٍ صغيرة، والعرب يتجادلون بحماسةٍ أمام الحانات التي تقدّم السندويشات، والأطفال يلعبون بالقرب من الهرّ المعدنيّ العملاق متعلّقين بشاربيه الفولاذيّين بوقاحة ويحاولون أن يسوقوه وكأنّه فيل، جاثمين بين أذنيه. فكّرت أن أدعو بسّام للعشاء في المطعم المغربي في شارع اللصوص، استذكاراً لطنجة والأيّام الخوالي- لكن قبل كلّ شيء يجب أن يصعد إلى المنزل ليضع حقيبته بعد أن جرّها معه طيلة ما بعد الظهر دون اعتراض. كانت حقيبة سفرٍ من القماش مزوّدة بمقبضين من الجلد. لا أعرف لماذا ذكّرتني هذه الحقيبة باعتداء مراكش. أيقنت أنّي لا أعرف سبب مجيء بسّام إلى برشلونة. ولا وجهة رحيله، ولا بالضبط مكان قدومه.

عند زاوية شارع روبادورس، عند منعطف مسجد طارق بن زياد كانت عاهرتان سوداوان تسندان مؤخّرتيهما إلى أعمدة التوقّف مرتديتين تنورّتين قصيرتين من الجلد الأزرق الاصطناعي، وكعوباً عالية وقمصاناً دون أكمام ونهودهنّ نصف مكشوفة.

بدا بسّام وكأنّه يصطدم بحائطٍ غير مرئي لدى رؤيتهما، فانتقل إلى الرصيف الآخر.

أضحَكه مدخل المبنى حيث أسكن. أخبرني يا عزيزي ما هي درجة فندقك. فندق فخم حقّاً يا خويا. حتى عندنا في المغرب لا وجود لفنادق مهترئة على هذه الشاكلة لا سمح الله.

لم أجب. رجوت فقط ألا نلتقي بجرذٍ متسكّع.

واستضفت بسّام في شقتنا كما يليق بآداب الضيافة. عرّفته على منير، الذي كان يحكّ بهدوء أصابع قدميه برأس سكّينه أمام التلفزيون- وجّه بسام إليه الكلام بالكاد. ألقى التحيّة من أعلى شفتيه، مجرّد عبارة فارغة وهو يضع يده على صدره ونظراته بعيدة. كان منير يتحرّاني بنظرته. قلت، إنّه صديق الطفولة. سينام على الكنبة لبضعة أيّام.

جال بسّام ثلاث مرات في الشقة وحطّ على الشرفة مراقباً الشارع.

اقترحت عليه الذهاب لتناول بعض الطعام. فوافق فوراً.

لدى خروجنا صادفنا سكّيرين يتبوّلان بوفرة على الواجهة، مثيرين زعيق المتسوّلين الذين ينتظرون فتح الإنجيليّين أبوابهم للأناشيد والوجبات الخفيفة.

كان اليوم سبتاً ونشاط العاهرات في ذروته عند المنعطف. كان

تاجران للمخدّرات أو ثلاثة يحومون في المساء. وكان مدمن هيرويين يفتقد جرعته متقيّئاً دفعة من مرارته الصفراء عند أسفل المصابيح ملطّخاً صرصورين ضخمين، وكأنّهما ضفدعان، خرجا متكاسلين من المطْعم المجاور.

كانت الخمّارة الصغيرة فارغة تقريباً- حيّيْت بحرارة أصحاب المطعم وعرّفتهم على بسّام: صديق الطفولة من طنجة. فرحّبوا به في برشلونة. جلسنا أمام طاولة على حِدَة في آخر القاعة. كانت قناة الجزيرة تبثّ بشكلٍ متلاحق صوَراً عن المجازر المختلفة، في سوريا أو في فلسطين، تقطعها تظاهرات عنيفة في اليونان أو إسبانيا.

- أمر ظريف أن تكون هنا.

كان مستعجلاً على طلب العشاء.

أعادت فكرة الطعام المغربي الابتسامة إلى وجه بسّام. وأعادني وجوده قبالتي كما في السابق إلى طنجة، ومريم. لم أكن أعرف كيف أبداً. تحت الطاولة، كانت فخذي تتحرّك بعصبيّة.

- والدتك أعطتني صدفة رسالة قديمة منك، وفي داخلها رسالة مريم. كان بإمكانك أن تحدّثني عنها.

أصيب باندهاش كبير فجأةً، وأخذ يزيغ بعينيه بجنون. لم يكن يتوقّع كلّ هذا. وأخيراً قال:

- خفت من أن أؤذيك. عندما عدت، لم أجرؤ على مصارحتك. على أيّة حال كان الأوان فات. كان عليّ أن أمزّقها، حتى لا تعرف أبداً.

راح ينظر إلى الشرشف.

قلت ببلاهة:

- لا خفيّ إلا سيُعلم يوماً. وخجلت من تذكّر مريم هكذا، من خيانتها وكأنّ موتها خبر تافه، من قبيل نشرة الطقس أو نتائج «يانصيب اللصوص».

- هل الطاجن هنا لذيذ؟

- ألذّ من طاجن بلادك، يا عاهر.

أضحكه كلامي.

- لكنّه ليس بهذه الصعوبة، كما تعرف.

كانت حصص الطعام هائلة، على الطريقة المغربيّة. انقضّ بسّام على الطعام بسرعة.

قلت:

- جوديت مريضة.

نظرَ إليّ برهَة، بين لقمتين دون أن يفهم. لم أكن أريد أن أشرح له أكثر. كنت راغباً في أن أروي له بالتفاصيل رحلتي على متن «ابن بطوطة» في مرفأ ألجزيراس، وعن كروز، والجثث، واحتضار كروز الذي احتفظت بسرّه طويلاً.

- وماذا فعلت طيلة هذا الوقت؟

ردّدت السؤال ثلاث مرّات أو أربعاً، على إيقاع ملعقة الطعام التي يأكل بها؛ جرع نصف قنينة الكوكاكولا وقال في النهاية: لا شيء خاصّاً، لا تطرح عليّ أسئلة بعد، ومن ثمّ عاد إلى الازدراد المنتظم للخضار، والقضم النهم لعظام الدجاج؛ كان لا يزال جائعاً فأمر بإحضار طبقٍ من الأرزّ بالفواكه المجفّفة. رفعت رأسي نحو التلفزيون، بشكلٍ ارتكاسي. أين ذهب يا تُرى، إلى اليمن، أم أفغانستان، إلى مالي، أو ربّما سوريا، من يَدري، هنالك أمكنة

كثيرة يمكنه القتال فيها، في سبيل أيّ قضيّة كانت، قضية الله ولا شك، وهي القضيّة الجوهريّة. شقّ عليّ تصوّر بسّام يتقدّم في أرض الصحراء الوعرة المشتعلة، والبندقيّة في يده- من الناحية الجسديّة، لم يتغيّر كثيراً، ربّما كان أكثر نحولاً بقليل، ولكن لا شيء لافتاً للنظر ما إن تعتاد على رؤية جمجمته الحليقة. كان هوَ نفسه، هو نفسه ولكن أكثر صمتاً وتوتّراً، وعجزاً: لكأنّ كل ذلك من ضروب الخيال. نظراته ككلب مضروب عادت لتنصبّ على الصحن أمامه. هل كان يفكّر في الحرب، لا، لا بدّ أنّه يكتفي بمضغ الطعام وجمجمته فارغة.

عاد إلى ذهني اسم ذاك الفرنسي الطويل القامة قاتل الأطفال اليهود في تولوز. من المستحيل أن يقترف بسّام فعلة جبانة إلى هذا الحدّ- تخيّلت لِبرهة لو أنّ صحافياً سألني عنه لأجبته: كان شخصاً ودوداً، لا بل ظريفاً ويحبّ النظر إلى الفتيات والأكل بشراهة. فيما لو كان لا يزال هوَ نفسه.

- كنت أنت في طنجة، في مقهى الحافة؟

رفع رأسه عن صحنه، وتفرّس بعينيّ بعينيه الفارغتين، أشحت بنظري.

لم أعد راغباً في معرفة ذلك.

لم أعد راغباً في معرفة أيّ حرب هيَ حربه. لم أكن راغباً أن أعرف كذبه أو حقيقته.

أعدت التفكير من جديد في كروز حين يكون مأخوذاً بسواطير الجهاديّين أمام شاشته.

طرحت سؤالاً أخيراً:

- ماذا جئت تفعل هنا؟

فجأة، اتّشح وجهه بتعبٍ كبير أو حزن كبير أو استخفاف كبير.

- لا شيء خاصّاً يا خويا. رؤيتك. رؤية برشلونة.

مستحيل معرفة ما إذا كان مخدوشاً بشكوكي أم أنّ قدره بالذات يحزنه وكأنّه مرضٌ عضال.

٠

كنت أكابد بُعد الصداقة كبُعد الحبّ. كان بسّام يبتعد؛ وكنت أبتعد أيضاً، على الأرجح- لم أعد ذاك الطفل الساذج في طنجة، المفعم بالأحلام السخيفة. كنت في طريقي إلى سجني، وقبلئذٍ كنت حبيس برجي العاجيّ من الكتب، المكان الوحيد على الأرض حيث يحلو لي العيش. وكانت جوديت تنأى في المرض. استلزمني جهد خارق للذهاب إلى مستشفى «كلينيك» حيث كانت تُعالج. كانت رائحة الأروقة، بالإضافة إلى الجفاء المتخابث الذي يظهره الموظفون، والصمت الكاذب لهذه الغرف الضاجّة سرّاً بالموت، كلّ ذلك يثير فيّ قلقاً فظيعاً، ورهيباً. عادت إلى ذاكرتي مشرحة كروز الصغيرة، لم تعد الجثث تفارقني. رأيت المستشفى مصنعاً هائلاً للحم الخامد: نساء ورجال يدخلون من البوابّة الكبيرة ثم يخرجون مجدّداً من الباب الخلفي، كلاباً منهكة يجرّونها لحرقِها في مكان أبعد قليلاً. لم أكن أريد لجوديت أن تموت، هذا مستحيل. كانت تتقاسم غرفتها مع سيّدة في الخمسين من عمرها تملك فصيلة كاملة من النّدابات عند سريرها. وسرعان ما نُقِلت السيّدة إلى قسم آخر من المبنى. في المستشفى، يجب أن يكون المريض محتضراً للفوز بغرفة إفرادية وتفادي أن تثبط حشرجات احتضاره ونحيب أفراد عائلته من عزيمة المريض المجاور الذي لا يزال يناضل للبقاء

على قيد الحياة- وحتّى لو كان ورم جوديت سالماً، وجب عليها الخضوع لسلسلة من العلاجات قبل إجراء العملية بحدّ ذاتها. ولو لم أكن أزداد اقتناعاً بظلم الله لكنت شرعت في الصلاة مجدّداً، ظلم الله الأشبه بغياب. وبرغم كلّ شيء ما برحت جوديت مرتفعة المعنويّات، يحدوها الأمل، وأظهر الأطباء تفاؤلهم. وحدها والدتها نوريا بدا عليها أنّها تتقدّم في السنّ بشكلٍ واضح مع كلّ زيارة أقوم بها. لم تعد تفارق غرفة ابنتها تقريباً؛ تستقبل الزوّار، وتقدّم الشروح عن تطوّر المرض وكأنّها هي نفسها مصابة به. كانت جوديت طريحة الفراش أحياناً وجالسة على الكنبة أحياناً أخرى. كنت أعودها ربع ساعة ثم أغادر. كنّا نتحدّث بتواتر، عن الزمن الراهن، والحالة في العالم العربي، والحرب في سوريا، وعن ذكرياتنا أيضاً- في طنجة وتونس. وكانت معاودة التفكير في هذه المسرّات المولّية تستدعي رجفة غريبة في صوتي، وارتعاشاً في عينيّ، فأفضّل الرحيل والحالة هذهِ، أحيّي نوريا وأقبّل برفق جوديت التي تضمّني بشدّة إلى ذراعيها. ثم أسلك من جديد الأروقة التي تفوح منها رائحة الموت النتنة، بين الممرّضات والمرضى المحقونين بالمصل الذين كانوا يتسكّعون، أو ينزلون لتدخين سيجارة في الفناء الخارجي. فرقة كاملة من الأشخاص المرتدين قميص النوم، يتّكئ كلّ واحدٍ منهم على عموده المزوّد بقنينة من زجاج يغور قسطلها في أوردتهم، في المعصم أو تحت المرفق. كانوا يدخّنون متجاذبين أطراف الحديث، برفقة الممرّضات أو بعض الأطباء اللطفاء. كان هذا مهرجان الضمادات، والجروح، والقثاطر[٨٤] المتدلّية، والقمصان الخضراء.

(٨٤) ج. قثطار والقثطار أنبوب يستخدم لإدخال أدوات جراحية متعدّدة أو مواد علاجيّة أو سحب دم.

عندئذٍ كنت أولي الفرار، أفرّ بعيداً وأحلم بأن أتمكّن من الذهاب بجوديت إلى غرفة آمنة في شارع اللصوص، وببسّام الذي كان يدور في المكان نفسه، دون محقنة في أوردته، بين المسجد، والمطعم المغربي، وسارقي الدراجات، والعواهر اللواتي كان يراقبهنّ عن بعد، مثل حيوانات جاذبة وغريبة، مثل فيلة ملك إسبانيا. كان لديّ حديقة الحيوانات خاصّتي في المنزل حيث بسّام ومنير يكره أحدهما الآخر. كان كلّ شيء يُباعد بينهما على الصعيدين العقائدي والشخصي. لا يرى منير في بسّام إلا الإسلاميّ الضيّق الأفق، والصامت، والمتوحّش. وبسّام يكره منير لأنّه فاشل وسارق وكافر. كان كلاهما مُحقّاً في معنى ما. ظننت أنّ بإمكانهما أن يتقاربا في أمورٍ أخرى، في حبّ الفتيات، وكرة القدم، والحياة، لكن لا، لا شيء ينفع. لم يكن أحدهما يوجه الكلام للآخر إلا مجبراً ومكرهاً فيما منير يسألني كلّ يوم أو تقريباً كلّ يوم متى سيرحَل بسّام.

كانت الحياة تترنّح وكنت أشعر بترنّحها. بسّام يغرق في الصلاة والانتظار. وجوديت تنتظر الخضوع للجراحة بين يومٍ وآخر. والأزمة تسرّع إيقاع الإضرابات والتظاهرات وصخب طائرات الهيليكوبتر. والقيظ الأوّل لنهاية الربيع يثير جنون المدمنين والفقراء والمعتوهين. وفي كلّ يوم، تزهر جثث جديدة في مكان ما، أو يعلن مصرف إفلاسه، أو تنتزع كارثة خرقة أخرى من هذا العالم الممزّق، أو ربّما كنت أنا من تسوّله نفسه اليوم إعادة قراءة هذه الأحداث على ضوء ما تبعها، ويفكّر أنّ الأسوأ آتٍ، أن الأسوأ وقع- كان كلّ شيء يتراقص أمام عينيّ، جوديت في المستشفى، بسّام في مسجد طارق بن زياد، مريم في القبر، كان العالم يُطالب بشيءٍ ما، بحركة، بتغيير، بخطوة إضافيّة نحو القدر؛

كنت أستشعر أنّه يجب عليّ عمّا قريب اختيار معسكري، أنّه بين يومٍ وآخر يجب اختيار معسكري، وأنه يحقّ لي أن أتمرّد، أن أقوم لمرّة واحدة لا غير بحركة واحدة، حركة حقيقيّة حاسمة. وبالطبع من السهل التفكير في ذلك اليوم، هنا من مكتبة سجني، مُحاطاً بيقين الكتب كلّه، بمئات النصوص، بالقوّة التي تمدّني بها قراءاتي، لأنّ رجل الأمس اختفى، لخضر شارع اللصوص اختفى، وتحوّل، ويسعى لأن يعيد لأفعاله معناها المفقود؛ لخضر يفكّر، أنا أفكّر، لكنّي أدور في مكاني داخل سجني ولن أستطيع أبداً أن أستعيد ذاك الذي كنته من قبل، عشيق مريم، وابن أمي، وابن طنجة، وصديق بسّام. الحياة مرّت مذ ذاك. الله تخلّى عن مهمّته، والوعي استعلى، ومعه الهويّة- أنا ثمرة ما قرأته، أنا ثمرة ما رأيته، في داخلي العربيّة والإسبانيّة والفرنسيّة بأقدارٍ متساوية. تشظّيت في هذه المرايا حتى الضياع أو إعادة بناء النفس، كنت أقول لجوديت، وكنت مخطئاً، ليس بوسعنا العيش دون الحبّ، الحبّ كتاب بالزائد، مرآة بالزائد، دمغة على طاولتنا الشمعيّة، آثار على أيدينا، خطوط حياة، بصمات تظهر بعد حدوث الواقِعَة، وانتهاء اللعبة- أجد لذّة في رؤية جوديت من جديد، تأتي إلى هنا مرّة في الأسبوع، ونتحدّث طويلاً، ونتبادل رسائل طويلة على الإنترنت أحدّثها فيها عن الأدب العربي، والجمال الذي لا مثيل له لابن زيدون، والجاحظ العظيم، والسيّاب الحزين الذي قضى بمرض غريبٍ لا يموت به إلا الشعراء، وأعرف أنّ جوديت لا تزورني ولا تكتب لي إلا وفاءً لما كنّاه، في ذاك الفندق في طنجة، وتلك الشقة في تونس، وكأنّهما وُجدا لنا وحدنا. غالباً ما أفكّر في قصّة حسن المجنون هذه التي يرويها ابن بطوطة أثناء زيارته إلى مكّة- لولا مغبّة

الطواف إلى الأبد لكنت وددت أن يحصل لي ما حصل لحسن المجنون فأعود خمسة عشر يوماً عند أمي، أو إلى الماضي لأحيا من جديد الأسابيع التي أمضيتها برفقة جوديت في طنجة أو في تونس. يوماً ما سيعود زمن المجانين والمتسوّلين العباقرة، يومَ يجفّ النفط وتعود مكّة من جديد محجّة على سفر شهرٍ ركوباً على ظهر حصان وعلى متن شراع. ذات يوم مجيد، حين أخرج إلى الشمس الجديدة، وأوقف دوراناتي الصمّاء مستعيداً ذراعي جوديت.

كان بسّام هو أيضاً يدور في مكانه. لم يعد يتكلّم تقريباً. كان فقط يفتح عينيه وفمه عندما تنفرج ساقا ماريا على عتبة منزلها عند مدخل شارع اللصوص، فيمكث هناك ثلاث ثوانٍ أو خمساً أو عشراً لا بل خمس عشرة ثانية أبديّة، منذهلاً، فاغراً فمه مثل مجنون ونظره هائم بين فخذيها. وكانت ماريا تجد نفسها مجبرة على الهزء به أو شتمه فيمضي في سبيله أخيراً وهو يهمهم. عبثاً قلت له إنّه ليس من الصواب البقاء هنا هكذا منذهلاً وإنّه يستطيع ببساطة أن ينفق بعض الأوروات ويصعد معها. وعندئذٍ سيَرى ويلمس عن كثب ويولج عضوه وينتشي، وهذا كلّ ما يجدر به فعله بكلّ بساطة. لكنّه يرفض ويهزّ رأسه، مثل طفلٍ يباغَت وهو يضع يده خلسة في حقّ المربى، أو كأنّه رأى الشيطان. ويقول لي لا، لا، لخضر يا خويا، نحن لا ندفع مالاً لقاء هذه الممارسات. وكنت متّفقاً معه تقريباً، نعم لا ندفع مالاً، ليس حبّاً بالمال، بل لأجل الذكرى الحزينة لرائحة موت زهرة، عاهرة طنجة الصغيرة، التي لا يعرفها بسّام. عندئذٍ كان بسّام يقصد المطعم لِيَلتَهِمَ الطاجن أو سفود اللحم، ثم يذهب إلى المسجد واضعاً يديه في جيوبه،

شاتماً المدمنين واللصوص، رانياً إلى العاهرات الزنجيّات بمزيجٍ من الاحتقار والرغبة، ومحاولاً نسيانهنّ بالوضوء والصلاة والتحدّث إلى الباكستانيّين، أصدقائه، كما يقول، وهم دوماً أنفسهم، ثم يعود، ليجلس طيلة الوقت أمام التلفزيون ويطرد منير في غمرة عنايته الطقسيّة بقدَميه- الذي لا يلبث أن يقفل سكّينه متنهّداً، ثم ينهض صافقاً باب غرفته بعنف.

لم يبقَ الشيخ نور الدين في برشلونة إلاّ ثلاثة أيّام كما كان متوقّعاً التقى خلالها بكلّ مجتمع برشلونة، بالأمراء، ولاعبي كرة القدم، والتَهَمَ الفرينات الصغيرة في فندق فاخر، ثمّ رحل مجدّداً، ليس من دون أن يدعونا لمرّة أخيرة، أنا وبسّام، إلى الغداء. تولّد لديّ الانطباع أنّني أتقاسم الوجبة مع عمّ ثريّ في أميركا. كان أنيقاً للغاية، مرتدياً سترة زرقاء داكِنَة وقميصاً أبيض مستقيم الياقة. كان يملك المال، والكلام البليغ، وبطاقة العودة إلى الخليج في درجة رجال الأعمال. رأيتني إزاءه ريفيّاً ساذجاً. لم أستطع الامتناع عن التحدّث إليه باللغة المغربيّة، فيما كان يروي لنا سهراته الإحسانيّة بعربيّة فصحى ممزوجة بلكنة مشرقيّة. ظلّ بسّام صامتاً، فيما نظرته تشي بالإعجاب، والخضوع الذي لا حدّ له. لا أعرف لماذا كرهت الشيخ نور الدين في ذاك اليوم، ربّما لأنّني في الصباح نفسه ذهبت لرؤية جوديت في المستشفى، ورؤيتها أرهقت أعصابي، وتعرفون السبب. على أيّ حال، كنت مسروراً لحظة ودّعته. أتذكّر جيّداً كلماته الأخيرة، قبل أن يوقِف تاكسي ليأخذ أمتعته من الفندق. قال: لا تتردّد إذا كنت راغباً في الانضمام إلينا، لا تتردّد، سيكون لدينا دوماً عمل لأجلك. شكرته دون أن أجرؤ على التحدّث معه عن حلمي بهذه المكتبة الصغيرة التوحيديّة والوثنيّة معاً في الرافال

في برشلونة. ثمّ فكّرت أنّ هذا الكلب صنع حياتي ودمّرها، وأنّه كان لديه جواز سفر صالح مليء بتأشيرات المرور، وأنّه لم يعرف قط لا كروز ولا شارع اللصوص، وأنّه يستحقّ رفسة في مؤخّرته لعلّه يتعلّمّ الحياة- ارتمى بسّام بين ذراعيه وعانقه بحرارة وكأنّه أبوه؛ أظنّني سمعت الكلمات التي أَسَرَّ بها له الشيخ في أذنه: كن قوياً، لعلّ الساعة تكون قريباً، وذكّرني كلامه بآيةٍ من القرآن. كان وداعاً مهيباً وفي منتهى الغرابة. لاحظ نور الدين أنّني سمعت. ابتسم وهو يقول كونا عاقِلين، ولا تنسيا الله وإخوتكم، ثم انطلق في تاكسي صفراء وسوداء.

نظر إليه بسّام راحلاً وكأنّه النبي نفسه يتوارى عن الانظار.

حان الوقت لأمسكه من يده كما كنت أفعل فيما مضى. قلت له حسناً الآن سنحتسي بعض أكواب البيرة على الرصيف ونتغزّل بالفتيات. أنا أدفع الحساب.

اكتسى وجهه بحزنٍ لامتناهٍ. وضع ساقاً على الأخرى وكأنّه راغب في التبوّل فجأة. أمسك بيدي وكأنّه فتاة صغيرة ضائعة.

قلت:

- هيّا تعال، سنحتفل.

واستسلم لي وكأنّه الجرو أو الطفل الذي ما زال على عهده.

«يسألك الناس عن الساعة قلْ إنّما علمها عند الله وما يُدريكَ لعلّ الساعة تكون قريباً * إنّ الله لعنَ الكافرين وأعدّ لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيراً». بحثت في القرآن غداة سهرةٍ أمضيتها أنظر إلى بسّام غارقاً في صمته أمام قنينة كوكاكولا، فيما كنّا نتنعّم بالأرصفة الغاصّة بالناس حول متحف الفن الحديث في برشلونة، وسط الصخب المدوّي الذي يحدثه المتزحلقون على ألواحهم وهم يضربونها بالرصيف محدِثين قرقعة لامتناهية مشوّشة- كان بسّام يراقب المتسحّجين غير مصدّق ما يراه، وكان محقّاً، إذ تبدو رياضتهم مذهلة لمن يشاهدهم للمرّة الأولى. كانوا يتزحلقون بضعة أمتار بالكاد على الساحة، ثم يقومون بحركة بهلوانيّة أو قفزة، أو نطنطة تبدو مستهجنة وتنتهي دوماً بالنتيجة نفسها: ينقلب اللوح في الهواء ليسقط على الأرض ثم يستوي صاحبه محاولاً تلقّفه ليُعاود حركته من جديد، كما كان حسن المجنون يدور بشكلٍ أبديّ. ضجّت الساحة بالصخب المنتظم المتوحّش لعشرات السحّاجات المتشابكة. جلس المتفرّجون على حافة البئر الرخاميّة يتنعّمون بالمشهد المتواصل لهذه الحركات الصاخبة، سواء كانوا سياحاً مرتاحين يدلّون سيقانهم، متمنطقين بآلات التصوير وحقائب الظهر، أم كانوا مراهقين يفرغون قوارير البيرة ويُدخّنون لفائف

الحشيشة، أم كانوا متسكّعين تعشّش فيهم البراغيث يجرعون ليتراتهم من النبيذ جالسين على أغطية يبّستها الأوساخ، أم كانوا رجال شرطة ثملين يراقبون كلّ هذا الحشد بنظرات مرتابة كنظرات بسّام- وفي النهاية، كان هذا الضجيج المتواصل يثير الأعصاب ويستحيل التعوّد عليه. يرنو بسّام إلى هذا السيرك باحتقار. لم يكن يقول الشيء الكثير بل يكتفي بأن يومئ لي عند عبور سروال قصير ملتصق بالجسم، أو تنّورة قصيرة أو صدر ممتلئ عارم. كنت أحاول التحدّث إليه لكن مواضيع الحوار سرعان ما تستنفد الواحد تلو الآخر. كان يرفض التطرّق إلى الماضي، ما خلا سنوات طفولتنا في طنجة، وبعض النوادر في المدرسة أو المعهد، وكأنّنا كنّا عجوزين.

شعرت بالارتياح عندما أعرب عن رغبته في الذهاب للنوم.

في اليوم التالي بحثت في قائمة معلوماتيّة عن الكلمات التي تلفّظها نور الدين، لعلّ الساعة تكون قريباً. الآية موجودة في سورة الأحزاب، ويجري الكلام فيها عن ساعة الموت، ساعة الحساب حيث السعير الأبدي معدّ للكافرين. تساءلت هل أصابتني عقدة الاضطهاد مرّة أخرى؛ بدا لي أنّ هذه الآية في فم نور الدين بمثابة رسالة مرمّزة. تعيَّن على بسّام أن ينتظر الساعة ليشعل نيران يوم الدينونة، هذا ما كان يبرّر طوافه حول برشلونة دون أن يوضح لي سبب وجوده فيها. كنت أعرف أنّ لديه تأشيرة مرور سياحيّة لمدّة شهر- لكنّه كان أيضاً عاجزاً عن إخباري بأيّة معجزة استحصل عليها.

كنت أتخيّله يدبّر اعتداء، أو انفجاراً بمعونة رفاقه الباكستانيّين في المسجد، كما كان يسمّيهم، أو ثأراً لموت بن لادن، أو ضربة أخرى لأوروبا إمعاناً في زعزعة أمنها في اللحظة التي تبدو فيها على

شفير الانهيار متصدّعة مثل إناءٍ جميل هشّ، أو عمليّة انتقاميّة يثأر بها للأطفال السوريّين القتلى، والأطفال الفلسطينيّين القتلى، للأطفال القتلى عموماً، أو بكل بساطة لأجل لذة التدمير وإضرام النيران، وما أدراني. تخيّلت كلّ البلاغة العبثيّة، والدوائر الحلزونية الممكنة للبلاهة. كنت أراقب بسّام في وحدته وانزوائه، متلاطماً، مثل كرة بليار في شارع اللصوص ضارباً بالعواهر الحزينات، مرتدّاً إلى المدمنين المقمّلين، وملتحي المسجد. كنت أراه من جديد مستغرقاً في ضغينته حيال اللوحة المنحطّة في رامبلا كتالونيا. لعلّ الساعة تكون قريباً، وأراه يرنو إلى فرج ماريا على عتبة منزلها، وأتخيّله حاملاً الحقائب المتفجّرة في مراكش، وقاتلاً بالسيف في طنجة، ومقاتلاً في مالي أو في أفغانستان، أو ربّما لا شيء من هذا كلّه، ربّما كان فقط رجلاً ضائعاً مثلي في دوّامة شارع روبادورس، رجلاً أجوف، رجلاً قبراً، رجلاً يبحث في ألسنة النيران عن نهاية عالم مائت قبلئذٍ، محارباً في مسرح الظلال، ومن حوله لم يعد الواقع موجوداً ولا المحسوس ولا الحقيقة، فيروح يتخبّط مدفوعاً بالنفَس الأخير للحقد، في فراغٍ لدنٍ، في غيمة. كان رجلاً أخرس، رجلاً أصمّ معدّاً للانفجار في قطارٍ أو طائرة أو في مترو، من أجل لا أحد، لعلّ الساعة تكون قريباً، لعلّ الساعة تقترب. كنت أرى بسّام يصلّي برأسه المستدير. لم أعد أتوقّع أجوبة على أسئلتي، ولا أيّ جواب. سيفتح جرّاحٌ مجهول عمّا قريب جمجمة جوديت ليستأصل منها المرض، من حولنا العالم يشتعل وبسّام ينتصب واقفاً هنا مثل أفعى مسحورة، مثل جندي قانط يحمل جثته في عينيه تماماً على غرار كروز.

•

لعلّ الساعة تكون قريباً. مرّت الأيّام طويلة صامتة- وكان بسّام يؤدّي فرائضه، دون أن يقول شيئاً. كان ينتظر، ينتظر إشارة، أو نهاية العالم، تماماً كما كنت أنتظر عمليّة جوديت التي تبدو أطول وأكثر تعقيداً ممّا كان متوقّعاً. في المساء، كنت أخرج للقيام بجولة مع منير في الرطوبة الدافئة لبرشلونة التي تذكّرني برطوبة طنجة وتونس- نشعر بارتياح حين نترك بسّام في شارع اللصوص ونذهب إلى رصيفنا الصغير، جنوبي المدينة تقريباً، في شارع دل سير. نشرب البيرة هناك، قابعين في هذا الزقاق المنسي، ومنير يشدّد من عزيمتي ويتمكّن دوماً من إضحاكي. برغم وضعه الهشّ، احتفظ بحسّ الفكاهة، وبحيويّته واستطاع أن يمدّني ببعضٍ منها وينسيني كلّ ما فقدته، وكلّ ما تحطّم، برغم العالم حولنا، وإسبانيا التي تغرق في الأزمة وأوروبا التي تدمّر على مرأى من أنظارنا، برغم العالم العربي الذي لا يخرج أبداً من تناقضاته. كان منير متعزّياً بانتصار اليسار في الانتخابات الرئاسيّة في فرنسا، ويستبشر في ذلك خيراً. بدا متفائلاً، لا شيء يمكن فعله، هو السارق الصغير، والتاجر، كان يعتقد أنّ الثورة تسير، وأنّها لم تُسحَق نهائياً تحت أقدام الجهل وعمى البصيرة، وكان يضحك، يضحك على ملايين

الأوروات الغارقة في المصارف أو في البلدان المحكوم عليها بالإعدام. يضحك، وهو على يقينٍ بأنّ كلّ ما مرّ به من مآسٍ لم يكن شيئاً، لا بؤسه في باريس، ولا بؤسه في برشلونة. ما زال محتفظاً بقوّة الفقراء والثوريّين. يقول لي يا لخضر، سيجيء يوم وأقدر فيه أن أعيش في تونس عيشة كريمة، ولن أعود بحاجة إلى ميلانو، أو باريس أو برشلونة، سيجيء هذا اليوم، سوف ترى.

وأنا الذي لم أكن أريد حقّاً أن أغادر طنجة، والذي لم أحدّث نفسي يوماً بأحلام الهجرة هذه، كنت أجيبه أنّنا سنكون في حال أفضل باختبائنا هكذا في الرافال، في قصرنا، قصر المصابين بالبرص هذا، ننظر إلى العالم ينهار، لعلّ الساعة تكون قريباً. وهذا كان يُضحكه.

بتّ مقتنعاً بازدياد أنّ الساعة أذنَت، وأنّ بسّام ينتظر إشارة لكي يشارك في نهاية العالم- يختفي قسماً كبيراً من النهار، وفق إيقاع الصلوات؛ يتظاهر بأنّه مسرور عندما أقترح عليه القيام بجولة في الحيّ أو الذهاب إلى حيّ آخر، أو التنعّم قليلاً بالمدينة التي تمدّ لنا ذراعيها؛ كان ينجح في التظاهر لمدّة نصف ساعة، والافتتان بفتاةٍ أو اثنتين عابرتين، أو برؤية ثلاث واجهات، ثم يعود إلى صمته، مستغرقاً في ذكرياته، أو مشاريعه، أو حقده. عندما كنت أستنطقه لأحمله على الاعتراف كان ينظر إليّ برأسه الريفي السمج وعينيه المشكّكتين وكأنّه لا يفهم إطلاقاً ما كنت أرمي إليه. وأروح أشكّ في مزاعمي وأقول إنّي أبالغ وإنّ جوّ شارع اللصوص ومرض جوديت بدآ يضغطان على أعصابي، عندئذٍ آخذ عهداً على نفسي ألا أعود للحديث ثانية معه- إلى أن يأتي المساء ويختفي لساعتين أو ثلاث الله أعلم أين مع رفاقه الباكستانييّن الذين يظهرون هكذا صدفة، ويعود إلى خرسه شاخص النظرات، ثم يأخذ مكان منير على الكنبة، عندئذٍ كنت أستعيد شكوكي وأسئلتي. ذات يوم، لاحظت أنّه وصل حاملاً حقيبة بلاستيكيّة، وهذا أمر غريب بالنسبة لأحد لا يشتري شيئاً ولا يملك تقريباً شيئاً إلا بعض الثياب التي

يغسلها بيديه بانتظام كلّ مساء قبل النوم- ألقيت نظرة على حاجيّاته عندما دخل للتبوّل، كان الكيس يحوي أربعة هواتف محمولة جديدة من طراز بسيط جدّاً. تذكّرت الطريقة التي دُبِّرَ بها اعتداء مراكش، وبالطبع لم أستطع أن أردَعَ نفسي فسألته عن الموضوع، لم يبدُ عليه الغضب لأنّني فتّشت في أغراضه، أبدى استياءه فقط من شكوكي. أجابني بكلّ بساطة أنّ الأمر متعلّق بعمليّة تجاريّة صغيرة مع أصدقائه في الأسفل، وإذا شئت أستطيع أن أحصل لك على هاتفٍ مجّاناً- العفويّة التي أجابني بها جرّدتني من أسلحتي فسكتت.

كنت ولا شكّ على شفير أن أصبح مجنوناً، مصاباً تماماً بهَوَس الاضطهاد.

٥

ذات يوم لم يعد بإمكاني أن أضبط نفسي فتحدّثت إلى جوديت عن الأمر. كانت لا تزال تعالج في المستشفى والعمليّة ترجأ باستمرار. ذلك أنّ الصرف المتكرّر لعددٍ كبير من موظّفي المستشفى أدّى إلى إقفال قسم من مراكز العمليّات- وكان هناك دوماً حالات طارئة تستوجب الجراحة أكثر من حالتها.

لم تكن نوريا هنا، كنّا وحدنا في الغرفة. جوديت جالسة على كنبة الزوّار وأنا جالس أرضاً إلى جانبها. تردّدت طويلاً، وقلت لها تعرفين أتساءل ما إذا كان بسّام يُخطّط لأمر ما.

مالت ناحيتي.

- هل تقصد لأمرٍ خطيرٍ؟

- نعم كما حصل في مراكش أو في طنجة. لست أكيداً. هذا فقط احتمال.

فكّرت في نظرة بسّام الجديدة، الفارغة والهائمة والأليمة.

تنهّدت جوديت، وبقينا برهة صامتين.

- وما الذي تنوي فعله؟

- لا أعرف.

انحنت صوبي لتداعب جبيني ثم جلست إلى جانبي أرضاً،

وظهرها مستند إلى السرير. ضمّتني بقوة إلى ذراعيها وتبادلنا القبلات طويلاً.

- لا تقلق، أعرف أنّك ستتخذ القرار الصائب.

وَجَب عليها أن تصرفني بلطفٍ لكي أنطلق باتجاه شارع اللصوص، تاركاً ورائي زمرة المدخّنين المتسربلين بأنابيبهم في فناء المستشفى.

سواء كان السبب انزواؤه أو العنف المعتمل داخله، ما همّ.

كان بسّام يدور على نفسه وقد تخلّى عنه كلّ عونٍ ربّاني، يتأكّله برص الروح، وداء القنوط - ترى ما الذي فعله هناك في الشرق، ما الذي رآه، ما الذي حدث، أيّ هول دمّره، من يدري. هل هي ضربات السيف في طنجة، أم القتلى في انفجار مراكش، أم المعارك، أم الإعدامات دون محاكمة في دغل أفغاني... أم لا شيء من هذا كلّه، لا شيء إلا الوحدة وصمت الله. أم أنّ غياب السيّد يصيب الكلاب بالجنون- كنت أشعر أنّه يناديني، ويسألني شيئاً ما، وأنّ نظرته تبحث عنّي، وأنّه يريدني أن أشفيَه. يجب الحؤول دون نهاية العالم، يجب منع ألسنة النيران من التطاول واجتياح كلّ شيء. وبسّام كان أحد هذه الطيور الأبوكاليبتيّة التي تحوّم، كما كان كروز يراقب طيلة النهار أفلام الفيديو عن الموت العنيف على الإنترنت. ولم أكن أكيداً من شيء، ولا من أيّ شيء إلا من هذا النداء، وقوّة العنف هذه - كان يخيّل إليّ أنّ هذا السؤال الذي طرحه عليّ كروز، وهو يتجرّع سمّه أمامي بعيد اتّخاذه قراره بالموت بأفظع طريقة، أستعيده في نظرة بسّام. إنّها الرغبة نفسها في الخلاص. أحياناً يجب التحرّك عندما تصبح ألسنة النار

مشربّيّة، وضاغطة؛ راقبت بسّام عائداً من الجامع بعد الصلاة، قال عبارتين، مساء الخير يا خويا لخضر، وارتمى على الكنبة- انزوى منير في غرفته. تبادلت بعض الكلمات السخيفة مع بسّام ثم انزوَيت في غرفتي الصغيرة وأنا أنظر لساعاتٍ إلى سيرك شارع اللصوص، إلى كلّ هؤلاء الناس الذين يطوفون في الليل.

كانت عيناه مغمضتين.

داعبت جمجمته الخشنة كالمبرد، فكّرت في طنجة، والمضيق، وجماعة نشر الفكر القرآني، ومقهى الحافة، والفتيات، والبحر. رأيت طنجة من جديد تسطع تحت المطر، وفي الخريف، وفي الربيع. تخيّلتنا نمشي ونذرع المدينة، من الجرف حتّى الشاطئ. عبرْتُ طفولتنا، ومراهقتنا، لم نعش طويلاً.

خرج منير من غرفته بعد ساعتين، رأى الجثّة، نظر مرتعباً إلى سكينه المدمّى المرميّ أرضاً. أخذ يصرخ لكنّي لم أسمعه. رأيته يؤشّر مرتاعاً، ويجمع أغراضه بسرعة. رأيت شفتيه تتحركان. قال لي شيئاً لم أفهمه وأسلم ساقيه للريح.

غفوت على الكنبة، قرب الجثّة.

بعد الظهر، اتّصلت بالشرطة من هاتفي المحمول. أعطيت العنوان شبه مبتسم، شارع اللصوص رقم ١٣، الطابق الرابع جهة اليسار.

في المساء، كنت في المخفر عندنا أعلمتني نوريا أنّ جوديت أجرَت العملية بنجاح. لا يمكن أن يكون هذا كلّه مصادفة.

بعد يومين أو ثلاثة جاءت نوريا لرؤيتي في مكان اعتقالي.

أكّدت لي أنّ جوديت ستزورني ما إن تخرج من المستشفى.

استُجوبتُ ونُسجت كلّ خيوط حياتي واحداً واحداً على أوراق لامتناهية.

صرّح الطبيب النفساني أنّني سليم العقل.

وبعد بضعة أشهر، ما إن تَلا المدّعي العام مرافعَته الطويلة المشؤومة حيث يلتمع سواد الجريمة مع سبق الإصرار، وبعد أن دافعَت محاميتي عنّي قائلة إنّي كنت ولداً ضائعاً، فتياً، فتياً جداً لأمضي عشرين عاماً في السجن، وإنّي حاولت حماية المجتمع «مكافحاً لأجل الخير حسب قولها»، وهذا يُفترض به أن يستدعي تساهل لجنة المحلّفين. وعندما سألني رئيس الجلسة عمّا إذا كنت أرغب في إضافة شيء ما نهضت غير ممتثلٍ لنصائح المحامية المدافعة عنّي، التي رأيت الشرر يتطاير من عينيها خلف نظارتيها، ونظرْتُ إلى جوديت بين الحضور، جوديت الأجمل من أيّ وقت مضى رغم شحوبها، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تشجيع قلقة. ثم اتّجهْتُ إلى القضاة قائلاً بهدوء، وآملاً ألا يرتجف صوتي كثيراً:

لست قاتلاً، أنا أكثر من ذلك.

لست مغربيّاً ولا فرنسيّاً ولا إسبانيّاً، أنا أكثر من ذلك.

لست مسلماً، أنا أكثر من ذلك.

افعلوا بي ما تشاؤون.

على طريق العودة، مرّ ابن بطوطة بسوريا مجدّداً ساعياً للقاء بابنه المولود بعد وقتٍ قصير من رحيله عن دمشق، قبل عشرين عاماً- آنئذٍ كان الطاعون المرعب قد فتك بالبلاد، وكان ألفان وأربعمئة شخصٍ يلقون حتفهم كلّ يوم، والوباء يعيث فساداً من غزّة إلى حلب. توفّي ابنُ ابنِ بطوطة هو أيضاً. وعلِم الرحّالة لدى سؤاله رجلاً عجوزاً أصله من طنجة عن أخبار البلاد بوفاة والده من خمسة عشر عاماً، وبوفاة والدته من فترة قريبة، هناك في الغرب. ثم اتّجه إلى الإسكندريّة حيث قضى الطاعون على ألف ومئة شخص في نهارٍ واحد، ثم إلى القاهرة حيث قضى عشرون ألف شخص، حسب قوله، وألفى كلّ هؤلاء المِشايخ الذين التقى بهم في رواحه قد فارقوا الحياة. بعدئذٍ ذهب إلى المغرب ومرّ بطنجة ليُصلّي على قبر والدته، ومن ثمّ أقام نهائيّاً في فاس.

واليوم وقد حلّ الطاعون من جديد، وفيما تهبّ ريحه المزمجرة مجتاحة قسماً كبيراً من العالم، أرى خلفاء حسن المجنون يطوفون في الباحة، كلّ هؤلاء الذين يرغبون في رؤية أمّهاتهم قبل أن يمُتنَ، ومدينتهم، وعالمهم قبل أن يُمحى. أعيش حياة السجن المترهّبة المنتظمة ومن حولي صحبة الكتب العذبة، أنظر إلى نفسي

في المرآة متفحّصاً خطوط الشعيرات البيضاء على صدغيّ، وعينيّ السوداوين، ويديّ بأظافرهما المقضومة. أحياناً، أتساءل عن ذنبي، بعد استيقاظي من كابوس آخر أشدّ رعباً من الأوّل، من حلم رأيت فيه دماء، ومشنوقاً، وامرأة تجوبها مباضع جرّاح، وجثث مراهقين غرقى. أترصّد نفسي في الصمت ولا أجد أيّ يقين، ولا أيّ يقين يُذكر. أعاوِد التفكير في كروز، وبسّام ونظرته الأخيرة؛ أعاود التفكير في مريم، وجوديت، وسعدي البحّار، وتتداح حسراتي من تلقائها، ثم تتبدّد. عرفت العالم وخبرْتُه. الحياة تستنفد كلّ شيء- الكتب ترافقنا مثل قصصي البوليسيّة البخسة الثمن، بروليتاريا الأدب، رفاق الدرب، في التمرّد أو الخضوع، في الإيمان أو التخلّي.

الرجال كلاب نظراتهم فارغة، يحومون في العتمة، ويركضون إثر طابة، ويتواجهون كرمى لأنثى، لأجل مرقد صغير، ثم يبقون ممدّدين ساعات وألسنتهم مدلاّة خارج أشداقهم بانتظار أن تقضي عليهم لمسة أخيرة- لماذا في لحظة ما نتّخذ قراراً، لماذا اليوم، لماذا الآن، ربّما كان هوَ من قرّر وليس أنا. كان بسّام جالساً في الصالون مستقيم الظهر، وبدا وكأنّه ينظر إليّ. كان ضوء الشارع يعكس ظلّه على باب منير المغلق. لم يقل شيئاً عندما رآني أخرج من غرفتي. انعكس ضوء المصباح الكهربائي على جمجمته الحليقة، واكتنف وجهه الذي كان بعكس الضوء بلون الياقوت الأزرق؛ اتّشح خدّاه بالسكون وطوّقت عينيه دوائر مظلمة. جامداً كان ينتظر في الصمت، ينتظر الله، وينتظر الساعة، وينتظرني- حدّق إليّ في الليل شاخصاً، ويداه على ركبتيه، وكأنّه في خشوع صامت.

ظننتني فهمت ما كان يطلبه مني، أنا وحدي كان بإمكاني النهوض وسط ألسنة اللهب اللامرئيّة. ربّما كانت حيواتنا تستحقّ أن تُعاشَ من أجل لحظةٍ واحدة، لحظة واحدة مستنيرة، ثانيةٍ واحدةٍ من الشجاعة. لم أفكّر، لم أفكّر أكثر من قبل، أعرف. انتفض بسّام وهو يسمع صوت حركة القطع حين أمسكت السكّين عن الطاولة: اهتزّ قليلاً، شدّ يديه على فخذيه، أشاح بنظره، استتر جانب وجهه بالعتمة، لم يُقاوم، ولم يصرخ، بل طوّق ظهري بيده، ربّما لكي يُساعدني، اختلج عندما دخل النصل في صدره، وانثنى تحت وطأة ألمه، ثم رفع رأسه ناظراً إليّ، ليَرميني بلغزٍ أخير أو اعتراف أو حزن أو دهشة. سقط على جانبه عندما سحبت النصل من قلبه- وسقطت أنا أيضاً.

من حولنا، بدأ الفجر بالطواف.

المحتويات

هذا الكتاب

لخضر شاب مغربي من طنجة، فتى دون تاريخ، مسلم معتدل، متعطّش للحريّة والانفتاح في مجتمعٍ متشدّد. في المدرسة تعلّم نتفاً من الإسبانيّة، وما يكفي من الفرنسيّة ليصبح قارئاً نهماً للروايات البوليسيّة، ينتظر سنّ النضج وهو يرنو إلى نهدَي قريبته مريم. معها سيرتكب الإثم، لمرّة واحدة لكنّها كافية ليضبطا متلبّسين بإثمهما. ثم تنهال الضربات على لخضر، ها هو في الشارع بلا دينٍ ولا خُلق.

ويبدأ عندئذٍ تسكّع يقوده إلى خدمة النصوص، والموتى، بطرق غير متوقّعة، مواجهاً كوابيسه بالواقع، منشغلاً بالحبّ ومشاريع المنفى.